www.riwaya.ga

سلسلة روايات الرعب

سلوف 1

زائر فوق العادة

وليد صباح

لحظة من فضلك !

دعنا نتوقف قليلاً عن الركض هنا وهناك ، لقد خضنا المعركة الأخيرة ر
حرب الرعب الطويلة وسقطنا فى فخ العيث مرة والعناوين العجيبة مرن
لكننا تسينا هذا الركن القديم الدافئ ، الزاخر بالحكايات المخيفة والقصص
دعنا نعتبره بيت العائلة الذى يجمعنا فى بؤرة ضوء كهرمانى حميم بالرغم م
زحف عتمة الأطراف ، لولا أن تلك العتمة كلما ازدادت كثافة سكنتها الأرو
العتيقة والخرافات وصفوف الكتب ، هى رغم كل شىء تقينا العواصف الق
بالخارج .

هلموا . اشربوا الشاى بعد العشاء الثقيل ، انهوا واجب المدرسة ، أغلق
حواتفكم وأوصدوا الأبواب . هات يدك فى يدى ولنحك سوياً ، فلا يوجد
نخاف منه سوى الخوف ذاته !

د. هانى حج

www.riwaya.ga

www.riwaya.ga

أدب الرعب.. أصله عربى

يفضل السينما تُنسب الفضل فى أسبقية أدب الرعب إلى الغرب ، لكنه بدأ شرقيًا منذ عهد بعيد جدًا ، ربما منذ نقطة مجهولة فى الزمن . ونقصد كتاب ألف ليلة وليلة الحافل بقصص الجن والعفاريت والمساخيط والملاعين والموتى والأحياء وضحايا تناسخ الأرواح والوحوش والمسوخ والشياطين، وحكايات أخرى كثيرة غريبة فى حد ذاتها ولا يمكن أن تنتمى للأدب الواقعى أو الخيال العلمى مثل البساط السحرى وطاقية الإخفاء إلى جانب حواديت قاتمة الأجواء سبقت الرعب القوطى وقصص محاكم التفتيش وكلها تنتمى إلى أفضل أنواع أدب الرعب على الإطلاق : الرعب لمجرد الرعب .. الرعب غير محدد الهدف وغير الحامل لإيديولوجيات مُعيّنة . ولم يكن بالمُدهش أن تنتقل قصص السندباد والعفاريت الذين ولص بغداد إلى السينما عدة مرات ثم إلى التليفزيون .

للأسف لم يُقدّر لهذا النوع من الأدب أن يأخذ مساحة جيدة من الكتابة العربية، اللهم إلا فى العصر الحديث عندما راح يكتب أنيس منصور من ضمن أعماله المتنوعة كُتبًا عن الأرواح والأشباح والقوة الخفية ولا تعد فعلًا من أدب الرعب. ولم يعرف القارئ العربى من أدب الرعب سوى القصص المترجمة الكلاسيكيات مثل دراكيولا وفرانكنشتين ود. جيكل ومستر هايد وروايات الجيب المتنوعة ، أشهرها السلسلة المسماة (ألفريد هتشكوك) . حتى هذه القصص نالت من الاهتمام مرتبة ثانية بعد الروايات الرومانسية التى لاقت رواجًا كبيرًا ثم تراجعت إلى المرتبة الثالثة بعد احتلال القصص البوليسية الصدارة فى

www.riwaya.ga

عناوين لأجاثا كريستى وأرسين لوبين والقديس وإيرلى ستانلى جاردنر والهارب وسلاسل الألغاز التى انتشرت كالوباء .

فى فترة متأخرة - أوائل التسعينيات - ظهرت سلاسل الرعب من جديد، ومعها بدأ الاهتمام بترجمة قصص رعب خفيفة مثل سلسلة (Goosebumps) التى تُرجمت تحت عنوان (صرخة الرعب) ولحقت بها أعمال عديدة مشابهة. وللأسف ظل أفضل الأعمال والأحدث منها لم يترجم لأسباب عديدة . وبالطبع كانت القصص الغربية هى التى اهتمت بعملية التصنيف وبالتركيز على نمط معينة : الفودو والزومبى - مصاصين الدماء - البيوت المسكونة - العوالم الفضائية ، وفى كل نمط نجد رواية شهيرة مميزة.. أشهر روايات مصاصى الدماء مثلًا هى (دراكيولا) لبرام ستوكر واستوحاها من أحداث حقيقية للأمير (فلاد تيبيسو الوالاشي) الذى عُد بطلًا رومانيًا لهزيمته الأتراك الذين اخترع من أجلهم فنون التعذيب وكان يتناول عشاؤه وهو يشاهدهم يجلسون على الخازوق ببطء شديدا

حتى جاءت قصة (ستوكر) عن مواثيق العقود (جوناثان هاركر) المدعو إلى منزل الكونت حيث تبدأ الأحداث الغريبة التى نعرفها جميعًا. وعندما يُذكر (دراكيولا) لابد من ذكر (فرانكنشتين)، كما أننا نذكر (هتلر) و(موسولينى) معًا فى كل مناسبة . حتى إن السينما أحبت دومًا الجمع بين الشخصيتين فى كم مرة ، خصوصًا فى الأفلام من الدرجة الثالثة أو التى لها طابع كوميدى ، وقد شاهدنا إسماعيل ياسين وعبد الفتاح القصرى يواجهان الكونت دراكيولا ود. فرانكنشتين فى فيلم جميل اسمه (حرام عليك) مقتبس عن فيلم أجنبى ذات الطابع.. لكن الفيلم العربى كان أكثر إمتاعًا وظريفًا بحق !

بينما خرج دراكيولا من كتب التاريخ وعالم الخرافة، جاء د. فرانكنشتين وليد عصر العلم والآلة ولعلها أكثر أهمية فى محتواها الأدبى كرواية بالرغم من قطعات كثيرة، على سبيل المثال ، د. فرانكنشتين يحاول البحث عن الوحش الذى خلقه بيديه لتدميره خشية من أن يبحث هذا المخلوق العدوانى الغريب عن وسيلة لخلق أنثى مماثلة له من ثم تتوالد ذرية جديدة من المسوخ كأنهما آدم وحواء عالم جديد بغيض ، هنا يجب أن تتساءل : كيف تمكن العالم الجليل من خلق هذا الوحش الرهيب من قطع غيار بشرية وبالطاقة الكهربية لكنه - ببساطة - لا يُفكر فى علاج مشكلته حتى دون أن نبدأ .. مثلاً ؛ يصنع أنثى فرانكنشتين بلا رحم أصلا !!؟!! .. كتبت القصة (مارى شيلى) ونشرتها فى ١٨١٨ تتحدث فيها عن العالم المجنون (فيكتور فرانكنشتين) الذى ينجح فى بعث الحياة فى جسد ميت (هو فى الواقع عبارة عن كتل متشابكة من عدة أجساد ميتة) لكنه فجأة يفر التخلص منه لأنه بلا فائدة كما أنه قبيح جدًا !

* * *

اسمه أحمد خالد توفيق

شتاء ١٩٩٣ ، الرحلة المعتادة مع الرفاق بعد المدرسة، لابد وأنك تذكر هذا اليوم جيدًا ، بائع الجرائد الذي لم يفهم أبدًا لماذا تتهلل أساريرك فجأة وتتراقص نشوة مجنونة في عينيك ، لكنه يتراجع عن التشكك في أمرك عندما تنفض كل ما في جيوبك من نقود وتنقض على تلك الكُتيبات الملونة المسحورة. وما سرها ؟ لا شيء سوى شعار (روايات مصرية للجيب) على الغلاف الأمامي، واسم د. نبيل فاروق على الغلاف الخلفي . أدعهم صبري يفتك بالأوغاد، نور وفريقه يقهرون المجرة، بطاقة نديم فوزي الذهبية ، منوعات رءوم، معارك فارس الأندلس ، فباهة عماد وعلا ، دقة القلب المتعشة وأنت تقرأ اسم (العدد القادم)، هناك دائمًا الوعد بعدد قادم ، ورجل أسطوري مهيب تخلّى عن رونق الطب ببساطة ولم يهتم كثيرًا بمكانة ما يكتبه في الأوساط المتجهمة ، وباختصار : سلّم نفسه لنا، فسلمنا أنفسنا له ! نعم، يجب أن يُذكر اسمه بوضوح ، ومعه العظيم الراحل حمدي مصطفى، قبل الحديث عن أب البوب في مصر والوطن العربي بالكامل . فضل الرجل على ما لا حصر له من أرباب القلم الشُبان ، بدءًا من طالب ثانوي حالم يقص صفحات كراسته لتحاكي قطع روايات الجيب ويُجرب الكتابة ، مرورًا بثلاثة أرباع المؤلفين الذين تجد أسماؤهم في قائمة الأعلى مبيعًا ، وحتى أحمد مراد النشيط المجتهد ، بعيدًا عن التسيان ، لكن النكران قلة أصل ورعونة لا شك فيها !

في هذا العام ، بين كنزنا المبهج ، ومع صدور عدد الصيف (الزهرة السوداء) وجدنا هذا العنوان (أسطورة مصاص الدماء والرجل الذئب) والمؤلف اسمه

د. أحمد خالد توفيق، تبتاع الرواية لأنك تتحمس لكافة إصدارات المؤسسة العربية الحديثة بينما أصحابك تبدو عليهم ريبة مفهومة البواعث ؛ فهذه خيانة للكاهن الأكبر، كما أن تجاربنا المؤسفة مع الذين حاولوا تقليده أكدت مكانته الخطيرة. وتحت هذا الضوء قُرئت أولى أعداد سلسلة ما وراء الطبيعة بحذر لا يخلو من تصيد للأخطاء، لابد وأنها لن تروقك ما دامت صفحاتها لا تحمل – من النظرة الأولى – تسق نبيل فاروق الشهير. لكن سرعان ما دعّم العدد الثانى (أسطورة النداهة) موقف المؤلف الجديد . هذه نكهة جديدة ومذاق مختلف لا يمكن تجاهله، بالرغم من ذلك تربّص البعض للأعداد التالية : (وحش البحيرة، لا بأس بها ولكن ما هذا الجو الإنجليزى البارد؟) (آكل البشر .. مممم .. جميلة ، ما هو العدد القادم؟).. أسطورة الموتى الأحياء حققت هذا الموسم برصيد معقول للرجل، وعندما صدرت له روايتا (رأس ميدوسا) و(حارس الكهف) فى معرض الكتاب استحق عن جدارة أن تُفتش عن أعداده بالاسم وتسأل عن موعد صدورها وتعتز باقتنائها مع رزمة الروايات التى حفظت معالمها وأدمنت رائحة أوراقها .

فيما بعد سوف يقدم سلسلته الثانية (فانتازيا) وبطلتها هى عبير عبد الرحمن التى قرأت كل شىء لكنها تسته فأتاها المرشد بجنة الخيال، تلتها سلسلة (ساغارى) وتحية خاصة لقرائه من الأطباء اليائسين فى بلدنا السعيد ، وتناثرت مقالاته وقصصه هنا وهناك. ما موضوعها؟ ماندیلا، مسألة طبية، فيلم قديم، كلام عن طنطا، لا يهم، إنك تقرؤها لأنها بقلمه ولا يعنيك فى كثير أو قليل رأى العالم فى كون ما بين يديك غير عميق لمجرد أن الشكل والألوان موحية بذلك وما دامت الطباعة غير فاخرة والغلاف ليس سعيدًا بما يكفى ،

وطبعًا لأنها لا تتكلم عن غياب الشبق المكبوت فوق تعاريج اللحظة (لا تتر
التخلص من فضلك ؟) ؛ فالرجل عبقري فعلا، من سواه وجد لأدبه مكانًا بجو
صانع المتعة الجبار نبيل فاروق ؟ عالم النشر الآن يحفل بعشات المعلو
لكتاب شباب ، بعضهم موهوب والبقية ستذهب جفاء وكلهم تجري في عرو
ما يكتبون جينات أسلوب احمد خالد توفيق وطريقة تفكيره وسخريته من
نفسه ومن العالم ، هل يجرؤ أحدهم أن يضع عينيه في عينيك ويعتر
ان ما يكتبه أصيل الابتكار والمضامين ؟ بصمته هنا وهناك، والصدق سج
كلمات بعينها تزخرف العبارات فتجعلها أكثر رشاقة، ومنهم من قضى لي
يلون الكوبيا يحاول الفرار من فخ التكرار وحذف كل ما يشير إلى الاخلاق
لكن الذي منحك الشعلة لتستمر بعده ما زال يمدها بالوقود، والذي وض
أساسك المتين ترك علامته المميزة، حتى لو أردت محوها فلن تستطيعا من
عقدين كاملين والمطابع أخذت من كاتبنا الفذ مفتاح الشفرة لكنها لم تفيعها
فظنوا أنه يكفي أن يكون جو الرواية مرعبًا مع لمسة فكاهية حتى تروج
لكن القراء ليسوا حمقى ولم يبتاعوا عصير اللغت لمجرد أنك ظريف وعت
بنفسك وكتبت عليه عسل نحل . خرجت التجارب مبتسرة فاشلة، بالرغم من
أن المسألة هي البساطة بعينها إلا يهم أن تبدو، المهم أن تكون! ، الرجل لأ
كثيرًا (والديه بالمناسبة ركن خاص في مكتبة عقله الكتب مثيرة وثرية لتر
الخصية لن تعرف حتى كيف تعدد عناوينها) ، ومارس الكتابة والتجريب باتج
لنفسه خطة شاملة واضحة المعالم ، ابتكرت طرائقها ونقلت جوهر الأد
الغربي في المبنى والمعنى بتمكن غير مسبوق ، والأهم منذ ذلك كله موهبة
طبيعية وأرشيف أسطوري في تلافيف مخه يسعفه بالأفكار والطرائف في لح

البصر. يا أخي أنت لا تتعب نفسك في قراءة أدب الرعب الأجنبي بلغته، ولا تمزّق قلمك في كرمة أخرى ، أو تراجع مسودتك مرارًا ، وأخيرًا تنقل بعض المشاهد من فيلم أمريكي وتحشر طائفة من الدعابات السمجة لا تضحك سواك، تحت عنوان كابوسي وغلاف مخيف غير مبتكر ، وتصدّق نفاق أصحابك في حفل توقيع متواضع ، ثم تظن أنني ساحب ما تكتبه وأضعك في مكانة واحدة مع كاتب بقامة د. أحمد خالد توفيق . هيهات !

وأنت تقرأ هذا الكلام الآن ، تنتهي رحلة عمر طويل رافقنا فيه العجوز الخالد، الدكتور رفعت إسماعيل ، أستاذ أمراض الدم المتقاعد وبطل سلسلة روايات ما وراء الطبيعة ، الذي أخذنا في جلسة تحضير أرواح نؤمن فيها مغناطيسيًا بحنكة وبراعة حتى صارت ملامحه محفورة في كل وجدان، ونظرته للأشياء والأشخاص نظرية نعيش بمقتضاها ، وأسلوب حياته طبيعة ثانية لدى جيل كامل . تعقّبَ لسالم وسلمى القادمان من عالمهما الآخر وقصتهما الأولى (أرض أخرى) ذات التكنيك الخاص ، أخطر حتى مما يفهمه السادة النقّاد ، أصابته لعنة الفرعون ، وآوى في داره الكاهن الأخير، عاد معنا لذكريات البيت المسكون في صباه ، وكاد يحترق باللهب الأزرق ، عزفنا على رجل الثلوج والنيات المفترس وحسناء المقبرة ، وجد قصاصات الغرباء ودخل عالم يو وفك أسرار التاروت ، قابل عدو الشمس والمينوتور وعفريت المستنقعات، قص علينا حكاية إيجور الرهيبة والجالوم والتوءمين ، رأينا فرانكشتاين ورجل بيكين والمومياء ، سمعنا النبوءة والكلمات السبع والرقم المشئوم في جانب النجوم ، دخلنا المقبرة وأرض المقول والمتحف الأسود وبقنا في بيت الأشباح وناداانا نادي الغيلان، عثرنا على الشيء والعلامات الدامية في صندوق بندورا ،

وأنا الظلال والطوطم والقناة الزرقاء (التي لم تظهر أبدًا !) وفي النهاية
عامل الضباء على أنغام أغنية الموت بعد أن ترك لنا "حلقة الرعب" مفتوحة
أجمل رواياته وأكثرها إتقانًا . وفي العدد الأخير من السلسلة (أسطورة الأبد)
يستريح رفعت إسماعيل، العجوز القاهر الساخر، نيراس كل شاب ذاق المر
أيامنا البغيضة المعقونة، وحلم كل فتاة موهبة ضاقت ذرعًا بسخافات الذي
يتوقف قلبه على وعد بالظهور من آن لآخر في أعداد خاصة . حسب إل
المؤلف ـ الذي نحترمه ـ منعًا للإملال ، وحسب مأساة النشر المؤسفة من
التخبط هو السمة السائدة ، والنجاح عشوائي بدافع الارتجال وإعجاب الفر
الوهمي من أصدقاء كل كاتب ، ومشروع روايات مصرية للجيب ـ أقوى دعم
حركة نشر عربية ـ نشأ باهتمام فردي وظل يكافح أمام متغيرات كثيرة .

ينتقل رفعت إسماعيل إلى مُستقره الأخير لكن حزن ملايين القراء عل
حقيقي وأكثر صدقًا من البكاء المزيف في سرادقات الأدباء والفنانين وعل
الدولة ، وأخيرا يتم عبارته الخالدة الحب حياته (ماجي) : « وحتى نحتل
النجوم .. وحتى تأتي لي هناك .. سوف نظل معا إلى الأبد ولن يفرقنا شيء
ونحن نرثيه بكلمات مؤلفه : « وداعًا أيها الغريب ، كانت إقامتك قصيرة
لكنها كانت رائعة ، عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا !!

❋ ❋ ❋

تليباثى !

كلهم فى أفغانستان يقبضون عليك ويلقون بك فى الزنزانة لأى سبب ! لهذا اتهموا الصحفى الفرنسى (آلان جيللو) ٤٨ سنة ، عام ١٩٨٧ بأنه يتجسس لحساب الحزب الشيوعى فزجوا به فى زنزانة ضيقة باردة فاتمة رطبة كالقبر ، لا أثاث أو معالم حياة . وكالعادة فالرجل يرى يعمل لحسابه الشخصى.. ينطلق إلى البؤر الملتهبة فى العالم .. يلتقط الصور ويسجل بقلمه الوقائع ثم يبيع التحقيقات الميدانية للصحف بمعرفته .

لكن الحظ السيئ جعل رحلته إلى أفغانستان تتفق مع نشاط للمجاهدين الأفغان ضد عناصر شيوعية فانتهى به الأمر إلى السجن دون محاكمة ودون تحقيق - وبالرغم من إنكاره فهو مطالب بالتوقيع على أوراق تثبت ولاءه للكتلة الشيوعية وبأنه جاسوس يستحق الإعدام .. هذه الطلبات التى لم يتحمس لها طبعًا !

أربعة أشهر قضاها فى ظروف تذكرك بقصة (البئر والبندول) لبو ، فالتهديد مستمر فى قبره الرطب ، التهديد بالقتل إذا لم يوافق على التوقيع على الأوراق التى تسهّل مهمة إعدامه! والحنين لبلاده ولزوجته التى اعتبرته فى حكم المفقود لاعنة الحماقة التى دفعته إلى هذا البلد الكئيب . ما له هو والحرب الأهلية فى أفغانستان ؟!

وبينما ضاق عليه الخناق هفت نفسه أكثر إلى ذكرى زوجته (نوبلا) التى طالما داعبته بقولها أنه يستطيع الاتصال بالأرواح على سبيل التسلية إذا وجد

نفسه فى ظروف حملة قاتمة! وكانت بالفعل تشير إلى ساعة يدها والعرق
إذا أتقن التركيز فى النظر إليها لتمكّن من السمو بروحه والاتصال العفوى
بعالم الأشباح .

ظلت تُربه تجربة على سبيل المثال: راحت تؤرجح الساعة يمينًا ويسارًا
وتتأمل وتتظاهر بالجدية والتعمق حتى بدت عليها علامات الجد بالفعل
وراحت تقول : أنت كنت تعرف فلانة!.. لقد خدعتنى مع صديقتى فى يوم
كذا .. إلخ . راح يضحك من الدعابة الساخرة وهو يبتلع ريقه سرًا ! تذكر يوم
هذا الآن وجو الزنزانة القابض يشجع الذهن على الارتحال إلى كافة الساحات
الغريبة والنائية من العقل . وبدأ الصحفى الفرنسى المسجون محاولة الاتصال
الروحانى بزوجته عن طريق توارد الخواطر ..

ابتعد بعقله تمامًا عن جو الزنزانة الخانق وتفاصيلها المقيتة ونسى كل
الظروف التى تحيط به ونظف أعماقه من كل مشاعر الغضب والخوف التى
ملأته فى الشهور السابقة . غرق فى التركيز الشديد متخليًا عن أى شعور آخر
مزعج ومضى يتأمل نقطة بعينها لمدة ساعات طويلة حتى بدأ نظره يزوغ
ورأسه يدوخ ويشعر بالصداع وبسخونة تسرى فى جميع أنحاء جسمه . رأى
زوجته (نوبلا) بعين الخيال وهى تقترب منه كأنها تشتاق إليه، وسمع ما قالته له
ذات مرة : « يمكن للإنسان أن يتصل بالأرواح إذا استطاع أن يصل إلى درجة من
التركيز الشديد فى نقطة معينة، ساعة يده مثلا، هذا حقيقى لا جدال فيه! »

بالطبع كان يسمع منها هذا الكلام ولا يصدقه، مزحة أخرى أو خرافة، ولكنها
قامت زوجته الجميلة بالتركيز العميق وتثبيت نظرتها إلى ساعة يدها لمدة

طويلة تقترب من ساعة كاملة وهى فى وضعية جمود وسكون شامل. وفى النهاية تطقت قائلة : «لقد قابلت فلانة فى اليوم كذا. وحاولت خيانتى معها فى يوم كذا » وبدأت تروى له التفاصيل المخجلة قبل وبعد زواجه منها وهو يواجم مذهول ! والآن يتذكر هذه التفاصيل وهو فى زنزانته ويحاول بدوره الاتصال بزوجته . بالعقل وحده . وبتوارد الخواطر . أو ما يسمونه التليباثى . فيتجاهل كافة الظروف المحيطة به. نسى إحداثيات الزمان والمكان وتخلى عن كافة مشاعره . ونظر إلى نقطة بعينها وبدأ يتعمق فيها لمدة ساعة. ثم ساعتين وعدة ساعات . حتى أوشك رأسه على التصدع وبدأت حرارة جسده ترتفع . وفى منتصف ليل اليوم التالى . أعاد الكرة . نفس التجربة الغريبة المؤلمة ، وحدثت نفس النتائج المزعجة . الصداع الشديد وارتفاع حرارة الجسم كله .

أعاد التجربة أكثر من خمس مرات فى خمس ليال متتابعة. التركيز الشديد جعله يشعر أنه قد جُن خاصة وأن جسمه بالكامل قد شُل وتوقفت حتى يده عن رعشتها وكأن قوة خفية تقيد حركته . لكن يده اليمنى بدأت تتحرك ببطء وتكتب على الأرض. بصعوبة شديدة حاول أن يميز ما نقشته أصابعه على تراب أرضية الزنزانة. ورأى هذا السؤال مكتوبًا : (من أنت؟) وقبل أن يفكر فى الإجابة وعما إذا كان هذا السؤال أصلا يوجه أحدهم له أم هو الذى يسأل الغيب ، وجد يده اليسرى تمتد لتكتب الإجابة : (أنا آلان جيللوا) ثم كتب بنفس اليد اليسرى وبشكل لا إرادى بالكامل السؤال الجديد: (ومن أنت؟) فكانت الإجابة : (أنا نوبلا) . ثم بدأ الحوار عن طريق الكتابة على تراب أرضية الزنزانة يحكى قصة أسره فى هذا السجن الأفغانى بتهمة التجسس وحتى محاولته لإرسال

هاتف روحانى التى أفاق منها وهو بين اليقظة والمنام وظن انه يحلم ، لكنه رأى الكتابة على الأرض ..

الحوار الكامل المتبادل بين ما خطته يده اليمنى وما كتبته يده اليسرى وقبل أن يسأل عن معنى ما حدث وعن جدواه بدأ يسمع أصواتا تهمس فى أذنيه . صوت هادئ مطمئن يقترح عليه إجابات يقولها للمحققين عندما يسألونه حتى يفلت من قبضة الأمر . هنا خطر له أن القائمين على زنزانته هم وراء هذه الأعاصير والغرض منها أن يصل إلى حافة الجنون وأن يخل عقله وتضطرب حالته النفسية فيندفع لقول إجابات توصل به إلى الهاوية وإلى حريته المفقودة لذا حاول أن يطرد هذه الأصوات عن عقله لكنه أخفق وظلت تهيم فى رأسه وتطن حتى أشرق عليه الصباح . وعاودته فى المساء . وفى الصباح التالى وهكذا !

وكانت النتيجة الطبيعية أن أصيب بحالة لعينة من الوسواس القهرى، فراح يضرب رأيه بيديه ويضربها فى جدران الزنزانة وفى الأرض وبدأ يشعر بالرعب من منظر الطعام وظن أنهم دسوا فيه المخدرات حتى يصاب بهذه البلاوى السمعية والبصرية وأن يصاب بالجنون المطبق فقرر الإضراب عن الطعام نهائيًا . وظل بالجوع والظمأ لعشرة أيام ، لكن الأصوات اليائسة لم تكف عن مطاردته ، لكنها الآن تطمئنه وتؤكد له أن البراءة حتمية وكذلك عودته لأرض الوطن . لكن هذا لم يجعله يرتاح ، بل زاد هياجه وحاول الانتحار عدة مرات كلها فاشلة . كان يحاول أن يركض بعنف ليرتطم برأسه فى جدار الزنزانة ، وفى كل مرة كان يشعر بوجود حاجز شفاف مطاطى يقف حائلًا بينه وبين الجدار

وفى النهاية أيقن ألا جدوى من المعاندة . فتوقف عن محاولات الانتحار
الباتسة كما توقف عن الاعتراض وبدأ يستسلم للأصوات خفية المصدر ويستمع
إليها باهتمام ويحفظ الإجابات التى تلقنها له، وخلال أيام عرف كل الإجابات
المناسبة أمام كل سؤال حسب ما تعلمه الأرواح الهائمة في الزنزانة . وأعلن يوم
المحاكمة رسميًا فى العاصمة الأفغانية كابول ومثل (آلان) أمام القضاء يحكى
حكايته تمامًا كما تعلّم من الخواطر التى زارته . وتخفف الحكم من الإعدام
شنقًا إلى السجن لمدة عشر سنوات. وخلال الشهر التاسع من مدة سجنه زاره
السفير الفرنسي في محبسه وبدآ في الاتفاق على مراسلات بريدية بينه وبين
زوجته عرف منها أنها كانت تدخل حالة من التخاطر لتخاطبه كل ليلة من خلال
أحلامها ، حتى تدخل ميتران، الرئيس الفرنسى لدى السلطات الأفغانية وتقرر
الإفراج عنه وترحيله إلى موطنه . وعندما عاد آلان إلى بلاده راح يحكى قصته
العجيبة في كل مكان لدرجة استدعت السلطات للكشف عن حالته العقلية ،
فتم وضعه في مصحة للمتابعة والملاحظة ، وفى النهاية تقرر أن حالته العقلية
سليمة وأنه غير مجنون . لكن (آلان) قد كف عن الثرثرة الفاضحة وأصبح متهمًا
بشدة بدراسة كل وسائل الاتصال بالعالم الآخر !

* * *

ساحرتان

متى ظهرت هذه القصة فى العالم أول مرة ؟ ربما فى كتاب (مع الكائنات) ، تعلها تنتمى للقرن الثانى بعد الميلاد. فى كل الأحوال ، هذا الرجل وصديقه يسقبان فى رحلة نحو قرص الشمس الدامى ، كأنهما عبدا مصر ولاتن حمامة فى عنام ذكرى شجية ! تسالويا هى المقصد، وما تزال تبعد عنهما كيلومترات ، ونسيم الليل البارد يبدأ فى المناوشات . أغصان الشجر ، وعن الحيوانات والطيور قد اختفت وما من صوت سوى همس الريح بين الغدر والأوراق الجافة . الرجل يشجع صديقه على مواصلة السير ، فإذا لم يصلا إلى وجهتيهما ، فعلى الأقل وجدا المكان الذى يمكنهما أن يأويا إليه الليلة . بينما رفيقه متوجس ويشعر أن الغابة هى ألف عين تراقبهما . ولحسن الحظ لم هذا الذعر دافعًا للاستمرار .. وبسرعة !

غابت الشمس وازدادت برودة الجو وحدة الريح ولا يلوح فى الأفق أثر لآدمى . احتشدت السحب فى السماء وبدت الأشجار العالية كأنها عمالقة وخُيّل لأحدهما ، واسمه (أريستونيوس) ، أنه رأى شبحًا يتحرك ، فحاول أن يمعن النظر قدر استطاعته فى هذا الظلام الدامس .

أين ذهب من كان يتحرك هنا الآن ؟ شبح ؟! لا .. هما شبحان فى الواقع ! يظهر ظل الثانى بعد الأول ويختفى كلاهما . بالطبع صار الصبر مرارة ، وكلاهما يلتصق بالآخر على جانب صف الأشجار ، وهو يتلفت إلى الجانبين فى كل لحظة يتأكد من أن نظراته لا تخونه .

لا ، إنه متأكد من وجود الشبحين . كلاهما ملتصق بالآخر ، كما هو ملتصق بصديقه. بل ويهرولان بنفس السرعة! وعلى نفس المسافة منهما ، هنا تخلى

عموما ، وقد حاول أن يقول ذلك لرفيقه لكن الكلمات تحجرت على شفتيه ، ومنعته أنفاسه المتلاحقة ، وقرر أنه لا داعى لإرعاب صديقه وأن يركز جهده فى الركض ، لعله مخدوع رغم كل شىء ! نعم ، لم لا ؟ لقد اختفى الشبحان بين سوق الأشجار .

بل يعودان !! وفى هذه المرة ظهرا فى هيئة أكثر وضوحًا .. إنهما لامرأتين طاعنتين فى السن .

لاح أمامهما من بعيد ما يشبه الضياء .

أبطأ المسير ، وظن (أريستوتيوس) أنها فرصة لالتقاط الأنفاس وإخبار صديقه بما رآه ، لم يتمكن من الكلام، فقط راح يشير إلى جهة الأشجار حيث رأى زوج الأشباح ، فتحولت عينا الصديق إلى حيث يشير لكنه لم ير شيئا! لعل هذا يؤكد أنه موهوم ، ربما ، خداع البصر وارد فى أجواء قاتمة كهذه ! ومع هذا الجسد المجهد والعين كليلة البصر . نعم ، كل شىء وارد . لا ريب أن الخيالات قد لعبت برأسه . لا وقت لهذا الكلام الفارغ الآن عمومًا ، فلنركز يا رفيقى على مصدر الضوء فى نهاية الطريق ..

ما هذا ؟

إنه نزل . جميل جميل !

أسرعا الخطا ينهبان المسافة التى تفصل بينهما وبين باب النزل الذى أنقذهما من الضياع فى الغابة المظلمة ، لقد استجاب الله لصلواتهما .

اقتربا من المنزل أكثر وطرقا الباب. سمعا الصوت من الداخل يسأل عن هويتهما . إننا مسافران تريد الطعام والمبيت. فتح لهما الباب عملاق ضخم البدن تأملهما لحظة ثم أفسح لهما طريق الدخول. تقدما ببطء يجيلان النظر

فى القاعة الواسعة. توجد طاولات ومقاعد خشبية وستائر خشنة . نزل لم يعد لكن لم تكن لديهما حرية الاختيار . سقطا متهالكين على أقرب الحائر طلبا لعشاء بليغة من صاحب المنزل الضخم الذى ابتعد ليجيب مطلبها وعندما بدأ يتحسان الصحناء عاود أريستونيوس سيرة الشبحين ، ودون جدو هز صاحبه رأسه نفيًا . هذا خيال . إذا كنا قد فررنا من الأحراش بمعجزة، فكيف تأتى لعجوزين ان تكونا فى الغابة وقد أوشك الظلام أن يهبط ؟ وكيف تمكنا متابعة خطواتنا ونحن نعدو فارين ؟ ولماذا لم تكشفا عن هويتيهما؟ لماذا لم تلحقا بنا إلى المنزل ؟ وأين هم الآن ؟ جاءهما الطعام ليقطع على أريستونيوس سيل أسئلة صديقه المنطقية التى أخرسته . وبالرغم من ضآلة إمكانات المنزل، كان العشاء عامرًا شهيًا تناولاه بنهم وعبا من النبيذ حتى الشهالة. وحينما فرغا سألا صاحب المنزل أن يدلهما على الغرفة التى سينامان بها. تناولا شمعتين وصعد الدرج ، فصعدا خلفه، درجات السلم الخشبى تصدر صريرًا مزعجًا تحت ثقل خطواتهما ، قبل أن يتبعاه فى رواق قصير إلى حجرة تليق بالصراصير.

الحجرة فيها فراشين وطاولة صغيرة عليها حوض صغير وبعض الأكواب فيها ماء ، ربما بغرض غسل اليدين والوجه، ومقعدين ، وضع الرجل إحدى الشمعتين على حافة الطاولة ، هل تأمران بشىء آخر ؟ لا ؟ حسنًا ! تركهما وأوصد الباب خلفه بقوة تليق بجسده العملاق . على الفور أطلقا أحدهما نور الشمعة بنفخة من فيه وألقى جسده على الفراش ككلب ميت. لكن أريستونيوس جافاه النوم وظل يتقلب فى فراشه رغم التعب وهو يتذكر الشبحين ويتساءل من جديد هل كانا حقيقة أم خداع بصر ؟ راح يتقلب فى محاولات فاشلة لاستجداء النوم ، ولما يأس أن يغمض له جفن ، استسلم للتفكير، خصوصًا وأن ضوء القمر ساعده على البقاء منتبهًا .

مرت دقائق أو ساعات . لا يعرف . لقد فقد مع خواطره الإحساس بالزمن وعندما بدأ الإرهاق يأخذ تلابيبه ، شعر بحركات غير طبيعية قريبة : هل يوجد دخيل في الغرفة ؟ لم ير شيئا . ولم يعد يسمع شيئًا . عاد يمعن تركيز حواسه من جديد ليكتشف مصدر الحركة الخفية ، ولكن بلا جدوى ، ما زالت الموجودات ساكنة والـ .. مهلا ، هل انفرج الباب قليلا ؟ إن الناقذه تواجه الباب مباشرة وسوف يسقط شعاع القمر على الداخل أيا يكن . ما زالت فتحة الباب تزداد انفراجا . يالله ، ما هذا ؟. يمعن النظر أكثر فيرى يدًا نحيلة مشمشة مستطيلة الأظافر ، كف عجوز معروقة قبيحة ، أصابع امرأة عجوز ينفتح الباب ببطء وحذر تسفر في مكانه من الرعب والفزع يتأمل الباب الذى ينفتح بالتدريج دون أن يحرك ساكنًا .

يا إلهى الرحيم ، ما هذه العجوز البشعة ؟ إنها امرأة عجوز رثة الثياب ، بغيضة المنظر ، ملابسها مهلهلة كالأسمال ، كأنها مسروقة من امرأة أضخم منها جرامي بنيانًا وعلى رأسها شال من الصوف يغطى شعرها، فلا تبرز منه سوى خصلات بيضاء تناثرت على جبينها المتجعد. وعلى شعاع النور المنكسر رأى الأنف المعقوف كمنقار الصقر والحدقتين السوداوين اللامعتين، والشفتين البارزتين حول فم بلا أسنان .

وقفت العجوز في المدخل ونقلت بصرها بين الفراشين ثم إنها أشارت بيدها فلحقتها امرأة عجوز أخرى كأنها توأم لها، نفس الشكل والصفات ، طبعًا عرف فيهما أريستونيوس العجوزين اللتان رآهما من قبل في الغابة . لم يكن وهمًا إذن ؟ ولكن كيف تتبعتهما العجوزان من الغابة إلى الحانة ؟ ولماذا ؟ ما الذى يفريهما في عابرى سبيل أفقر من الحشرات ؟ هل ينهض من الفراش في الحال ويواجههما ويبادر بطردهما؟ لا لماذا لا يصبر قليلًا ويرى ماذا هما فاعلتان ؟

شاهدهما تقفان دقائق تتأملان المكان ثم تنفصل إحداهما عن الأخرى وتقترب من فراشه هو تحديدًا . أغمض عينيه فورًا وحبس أنفاسه ليس فقط من الرعب ولكن بسبب رائحتها النتنة . لفحت صفعة وجهه أنفاس عارية لم يعرف كأنها من جوف الجحيم . ما الذي تريده هذه العجوز ؟ لابد أن يفتح عينه الآن ويواجه الموقف قبل فوات الأوان وقبل أن يموت مشلولًا من الفزع لن يرى وبالفعل فتح عينه مرة واحدة بأقصى اتساع لهما ورأى عينى المرأة العجوز تحدقان فيه مباشرة !!

تيبس جسده بالكامل فصار كالتمثال وغطاه عرق بارد يتصبب من كل مكان فى جسمه ، ورأى العجوز تمد يدها النحيلة المعروقة تلمس بها جبهته المحمومة التى تتصعد قطرات العرق . عيناها تحدقان فى عينيه مباشرة حاول أن يديرهما بعيدًا عنها لكنه فشل ، حاول أن يدير رأسه بعيدًا عن الصفعة القبيحة، لكنه أخفق ، حاول أن يفرج شفتيه ليصرخ مستنجدًا بصديقه النائم لكن فمه ظل مفتوحًا ولا صوت يخرج! جف ريقه ولم ينبس بحرف ، ينظر مضت المرأة العجوز تدلك جبهته برفق دون أن تبعد عنه ناظريها . حتى تركته أخيرًا وذهبت إلى رفيقتها التى كانت تنتظر بالقرب منها .

الآن استطاع أن يدير بؤبؤى عينيه ويتابعها ببصره . أشعة ضوء القمر ملأت الحجرة وساعدته . هل يستطيع أيضًا أن ينهض من فراشه ويتحرك؟ حاول فاستطاع . رأى العجوزان تتجهان ببطء ولقة نحو فراش رفيقه الناعس، وتوقفتا عنده إحداهما، على الأغلب هى نفس العجوز التى لعبت بأصابعها فى جبهته منذ دقائق وهو تحتها كالمشلول. كررت نفس الفعلة الغريبة القبيحة .

كفها إلي جبهة النائم ومسته. تحسسته مرارًا دون سبب مفهوم ، ثم إنها ابتعدت بعد قليل وأشارت إلي رفيقتها التي أخرجت من طياتها ما لاح له كأنه حق مصنوع من الجلد !! ما معنى هذا بالضبط ؟ فتحته كأنها تجهزه لاستقبال سائل ما! يا الله ! كانت المرأة الأخرى تخرج من عبها نصلاً حادًا. سن الخنجر يلمع في ضوء القمر ، نفضه الفزع فتمكن من الاعتدال قليلا في فراشه، لكن المرأة لمحته فالتفتت إليه بسرعة البرق فتهاوى من جديد يغطيه العرق !

عادت العجوز إلى الضحية الغافلة .

رفعت الخنجر فوق الصدر ، وهي تتمتم بتعاويذ سحرية ثم هبطت به بكل قوتها لينغرس حتي نصله في قلب الناعس .

صرخ أريستوتيوس من أعماق قلبه أو هكذا ظن . لم يصرخ . بل صرخ بداخله . وأغلق جفنيه بقوة لكنه ظل يسمع . سمع صوت قطرات سائل لزج يسقط في كيس جلدي .

كيف يسد أذنيه حتي لا يسمع ؟ مرت دقائق كالدهر حتي انقطع الصوت وساد الصمت . ما هذا ؟ ما الذي كانت تتمتم به العجوز ؟ هل هي ساحرة ؟ هل هما ساحرتان ؟ وما الذي ملأ به الكيس الجلدي ؟

يا له من سؤال أحمق ! دم .. طبعًا !!

وهناك سؤال أهم : هل تكتفيان بدم رفيقه ؟!

سوف يعرف حالاً .

أرهف السمع فلم يسمع أي إشارة لرحيلهما . طال الوقت عليه في القلق فتح عينيه ليراهما في موقفهما عند رأس فراش رفيقه .. المرحوم !

تأملانه ؟ لا . إنهما منهمكتان في نشاط ما لا يفقهه ، خاصة وأن ظهريهما . ظل يقلبهما بناظريه والفزع يشل كيانه . وتحركت واحدة منهما لتخرج شيئًا من طيات ثيابها. انتظر – مرة أخرى – أن يظهر هذا الشيء لضوء القمر ليتبين هويته . أي شيء بعد الخنجر وكيس جمع الدم يا ترى ؟

ها هو .. ما هذا ؟ إنها محرمة إسفنجة ! إسفنجة عادية ناولتها لرفيقتها ، ناولتها شيئًا آخر . هذا الشيء ثقيل وكان ينبض منذ قليل .

إنه قلب صديقه ! قلب صديقه فعلاً ، ينبض وينز الدم . قلب صديقه شيء آخر . لا يزال يقطر دمًا ، لا يزال ينبض في قبضة العجوز . وهنا أخرجت المرأة الشمطاء قطعة من قماش مهترئ قذر . قلبتها بين أصابعها ثم بدأت تلف فيها القلب النابض النازف ، ثم إنها حملت وعاء الدم وبدأت تقول بلهجة عجيبة :

– احذار أيتها الإسفنجة، يا بنت البحر، حذار كيف تعبرين النهار!

ما هذا الكلام العجيب والنبرة المخيفة ؟ ما معنى كل هذا ؟ لا وقت للأسف استدارت المرأتان . في اتجاهه ! المرأة ما زالت تمسك بالخنجر العلوث صديقه في يدها . تتقدم منه بثبات مخيف ؟ فقد الوعي في الحال .

كم مر عليه من الوقت وهو على هذه الحال ؟ لا يعلم ؟ هل مات ؟!

لا ، لقد أيقظته أشعة الشمس ، تلهب وجهه وتخرجه من ثبات طويل . فتح عينيه في ذهول وزيغ . في أي كوكب هو ؟ أي شيء حدث بالضبط ؟!

بتر تساؤلاته صوت عالي النبرة يهتف في مرح ظاهر :

– مرحى ، لقد استيقظت متأخرًا ، الحمد لله أنني تركتك تظفر بكفايتك من النوم . لقد كان الإجهاد الذي أصابنا أمس كفيلاً بأن يقتل الفيلان .

علم ، لم تبق سوى أميال كي نصل إلى (نسالويا) »

ما هذا ؟ أي جنون ؟ مكث في فراشه يستمع لهذا الكلام الفارغ وهو في غاية الذهول . ثم عاودته ذكريات الليلة الماضية بمنتهى العنف . قفز صارخًا لدرجة جعلت رفيقه يعقد حاجبيه مندهشًا :

ـ « ماذا دهاك؟ »

مضى يتأمل وجه صديقه . إنه بصحة جيدة وبكامل حيويته . لا يمكن أن يكون هذا وجه رجل مقتول ، انتزع قلبه وصفيت دماؤه .. ولكن ألا يعني هذا أنه كان يهذي ؟! وكل ما حدث بالأمس ؟ خلاوس ؟ أحلام مزعجة ليس إلا؟ كوابيس ؟ بالتأكيد ، فلا تفسير آخر لذلك . مهما كانت له علامات الحقائق الواقعية الحية . هل يقص رؤياه على رفيقه ؟ لا، ما الداعي ؟ إنه فقط سيمزح به ويسخر منه ! طيب ، ماذا حدث له ؟ إن آخر ما يذكره هو قدوم المرأتان في اتجاهه ، إحداهما تشهر خنجرها وفي يدها الأخرى الكيس الجلدي الذي صار وعاء الدم .

بحركة تلقائية وضع يده على صدره يتحسس موضع قلبه . إنه في مكانه وينبض كالعادة . كان كابوسًا مُزعجًا . هز رأسه ينفض الخيالات البغيضة وقام يغتسل من الأنية إذ يصب صاحبه الماء قبل أن يهبطا درجات السلم لتناول الإفطار ثم تفقد صاحب النُزل ماله والرحيل .

وعندما خرجا لنور النهار الدافئ ، وجدا اليوم مناسبًا لمواصلة الرحلة . في الواقع كانت أشعة الشمس البهيجة تُبدد أية بقايا لأشباح الساحرات الوهمية . اتخذ الرفيقان طريق رحلتهما في نشاط ، بل راح الرفيق يُدندن وهما يجتازا أجذوع الأشجار حتى انجلت عن سهول خضراء يانعة تربض وسطها المدينة

المنشودة تحيط بها الحدائق من كل جانب ويجرى أمامها نهر لامع تبع الجمال بعث فى نفسيهما الحماس للركض المسافة القصيرة الباقية .

اخترقا الساحات المزروعة وأحواض الزهر حتى وصلا إلى النهر . كان عليه اجتيازه كى يصلا إلى المدينة . كانت عبّارة سهلة بالقياس إلى باقى الرحلة الشاقة . مياه النهر شفافة ترى قاعها الحجرى ، تقدّم فيها أريستونيوس يجر رفيقه فى موجات مياه باردة رائقة صافية تُغرى بالشرب .

وبالفعل انحنى يجرع منهما بكفه عندما . . عندما تذكر فجأة : « مذاريا الإسفنجة! » فالتفت وراءه فى لمح البصر ليجد صديقه يعب الماء كالطفل المجنون .

صرخ فيه :

ـ « توقف يا أحمق! »

لكن الأوان قد فات وانكفأ صديقه على وجهه فى ماء النهر . هم بمساعدته لكنه عندما رفعه رأى تلك الندبة الغائرة فى صدره وقد بدأ جرحها ينتفخ إسفنجة مسحورة فى موضع القلب !

لقد مات الرفيق . بكل تأكيد فارق الحياة .

لم يكن حلمًا إذًا . لم يكن ما رآه مجرد كابوس لعين ! ماذا فعلت الساحرتان برفيقه ؟ بل ماذا فعلت الساحرتان به ؟

راح يتحسس جسده يطمئن على كافة أعضائه . إنه سليم . أو هكذا ظن حتى عرف أن الساحرتين شوهناه . عندما جاء المساء !

* * *

أفلام الرعب يا سادة !

السبب فى المكانة المتواضعة لأفلام الرعب بين النقاد والجمهور هو العهد الطويل الذى استهان فيه أصحاب هذه النوعية من الأفلام بقيمتها الفنية وجدواها بشكل عام . مخرج فيلم الرعب ومُشاهده يعترفان فيما يشبه الخجل بأنهما يتابعان الأمر لأنهما يحبانه، وكأن تبرير القيام به يوجب البحث عن سبب مقنع سوى الفن نفسه، النقطة الثانية هى أن الأفلام البارزة فى بدايات سينما الرعب بدلاً من أن تتسلل إلى أغوار النفس البشرية وتحلل الكوابيس قامت باستحضار المسوخ الخضراء والعيون المفقوعة والدم ، ومناقشتها النفسية تقريبا ظلت محصورة فى عمليات تحضير الأرواح ثم جلسات إخراج الأرواح الشريرة من أجساد البشر ومن البيوت، هذه المسألة التى أعطاها المخرج وليام فريدكين شعبية كبيرة وحفلت أفلامه بالساحرات والعفاريت وانحراف الشخصيات والميول العدوانية والعدمية الجسمية ، وهكذا أدى الفكر الاستحواذي المستغل (Exploitative) للسينما الأمريكية إلى تجسيد الحدث المرعب لا لتحليل الكابوس وإنما لخلقه من خلال قوى الاستعقاد (Sophistication) التى طغت على الهيكل العام لأخلاق القرن العشرين ، فأصبح ما نشاهده على الشاشة من سواد؛ يُكثف ما بداخلنا من قنوط متراكم من ويلات الحرب مجسدًا الهلع الدفين من فكرة الموت تحت الأنقاض . جاك السفاح الذى يستل مجموعة خناجره فى ضباب الأزقة الضيقة هو كل مجرم حرب ، الزيارات الليلية لعصاص الدماء هى بروفة لزيارة عزرائيل للبلدان الخائفة ، تشوهات الوجوه وكسور الجماجم والمسوخ المستنسخة فى المعامل

والأفضل هى المعادل البصرى لمخاوفنا المكتومة وأن ترى الفزع الذى يتجسد مجسدًا على الشاشة مهما يكن من أمر، فهو يريحك مؤقتًا، على الأقل لأن الفظائع والأهوال تحدث للآخرين وأنت فى النهاية آمن .

أنت تذهب إلى السينما وتفتح التلفاز بكامل إرادتك الحرة، لا يخرج الوحش من الشاشة ليطاردك فى المنزل أو الشارع ، كما أن سمكة القرش (الفك المفترس) كانت تلتهم من يدخل عالمها فقط ولن تصعد الشياطين لتعض أحدهم خارج نطاق قوانين الطبيعة . انتبه المخرج الكبير فيلليني لهذا الوجه الذى يعتريه الفزع فى النفوس ، دون الحاجة إلى مسوخ أو أشباح ، فى كابيريا بطلة فيلمه (ليالى كابيريا) لها طبيعة نبيلة وإيجابية وتقدم نفسها لمن يدفع مهما كان مستواه الأخلاقى ، تبحث عن السعادة مع أنها امرأة ساقطة ترغب فى التغيير ولكن قدر لها أن تلعب دور الخاسر الدائم فى هذه الحياة فى نهاية الفيلم تقترب من الأمنية أكثر مما يمكنها التقرب، لأن الزواج الوشيك جعلها تشعر أنها أكثر جمالا، ومن أجل أن تذهب مع العريس المنتظر لمنزلها الصغير الأثير ، وكل ما تملكه من زمن التضحية بأغلى ما تملك بالإضافة إلى مدخرات العمر ثم تكتشف أن الرجل الذى ظنت أنه لا يحب سواها لا يريد إلا الاستيلاء على ثروتها .

ينطُخ وجهها بالدموع والأصباغ فى مشهد مرعب فعلا يمثل الرعب بشاعة الإنسان لا الشبح . لا يؤمن فيلليني أن هناك أوغادًا بل بشرًا فقط فالأخيار قد يتصرفون كالأوغاد ، والأوغاد قد يكونون ضحايا الظروف ، لربما يكون أحدهم شيطانًا أسود القلب ويمكن أن يؤثر فيه مواء قطة صغيرة

ستاير بطل فيلمه (حياة حلوة) بطلا وينتهي كأسوأ وغد يمكن أن يقتل أطفاله ، حادثة أزعجت كثيرًا من الناس بما فيهم المنتجون والنقاد الذين اعتقدوا ذلك غلوًا منه ، مع أن الحادثة مستمدة من واقع الحياة والمنشور فى الصحف . فيلليني أفلامه جادة لكنه مولع بالأشباح، وعاش يجرى مئات الأحاديث الخيالية مع والده الذي يمقته وبعد أعوام على موته ، حاول وهو يبحث فى الظواهر الخارقة من أجل فيلم (جوليت والأشباح) أن يتصل بالأب الميت من خلال ما يشبه تحضير أرواح فنى . لهذا رأى أكثر من شاهد أفلامه أنها مخيفة بالرغم من أنها لا تنتمى رسميًا لسينما الرعب . لكن الرعب موجود فى عين الناظر، إنه طريقة فى النظر إلى الأشياء . «أعتقد أنه لو تمعّن أحدنا فى الحيوانات التي نذبحها لنتغذى بها، لبدت عملية الأكل فظة ومرعبة. لا أريد شخصيًا أن أعرف كيف تنفق الفراريج » يقول فيلليني : «ومن المؤكد أننى لا أجرؤ على فك رقبة واحد ولا أحب أن أتخيل سمكة تلهث طلبًا للهواء وسرطانات البحر تغلى حية ، هذا فظيع جدًا وإنى لأتساءل عما تحس به الفواكه والخضر » .

السمات الأساسية لأفلام الرعب :

تعتمد أفلام الرعب على عنصرين أساسيين : ضعف أو درجة لا استعداد الضحية ، والهيولى الخوارقية لمصدر التهديد ، لا توجد قدرات خارقة للطبيعة فى فيلم (سايكو) لكن البطل متعزز بقوة باطنية من طاقة الاضطرابات والوساوس والاستغناء عن التعامل الاجتماعى الطبيعى ، لكن الشائع هو أن يكون مصدر الفزع جبار لا يموت مثل مسخ فرانكنشتاين أو الزومبى الموتى الأحياء أو ابن الشيطان فى روايات ملف المستقبل وكلها تساعد فى إنتاج أجزاء تالية للفيلم أو العمل ، وقد ميّز هيتشكوك بين مفاجآت الأفلام العادية وبين حالة الترقب

التى يصنعها فى أفلامه والتى تعتمد على التصاعد التدريجى للرعب النفس
فى الوضع الراهن دون مستجدات والمعروف للجمهور لكنه يتجاوز إلى
الشخصية فى الفيلم (بطلة سايكو لا تعرف أن صاحب الفندق هو السفاح
أبطال فيلم الطيور لا يعرفون شراسة هذا الكائن الوديع، الرجل الفيل يخ
البطل طيلة الوقت) وكانت الروايات المعاصرة لهيتشكوك كلها تعتمد على بلو
الرعب القوطى البريطانى الذى يدور فى فلك فكرة واحدة: امرأة شابة بريئ
تستكشف منزلاً غامضًا ، لوسى فى دراكيولا مثلا ، والقارئ يعرف ما يخبئ
المنزل من أهوال لكن الفتاة غافلة . تطورت هذه المواقف فيما بعد حتى
تحولت إلى مجموعة الشباب الذين يستكشفون منطقة نائية أو بقعة مهجو
ليخرج لهم كائن ما يلتهمهم الواحد تلو الآخر. هذا دمج بين اثنين من أه
تيمات الرعب : الضحية الغافلة والمنزل المسكون مع كل خطوة فى الممرات
المظلمة فى بيت الأهوال نتعاطف مع البطل ونتسى حماقته وعند كل باب
يصدر صريرًا نرتجف قبله ولا نسأل أنفسنا : كل هذا القصر الفخم ولا يجدون
بعض الشحم لعلاج مفاصل الباب ؟

هذه الكلاسيكيات تتجاهل مستويات السخرية من عبثية الموقف الذى
تكفى فيه أحيانًا مكالمة هاتف أو الرحيل فورًا ، لحساب تدعيم حب الاستكشاف
وغريزة الفضول فى نفس البطل والمشاهد، وقد لجأ مؤلف مسلسل امتداد
إكس) إلى تصوير إحدى حلقاته بالكامل باللونين الأبيض والأسود فى قرية
منعزلة كأنك تشاهد أحد أفلام هيتشكوك بالرغم من أن اسم الحلقة هو
(بروميثيوس ما بعد الحداثة) لكن التفاصيل كلها تنتمى إلى رعب اللاثينات
عالم مجنون ومحاولات تهجين الوحوش مع البشر ، مسخ يزور البيوت ليحم

المقابر، إلخ . الظلام مرعب والظلال مرعبة أكثر، إنها تثير الخيال ؛ ما الذى يختبئ فيها ويمكن أن يخرج فى أى لحظة؟ سفاح ، نصف امرأة، وحش ذو أنياب؟ رغبة لا شعورية فى تجربة الموت قبل أن نموت فعلاً . لحظة التطهير بعملية انتحار رمزى .

طفل روزمارى

تيمة الانطواء موجودة ولها عالمها الخاص. خير ما يمثلها فيلم (طفل روزمارى) الذى كتبه وأخرجه المخرج الكبير رومان بولانسكى عن رواية لايرا ليفين . نغمة السخرية من كل شىء موجودة فى دعامات الفيلم كما تلمس تلك الروح فى كافة مغامرات العجوز رفعت إسماعيل فى سلسلة روايات ما وراء الطبيعة ، لكن هذه الزوجة الشابة تعيش فى عزلة وينمو داخلها الشك فى كل يوم حيال الرضيع الذى تحمله: سوف يأخذونه منها فور ولادته ليشربون دمه فى مراسم للسحر تعرف أنها تمارس فى الشقة المجاورة. روز مارى وود هاوس (الممثلةميا فارو) تلعب أيضًا أحد تيمات شخصيات الرعب الأساسية : المرعوب الجاهل الذى يسير فى اتجاه خطأ. لأن الحقيقة كانت أكثر من كل ما تتخيله كما سوف تعرف بعد قليل. بولانسكى يجعلنا نتوحد ببراعة مع روزمارى ، نحن نمقت الطقوس السحرية ومن يقومون بها وعلاقتنا بهم مزيج من التوجس والنفور . الفيلم يبدأ بنظرة بانورامية (بان فيو) لشوارع مانهاتن . الرعب يسكن المدينة ولكن أين ؟ تتطور اللقطة إلى ميل لأسفل بزاوية قائمة إلى الشارع أمام المنزل الذى يعرض فيه السمسار إحدى شققه على روز مارى وزوجها جاى وود هاوس (الممثل جون كاسافيتيس) ما الذى يمكن أن يحدث فى شقة عصرية فى إحدى أكبر مدن العالم المتحضر؟ هذه ليست قلعة

قوطية ولا بيت أشباح . بالرغم من ذلك يجدان أن الجيران مجموعة نكرة من هواة السحر ، لكن الزوجان روزماري لا يهتمان ، فهذه مدينة كبيرة والغرب يزيد عن كونه أحد الميول الشاذة السخيفة . فضلًا عن وجود مبنى الرومان كاستيفيت الزوجين الكهلين الودودين في الشقة المجاورة لهما . كذلك فإن طبيب التوليد دكتور سابيرشتاين (الممثل رالف بيلامي) الذي يتضح أنه أحد أعضاء فرقة السحرة ! لكنه يتابعها وهي لا تعرف موضوعه ويضعها بين أعشاب مفيدة، وما الفائدة؟ تلقيح الرضيع ليصبح ابن الشيطان الذي يعبد هواة السحر! تغلق على نفسها الباب بعد ما عرفته لكنهم يتسللون إليها من باب سري . يخبرونها أن وليدها قد مات . لا تصدق وتبحث عنه لتجده في النهاية ، وحتى عندما تعرفه بأصله الشيطاني تهز عربته بحنان لأنها أم وهي كل شيء . وهذا يشرح صدور زمرة السحرة في نهاية ساخرة وهم يحملون المسيح المنتظر . بولانسكي ركز أكثر على مؤامرة الجيران بينما تعتمد رواية ليفين على العدو الكامن في الداخل. الجنين الإبليسي !

ليلة الموتى الأحياء

في أواخر الستينيات كتب جون راسو سيناريو وحوار فيلمه الشهير (ليلة الموتى الأحياء) الذي تلقفه المخرج المرعب المولع بالجنث (جورج روميرو) وحقق الفيلم نجاحًا كبيرًا بالرغم من الإنتاج المتواضع وتنبه صُنّاع السينما إلى حقيقة أن للانتاج المحدود للشركات الخاصة في مجال الرعب تأثيره السحري لأن الديكور الفقير والإضاءة الشحيحة هي أساس الكوابيس وهي متوفرة في كل مكان . الفيلم من أوائل الأعمال التي قدمت الزومبي على الشاشة . موتى يخرجون من القبور بعدوانية صريحة تجاه الأحياء الذين يلتزمون جانب الهدوء

المنزل . كما قدم روميرو كل ما تأثر به في سينما هتشكوك : الحيوانات المحنطة ، الموت تحت الدش ، القوى الجماعية التي تطرق الباب ليلاً كهجمات الطيور التكتلية ، شواهد القبور وسُحب تظلل القهر.

الفيلم يبدأ في مقبرة . أخ وأخته يزوران قبر والدهما عندما يضع رجل مخيف يده على البنت . يدافع عنها الأخ فيموت في المعركة وتفر . تهرع إلى سيارتها لكن المفتاح ضاع . إنها محبوسة بالداخل والرجل الغريب يطرق الزجاج . السيارة هنا كالمنزل أو الفندق تحت التهديد في كل هذه الأفلام . ملجأ واه معرض لخطر محدق . الفتاة تنجح في الهرب إلى منزل قريب في غرب بنسلفانيا وهناك تقابل (بن) الذي تلاحقه جماعة الزومبي ، وفي القبو العديد من الهاربين . كل هؤلاء بالداخل والهول بالخارج كأننا عدنا للعصر الحجري ، ينطبق على الوضع قول (برستد) : «إننا لا نزال في مستهل عصر تكوين أخلاقنا وإننا ما زلنا على أبواب مملكتنا الشاسعة المترامية الأطراف التي لم نرد مجالها بعد . وإنه بيننا وبين الوصول إلى حدود تلك المملكة أهوال ومصاعب شاقة ربما استغرق التغلب عليها مئات الآلاف من السنين» .

وهكذا تكون النتيجة الحتمية للصراع بين الميت والحي هي الانتحار عن طريق الانقلاب على موازين الحياة والأخلاق . نجد في القبو الزوجين كوبر وابنتهما التي تموت ورجل وامرأة شابين . بعد قليل نعثر على صاحبة المنزل في الطابق العلوي . تعللت وتعفنت . ويلاحظون أن الميت الحي وحده غير قادر على الهجوم الفعال بل إذا هجموا في جماعة . كما أنهم يخشون النار بشدة وهذا ينجح في تخويف الواحد منهم وليس المجموع . لكن الأفراد

في محبسهم بنابيهم الذعر وينتشر كالعدوى . يثورون ويتشاجرون ويعمل
بن (الممثل داوني جونز) قيادة الجميع مع باربارا (جوودیث أودیا) المهيم
من فتحة خفية تحت حماية قذائف متفجرة صنعوها بأنفسهم ومعاونة بل
الشاحنة بالجاؤولين بينما يشتد الحصار. حتى يحدث هجوم آكلي لحوم البش
ويتحول الطفل إلى واحد منهم ويقتل أمه وتجد باربارا أخيها بين المهاج
الأحياء الذين يفشلون في اقتحام القبو . أما نهاية الفيلم فساخرة مؤسفة، بل
أن الشرطة تصل للمنزل وعندما يظهر بن من فتحة القبو يعتبرونه من الموت
الأحياء فيطلقون عليه النار في الحال، والمشهد الختامي للمأمور ورجاله وهم
ينزعون الزومبي وبينهم بن بالخطاطيف الحديدية ويلقون بهم في المحرقة
هذا الفيلم لا يطهرك ولا ينقيك ، ولا ينتصر فيه البطل ، بل يستمر كابوس
الرعب الفاشي الخارج من القبر .

عروس فرانكنشتاين

يرى فلبني أن أحلامنا وكوابيسنا هي ذات أحلام الناس الذين عاشوا منذ
آلاف السنين وكوابيسهم . وأن المخاوف التي نتمتع بها في منازلنا هي في
الأساس ذات المخاوف التي عاناها سكان الكهوف . وقد استعمل لفظة إتمتع
لأن هناك في اعتقاده متعة للخوف . وإذا كان الأمر خلاف ذلك ، فلماذا يقبل
الناس على امتطاء قطار الملاهي الأفعواني ، الخوف يصنع الحياة بحدة والإثارة
طالما أخذنا منها جرعات صغيرة ، والشجاعة القصوى هي التي يبلغها الإنسان
حين يقهر خوفه . والذين يخشون شيئًا هم المجانين أو الجنود المرتزقة
وهؤلاء ليسوا مسئولين ولا موثوقين، ويجب عزلهم بحيث لا يهددون غيرهم
من الناس بالأخطار . وعلى ذلك لا تنشأ الحبكة الفنية في فيلم الرعب

طريقة محفوظة من مصدر الرعب فى الفيلم ؛ لأن أساسيات الصورة المؤثرة فى هذه الأفلام يمكن تنفيذها بشكل أوتوماتيكى ، بعض المقابر والسراديب والظلال مثلاً ، دون الحاجة إلى فنيات خاصة ، بل على الفنان الماهر أن يحاشى عنصر الصعقة أو الصدمة المحضة الذى لا يدوم طويلاً ، الصعقة المطلوبة يجب أن تظهر ضمن إحدى مفاجآت الفيلم : قاتل يثب من زقاق ، أنياب غول تنمو ، جثة تستيقظ إلخ . وكليا تفاصيل فى الفيلم لا يجب أن يعتمد عليها تأثيره المرعب ، بل يجب أن ترتبط فكرة الفيلم بمخاوفنا غير الواقعية وبكوابيس الطفولة ، بغير تجسيد صريح ، فالتجريد العقلى فاشل فى هذا النوع من الأفلام .

لهذا السبب فاق نجاح فيلم (عروس فرانكنشتاين) نظيره (فرانكنشتاين) وهى النسخة الأصلية التى صنعت قبل أربع سنوات سابقة على العروس (١٩٣٥) بالرغم من وجود تشابه بين الصفات النوعية الكلاسيكية الموجودة فى كلا الفيلمين، لكن (عروس فرانكنشتاين) يمثل بالنسبة للمشاهد الحديث ظلا من كوميديا غامضة جعل الرعب أعمق . الأقسام الساخرة توازى رخبة العون فى رحاب الجو القوطى (تصوير جون ميسكول) ضمن مشاهد قاتمة يطفيها الضباب كتبها جون بالدرستون ووليام هيرليات بالاعتماد على نص رواية مارى شيلى . وهنا يأتى الدكتور برايتورياس (الممثل أرنست تيسيجر) بطاقة حيوية لأفلام العلم المخبول د. هنرى فرانكنشاين (كولين كلايف) فيفيض على الموقف المزيد من الجنون وهو يحلم بعالم من العسوخ والآلهة ، فيعرض على د. فرانكنشاين المعتزل العودة للعمل لتطوير المخلوقات البشرية ! وكى يشجعه يخطف خطيبته بمعاونة المسخ ، أما المشروع العظيم

والفكرة الخلابة هي خلق خليلة للمسخ، فريسة للوحش لبداية خلق جيل كامل من المسوخين، وهي أيضًا فرصة هائلة لنرى حجم الخبال في الدكتور برايتورياس وشخصيته ممتزجًا بروح المرح المجنون: إنه يعبث بمعقولية الوضع كله. لكن الحلم الكبير شيء ولاسع: عالم شامل من المشوهين والمسوخ. فنحن ننتمي للموت والكراهية، وليس أدل على عزلتنا والمرار أرواحنا من الأرواح الحالمة بظلال الفزع في كل حين !

الشجرة النائمة

مدفوعًا بيأسه ، ووجوده الذي يتلاعب به الأسى ، لا يجد جاسم نفسه ، وهو يمضي في رحلة أمل نحو شجرة الحياة الأسطورية ، وكل قاصديها مأخوذ بها ، وما يحيط بها جارف لا يعترف بالزمن والفناء، فتستعيد الحياة معاد وتصحو السعادة التي تسربت من بين أصابع جاسم وفورة ، ويعيشان زواجه من جديد . هذا هو مضمون فيلم (الشجرة النائمة) حسب رؤية مخرجه محمد راشد بوعلي في مقابلة معه مع CNN : «هدفي كان أن أقدم قصة تلامس أحاسيس الجمهور وتفكيره ، وحياته ، وتُقدّم فكرة عن بعض العادات والتقاليد والتراث البحريني . الفيلم يمثل قصة حقيقية وواقعية استمديتها من حياتي الشخصية ، وأضفت عليها العادات والتقاليد من الموروث البحريني ».

ما بين الرؤية والكلام الصريح سوف تلاحظ بسهولة المشكلة التي يقع فيها الفيلم : غياب النبعة . وبالأحرى ، تشتت المخرج بين طريقة تناول موضوعه بالمعنى الفيزيائي والروحي والواقعي والمجازي . شجرة الحياة موجودة في أرض الواقع وعمرها يزيد على أربعة قرون ويفد إليها السياح من كل مكان

وفي الفيلم يزورها (جاسم) مصادفة، وربما على كراهة منه، ولا يكترث كثيرًا بما يقال عن معجزات الشجرة، ويسخر من الطقوس والممارسات التي يتطوع بها بعض الزائرون ، ثم إنه يستلقي على جذعها في حالة كسل كالتي تعترى من دار على ساقيه كثيرًا في الغابة، وفجأة تهاجمه رؤيا لابنته جالسة على أحد أفرع الشجرة . يرى ابنته المريضة وقد كبرت وبصحة جيدة ، يبدو عليه الوجوم والاستغراب عندما يضيق من سنته ويبادر بسؤال أحد العجاج في سيارة العودة : «لماذا جئت إلى هنا ؟» ويتوقع أن يسمع ما يروى إيمانه الضعيف المتزعزع بقدرة الشجرة، لكن أمله يخيب في الحال مع الإجابة : «جئنا لمشاهدة الشجرة التي لا تموت، هذه هي المعجزة!» تسقط رأسه في تعاسة وتأمل . وهنا تحديدًا لا نفهم ما الذي يرغب كاتب الفيلم أن يقوله لنا . (جاسم) لا يتلقى صورة إعجازية تتحدى سخريته من الأسطورة، فما المقصود بالرؤية العابرة؟ وما معنى حالة الصمت التي انتابته كأن الحكمة قد هبطت عليه فجأة من قمة الشجرة اللغز ؟ إنه لم يتعلق بالأمل بالمعنى الحماسي الإيماني ولا وجد ما يغير من رؤيته التهكمية وهو من البداية يزور الشجرة مجبرًا .

إذا كانت الرمزية هنا تتعرض لمفهوم الإيمان ، على حد قول السينمائي مسعود أمر الله : «الفيلم رحلة صوفية موسيقية بصرية فيها عمق شخصيتين ، زوج وزوجة ، أصاب حياتهما الجفاف بسبب مرض أولادهما » ، ألا يجدر بالمخرج أن يوضح لنا سبب المفارقة التي تجعل (الشجرة) تكافئ الكافر بها بإلهام مناص أشبه برؤية رآها بوذا تحت شجرة التين؟ وماذا عن منات الزوار المؤمنين بالمعجزة، معجزة الخلود إن لم تكن القدرة على الشفاء ؟ ومما يزيد الأمر غرابة أن التعامل البصري للموضوع في الفيلم لا يرسي المشاهد على

بر ، فهو يرى الجموع تتوافد وتمارس الشعائر الخاصة للتبرك بالشجرة كأنها ضريح لأحد الأولياء أو صخرة فى الفاتيكان، لدرجة أن رجال الأمن والعهد المسئولة تتدخل حتى لا تسود الفوضى، ثم يرى الشجرة مهجورة كأنها تحتضر أحد الرهبان أو الزهاد يرش عليها بعض الماء كمن يزور مقبرة! إذا كان المخرج يقصد أن يضع كلًا من الصورتين أمامنا لغرض جديد (العلم تناقض السطور البشرى) فلماذا حسم المسألة ؟ إنه لم يترك لنا سوى ترجمة واحدة : أن الكسول ، الذى لا يحمل فى قلبه ذرة ثقة بالشجرة، تكافأه بسرعة ، لرؤيا صادقة، تتحقق فيما بعد بشفاء ابنته. لا يمكن استيعاب ذلك بسهولة لا بالمنطق الأدبى ولا الغرائبى- جدير بالذكر ملاحظة تلك النزعة السينمائية لعلاقة الإنسان بالطبيعة ، بينما أشاهد العرض الأول للفيلم (الشجرة النائمة) يتزامن عرض الأفلام الجديدة فى مهرجان القاهرة السينمائى ٢٠١٥ ومهرجان أجيال الذى استضافت الدوحة فعالياته فى ديسمبر من العام نفسه وقت كتابة هذه السطور وعرضت فيه (الحمل) الإثيوبى وهو قصة الصبى الذى تموت أمه بسبب الجفاف ويهاجر والده للعمل فلا يبقى له من صديق سوى حمل صغير وديع ، وفيلم (الجمل السماوى) من روسيا ــ منغوليا ، حيث الأسرة تفترق جمل صغير لكن أمه تثور وتهرب ، وأخيرًا فيلم (طوطم الذئب) من الصين عن قبيلة منغولية تعايش الذئاب لكن الثورة الشيوعية تبدل كل شىء .

تعود لشجرتنا ، راقنى أن تخرج صورة سينمائية من البحرين بهذه الخطوط والنضوج، لكنها لبنة جيدة وحجر أساس متين لا أكثر من ذلك، وليست صحة توصيف الناقد زياد عبد الله بأنه أهم تجربة روائية خليجية طويلة (تتسع الزمان والمكان وفق المعطى الثقافى العربى والخليجى، وآليات السرد العربية

في سياق صوفي لا يكون الفلاش باك عودة بالزمن بل كسرًا لحواجز الزمن أو ما يخرج الحي من الميت) الحقيقة أنه لا توجد رؤية صوفية في الفيلم ، سواء بالمعنى المنهجي المعتاد أو بتوجه خاص من الكاتب والمخرج ، لا وجود حتى لإيمان افتراضي تجريدي نلتقط منه طرف الخيط لنتسامح مع معطيات هذا الاستنتاج . مع ذلك تتخذ الأحداث مسارها المرئي والمسموع في إطار تشكيل سينوغرافي حالم ، بلغة المسرح ، يرسم ملامح البطل وحياة أسرته الصغيرة وعالمه الذي لا يتميز عن الآخرين في كثير سوى مشكلة ابنته التي تنغص على الأسرة حياتها، وتتداعى تيارات الأعماق في هيئة توتر موسيقي وإيقاع متسارع أحيانًا فتنطلق هواجس الحيرة ، وربما هي التي تجسدت في هيئة رؤيا المنام تحت الشجرة . وكان يمكن استغلال هذه التوجه من ناحية مخرج الفيلم في خلق خصوصية رومانسية تترك بصمات لامعة ورؤيا واضحة أكثر إما من خلال ثورة الإنسان عمومًا على خلل وجوده وظلم الأحداث وعشوائية تصيبه منها كل حسب وجهة نظره ، أو من خلال تسليمه للقدر بشكل مطلق بدافع إيمان إلهي أو قنوط موروث كأنه نغمة في سيمفونية عملاقة ، لكن الذي حدث على الشاشة في مجموع المشاهد هو حالة متوترة تعلقت بين إمكانيات الوعي العثير للجدل وبين ظلال الغموض الرمادية ، حتى السؤال: «لماذا هذا الرجل بالذات؟» ، كان سيغدو أكثر جاذبية وعمقًا إذا كان صانع الفيلم يسأله ويقدم محاولة للجواب ، أما أن يتساءل المشاهد فلا يفقه الإجابة ، فهي بالطبع نقطة تراجع لمستوى العمل الفني . ولعل أصدق توضيح للفيلم (الشجرة النائمة) جاء على لسان مؤلفه الأستاذ فريد رمضان : «الفيلم يتناول موضوع الحياة والموت ، اليقظة والنوم ، انتظار المعجزة أو انتظار الأجل المحتم أمام حالة مرضية

يعاني منها زوجان تتجسد في وجود بنت مصابة بمرض يوصف طبيًا بالشلل الدماغي . الفيلم يطرح هذه النبيهات من خلال وجود شجرة الحياة الملتفة بالحياة وسط الصحراء ووجود بنت مصابة بمرض الشلل الدماغي تمشي وتتكلم شبه عيتة أو في غيبوبة ، وكذلك من خلال علاقة الزوجين وهما يراقبان ابنتهما وينتظران حدوث المعجزة بشفائها » .

نعم ، هذا صحيح ، لا فلسفة عميقة هنالك ولا خلفية صوفية للأحداث ، فالمؤلف محترم يعرف ماذا يريد وكتبه بلا ادعاء أو تزيد ، لكن الرؤية الإخراجية شتتنا أم أبينا إن لم تكن واعية تمامًا فسوف تتسلل ولو بطرق الإيحاء من خلال عدة أشياء رمادية تشوش الصورة . وللأسف لا يمكن طبع تصريح المؤلف ونشره على أغلفة الفيلم أو تتر البداية ! وسوف يبدو الفيلم جميلًا في حينه هؤلاء الذين لا يبحثون عما وراء الوراء ، ولا يبالغون في عمليات التأويل ، فقط يقفون في هدوء وتأمل ، كما في رواية محفوظ (حديث الصباح والمساء) وفيلم أبو سيف (السقا مات) وسونانات شكسبير الأخيرة ، أمام حكمة الخالق الجليلة في تعاقب الحياة والموت ، النور والظل ، الخشوع والكبرياء .

* * *

قرأت لك : ثلاثة

(الرواية : ثلاثة ، المؤلفة : سارة لوفز ، الناشر : هاس ماركت بيبرباك، تاريخ الطبعة الأولى: ٢٨ أبريل ٢٠١٥) .

أربعة طائرات تسقط تباعًا، في أوكيجاهار اليابانية ، وكيب تاون في جنوب أفريقيا ، وفلوريدا قرب الساحل البرتغالي ، وبالقرب من المملكة المتحدة . ومن كل طائرة ينجو طفل واحد . هيرو ، وجيس ، وبوبي ، المجموع ثلاثة . وبالنسبة لعدد الطائرات ثمة ما يحفز على التفكير في طفل رابع، لاحظ أن كل طائرة سقطت في قارة مختلفة! رواية (الثلاثة) للكاتبة سارة لوفز تبدأ بفصل تناولت فيه على يد ستيفن كنج من الناحية الأسلوبية، الغوص ببطء في عالم الإنساني اليومي : السيدة (باميلا) أمريكية مفرطة السمنة، مقاتها تمثل بسرعة من ثم تحترق شوقًا لدخول حمام الطائرة التي تقلها من اليابان إلى أرض الوطن، لكن الطائر العملاق يهتز في الهواء مما ينذر بالويل، تعرف أنها على وشك أن تموت، فتبعث برسالة صوتية من هاتفها المحمول لزوجها عندما تدرك أن الناجي الوحيد هو الطفل (هيرو) ـ (البطل) ! على أن شاشات التلفاز والميديا العالمية تتعاطى المسألة من منظور أنها عملية إرهابية حتمًا ، هذا ما يشير إلى التوقيت المتزامن وتماثل الحوادث ، بالرغم من أن التحقيق الميداني نفى هذا المعتقد ، هي مجرد حوادث طبيعية، قضاء وقدر راح ضحيته هؤلاء الأبرياء ، وبالتالي ما كان من أجهزة الإعلام إلا أن تدير الدفة ناحية المأساة الإنسانية التي ألمت بأسر الضحايا عن طريق استضافتهم للثرثرة معهم بخصوص علاقتهم بالراحلين ونشر بعض الصور لاستعطاف قلوب المشاهدين . وفي هذه المرحلة تسرد الكاتبة روايتها بأسلوب أقرب للقصة

الصحفية ، فتخلى عن أسلوب كتم المسوب وتستعير طريقة دان براون دار
الطرق الجانبية المختصرة ، ويبدو الأمر منطقيًا جدًا عندما تتصدى لبطل
المشهد الصحفية (إليزابيث مارتينز) المتعمسة لمواصلة التحقيق الاستثمار
لا لإماطة اللثام عن أسرار الجريمة المحتملة ولكن للإفادة من المواد
المتحصلة فى إتمام تأليف كتابها (الخميس الأسود) الذى يتناول نبوءة
نهاية العالم فى ٢٠١٢/١٢/٢١ ، الفكرة التى يروج لها رجل الدين (ليز) وبول
بيا لدرجة الجنون ، لابد من أن الطفل الرابع قد نجا وهكذا تكتمل نبوءة
فرسان الرؤيا الأربعة المذكورة فى رؤيا يوحنا اللاهوتى بالكتاب المقدس .
ويتناثر كلام عن تدخل مخلوقات فضائية فى الأحداث الكبرى التى تحدث فى
سطح الأرض . أما الأطفال فقد بدوا غريبى الأطوار ، ولا يعرف أحد هل هذا
بسبب المعاملة منفرطة الحفاوة التى أحاطتهم من ذويهم ورجال الصحافة ،
أم هو أثر التجربة العنيفة التى مروا بها أو .. أو هو شىء آخر، كعس أعلم
مثلاً المؤلفة اعتمدت اللغة السينمائية فى كتابة روايتها فأسرفت فى وصف
المشاهد وهى صفة راجت بين أهل الأدب مؤخرًا عندما تكون عيونهم معلقة
أساسًا على السينما وعلى تناول أعمالهم دراميا فور الانتهاء منها. وهكذا سوف
يحب الرواية أصحاب الخيال المرتبط بالأفلام والذين اعتادوا على الإيجاز
بالكتابات المشهدية ، وفى ختام الرواية نقرأ هذا المشهد : يسمع على البعد
الصوت المميز للطائرة المروحية ، وهى تقترب ، كم يحب ذلك الجزء من
اللعبة . حينما يرفعونه عبر الهواء إلى الهليوكوبتر ، فى هذه اللحظة يتم
بمساعدة الدنيا مهما حدث ، ولكنه قرر أن يلعب اللعبة فى المرة القادمة
بشكل مختلف ، فهو يعرف .. وهو الذى سيلعب » .

* * *

رصاصة فضية

رواية مسلسلة

تأليف : ستيفن كنج

ترجمة وإعداد : د. هانى حجاج

الجزء الأول

١ ـ تاركرز ميلز

فوق بمكان ما فى السماء بزغ القمر مكتملاً مكتنزاً، لكن هنا في (تاركرز ميلز) خنقت عاصفة ثلجية سماء يناير بالثلج، واندفعت الريح بعنف إلى الشارع الرئيسى فاستسلمت لها كاسحات الثلج البرتقالية في البلدة مُعلنة عجزها بلا مقاومة. وكان (آرنى ويستروم) ؛ عامل إشارة السكة الحديدية على تحويلة جى إى ودبليو إم ، قد احتجز فى كوخه ذو الأضواء والعلامات على بعد تسعة أميال من البلدة ، وقد تجمدت عربته المعدنية التى تعمل بالجازولين والمخصصة للمشى على القضبان. إنه ينتظر العاصفة هناك ويتسلى بلعب (سوليتير الرجل الأخير) بأوراق لعب مشحمة منسخة كانت هدية مجانية مع الدجاجة ، وفى الخارج تعوى الريح وتتحول إلى الصراخ ، فينظر (ويستروم) فى توتر ثم يعود إلى اللعب. إنها الريح رغم كل شىء !

لكن الريح لا تخدش الأبواب ، ولا تعوى كى يُسمح لها بالدخول !!

ينهض من مكانه ، رجلاً فارع الطول، نحيلا، يرتدى سترة صوفية وزى عمال السكة الحديدية الرسمى ولفافة تبغ كاميل تتدلى من ركن فمه ، ووجهه الذى يحمل قسمات (نيو إنجلاند) تضيئه الانعكاسات البرتقالية من مصباح الكيروسين المعلق على الحائط.

يعود الخدش من جديد. هذا كلب أحدهم ـ فكّر ـ وقد ضل الطريق وتريد من يسمح له بالدخول . هذا كل ما فى الأمر .. لكنه برغم هذا يتردد. ليس من الإنسانية تركه هكذا فى البرد الخارج ، (ليس الجو أدفأ بالدخل على كل حال وبالرغم من وجود المدفأة التى تعمل بالبطارية ، استطاع أن يرى السماء الباردة التى كوّنتها أنفاسه) لكنه ما زال فى حيرة . ثمة إصبع بارد من الخوف يعبث تحت قلبه ، كان هذا موسمًا سيئًا فى (ناركوز ميلز) هذا العام ، وكان هناك علامات شؤم كثيرة على الأرض ، والد (آرنى) أصيب فى دمه ، ولم يعرف ما يشعر به الآن .

قبل أن يُقرر ما يجب عمله حيال هذا الزائر ، يتعالى الأنين المتخلخل لزمجرة . هناك صوت ارتطام كأنما شىء ثقيل بشكل يضرب الباب .. يتراجع .. يضرب الباب من جديد .. يرتجف الباب فى إطاره وتهب نسمة باردة لتجيء من أعلاه .

يُحدّق (آرنى ويستروم) فيما حوله بحثًا عن شىء يدعم به الباب ، لكن قبل أن يمد يده إلى المقعد الذى يجلس عليه، ضرب الشىء المزمجر الباب بقوة غير معقولة ، مهشمًا إياه من أعلاه إلى أسفله. يتماسك الباب لحظة يهتز رأسيًا .. يحشر رأسه فيه وهو يركل ويضرب بخطمه المتقلص على شكل زمجرة، وعيناه الصفراوان تتوهجان. هل كان هذا أكبر ذئب رآه (آرنى) فى حياته ؟ زمجرته تشبه كلام البشر إلى درجة مرعبة !

يتهاوى الباب أخيرًا ، يتحطم ، يستسلم . وفى لحظة سيكون الشىء بالداخل. وأيقن أن حبل حياته قد تصرّم وانقضت أيامه .

فى ركن الغرفة كان هناك منقاب بين أدوات أخرى.. التقطه (آرنى) وأمسكه بينما الذئب يشق طريقه بالداخل ويقعى .. عيناه الصفراوان تتوهجان مع

الرجل المحاصر في الركن . أذناه مسطحتان للوراء . لسانه يتدلى . ومن خلفه يدخل الجليد من الباب الذى تهشم في منتصفه . يشب وهو يزمجر، بينما (آرني) يطوح المثقاب . مرة . في الخارج تلمع أضواء المصباح الخافتة على الثلج عبر الباب المهشم . تعوى الرياح وتعوى . ثم يبدأ الصراخ !

شيء غير آدمي قد جاء إلى تاركرز ميلز لا يراه أحد . مثله مثل القمر الساطع فوق الغيوم من أعلى .. إنه المذءوب .. ولا يوجد تفسير واحد لوصوله الآن أكثر من أسباب حدوث السرطان أو قدوم مجنون تكمن فكرة القتل في ذهنه أو إعصار قاتل .. مكانه هنا .. وقته الآن ..

في هذه البلدة الصغيرة في ولاية (مين) التي ما زال الناس يؤمون الكنيسة فيها ليتناولوا المخبوزات في المناسبات الأسبوعية . وما زال أولاد وبنات صغار في المدارس يُحضرون فقاعًا لمعلماتهم . ما زالت الجريدة الأسبوعية تهتم باجتماعات المَسنين ..

الأسبوع التالي سنكون هناك أخبار من نوع أكثر قتامة .. في الخارج بدأت آثار أقدامه تمتلئ بالثلج . وبدا عويل الريح مهتاجًا منتشيًا . كل شيء هو الشيء الأسود والجليد القاتم . لا شيء إلهي أو منير في هذا الصوت عديم الرحمة !

لقد بدأت دورة المذءوب ..

2 ـ ستيللا راندولف

الحب.. فكرت فيه (ستيللا راندولف) وهي راقدة في فراشها العذري الضيق، بينما من نافذتها يدخل الضوء البارد الأزرق للقمر المكتمل في يوم الغديس (فالنتين) . الحب .. الحب .. الحب .. هذا العام تلقت (ستيللا

رانـدولف) التي تذهب إلى نادي الحياكة في (تاركرز ميلز) عشرين بطة بريدية بمناسبة عيد الحب . واحدة من (بول نيومان) وواحدة من (روبرت دفورد) وواحدة من (جون ترافولتا) . وحتى من أيس من فريق (كيس) فريق الروك المعروف . أبقتها مفتوحة في الغرفة أمامها بضبتها نور القمر الأزرق الشاحب . لقد أرسلتها لنفسها هذا العام . كما تفعل كل عام . إن الحب يحيا في ضوء الشفق . أو كالقبلة الأخيرة ، القبلة الحقيقية في نهايات الفصل الرومانسية .. الحب كالزهور عند الفجر .

لكنهم يسخرون منها في (تاركرز ميلز) .. نعم .. يمكنك أن تراهن على هذا .. الأطفال يسخرون منها (ولو ضمنوا أنهم يعيدون عنها ، وأن الكونستبل (نيري) ليس قريبًا ، لربما غنوا : «بدينة بدينة ، اثنان في أربعة» بأصواتهم الرفيعة العذبة الأوبرالية) .. لكنها تعرف كل شيء عن الحب .. وعن القمر .. إنها بدينة أكثر من اللازم وفرصتها ضئيلة ، لكنها في هذه الليلة بينما القمر يغمر غرفتها بهذا اللون الأزرق عبر النافذة المغطاة بالجليد ، فإنها تعتقد أن الحب ما زال ممكنًا .. الحب ورائحة الصيف الآتي .. سوف يكون الحب في وجنة رجل ، خشن ويسبب الحكة ..

فجأة سمعت خدشًا على زجاج النافذة .. تنهض من على الوسادة مرتكزة على كوعها ، وتسقط الملاءة الصغيرة من فوق صدرها الصغير .. إنه شكلا مشوهًا بعجب ضوء القمر .. لا تدري ما هو لكنه رجولي .. قالت لنفسها إنها تحلم .. وفي أحلامها سوف تسمح له بالدخول .. إنهم يستخدمون هذا المفهوم بشكل خاطئ ، لكن الحلم نظيف ، الحلم حقيقي ولا شيء فيه .

تنهض شاعرة أن هذا كله حلم ، إن هذا الجالس خلف النافذة رجل تعرفه رجل تمر به في الشارع كل يوم تقريبًا . (الحب .. الحب .. إنه يشبه القرابة

دائمًا ..) لكن إذ تعرر يدها المكتنزة على زجاج النافذة البارد ، ترى أن هذا ليس رجلًا على الإطلاق . هذا الذى بالخارج حيوان . ذئب أشعث عملاق ، مخالبه على عتبة النافذة ، ومؤخرته مدفونة فى الثلج الذى يغطى الجهة الغربية من بيتها ، هنا على ضواحى البلدة .

لكن هذا يوم فالنتين ، ينبغى أن يأتى الحب .. لابد أن عيشيا تخدعانها .. هذا ليس حيوانًا .. إنه رجل .. رجل وسيم لدرجة وحشية ! (وحشى .. نعم ، الحب وحشى !) جاءت هذه الليلة المقمرة ، وجاء هذا الزائر ليأخذها .

ترفع النافذة فتشعر برياح الليل تطير ثياب نومها الزرقاء الفضفاضة خلفها بغيرها أن هذا ليس حلمًا ..

لا يوجد رجل هناك ، وتدرك بما يشبه خيبة الأمل أنه لم يكن هناك رجل قط .. تتراجع للوراء وهى تهتز خائفة بينما يثب الذئب العملاق إلى غرفتها .. ينقض فراءه فتتطاير سحابة حلوة كالحلم من ندف الثلج فى الظلام .. (لكن الحب .. الحب مثل .. مثل الصرخة) تأخرت كثيرًا جدًا حتى تتذكر عامل الإشارة (أرنى ويستروم) الذى مزقه ذئب مفترس فى كوخ السكة الحديدية فقط من شهر واحد .. تذكرت هذا متأخرًا جدًا ..

يتقدم الذئب منها وعيناه الصفراوان تلمعان بشهوة باردة .. تتراجع (استيلا راندولف) إلى الوراء ببطء حتى تصطدم قدماها المكتنزتان بفراشها العذرى الصغير فتسقط عليه .

يغشى ضوء القمر على فراء الوحش بريقًا فضيًا .. وعلى العنضدة ترتجف البطاقات للحظة فى الهواء البارد الذى دخل من النافذة .. إحداها طارت ودارت فى الهواء حول نفسها عدة مرات قبل أن تستقر فى كسل على الأرض ..

يضع الذئب يديه المخلبيتين على الفراش ، واحدة على كل جانب منها. يمكنها أن تشم أنفاسه ، حارة لكنها ليست كريهة تمامًا .. عيناه الصفراوان تحدقان فيها ..

«الحب» ، همست وهى تغلق عيناها ، بينما انقض عليها ..

الحب يشبه الموت .

3 ـ وساد الظلام

كانت آخر عاصفة جليدية حقيقية ـ التى بدأت تنام مع هبوط الليل ـ قد ألقت الأغصان المهشمة فى كل شوارع تاركرز ميلز بأصوات تشبه طقطقة المدافع من الشقوق الموجودة فى الأخشاب المتعفنة ، «الطبيعة الأم تقلم أخشابها» هكذا يقول (ميلت ستورمفولر) أمين مكتبة البلدة لزوجته وهو يحتسى القهوة .. إنه رجل نحيل ، ضيق الجبهة ، أزرق العينين ، وقد استطاع بمهارته وأناقته أن يبقى زوجته الجميلة الهادئة فى سجن من الخوف الذى عشر عامًا .. رأت لميلت جملته هذه فكررها : نعم .. الطبيعة الأم تقلم أخشابها .. فجأة تنقطع الأنوار وتشهق (دونا لى ستورمفولر) زوجته فى رعب . بل أنها تسكب قهوتها .. «ستتطفئين هناء ، يقولها زوجها فى برود .. «ستتطفئين الآن» ..

« حاضر يا حبيبى . حالاً » وفى الظلام تبحث عن صنشة أطباق تجفف بها القهوة ، فتصطدم ساقها بمسند الأقدام .. تسقط على الأرض صارخة ويضحك زوجها فى الظلام من أعماق قلبه .. إنه يجد رعب زوجته ممتعًا أكثر من أى شىء آخر . عدا ـ بالطبع ـ النكات التى يقرأها فى ريدرس دايجست من نوع : دعابات الملابس الرسمية ، ونماذج من الحياة فى أمريكا ، التى تمتعه إلى أقصى حد !

www.riwaya.ga

كما قلّت أمنا الطبيعة بعض أخشابها ، يبدو أنها قلّمت كذلك بعض خطوط الكهرباء بمحطة تاركرز ميلز في ليلة (مارس) العصيبة هذه .. لقد غطّى الثلج خطوط الضغط العالي وازداد ثقلاً .. حتى سقطت على الأرض مثل عش من الأقاعي ، وراحت تتلوى وتبصق الشرارات الزرقاء ؛ فساد الظلام كل تاركر ميلز .

وكان العاصفة قد استكفت وشعرت بالرضا ، بدأت تهدأ قليلاً ، لكن البرد اشتد ، هبطت درجة الحرارة من ٣٢ إلى ١٦ وتجمّدت حقول القش في أرض الرجل العجوز علي شكل تماثيل عجيبة لها سطح أبيض برّاق ، لكن البيوت ظلت مظلمة .. ويلمع الثلج الذي يغطي الشارع الرئيسي كعظام ميت .. ولم يكن أحد من عمال الكهرباء قادرًا علي الوصول إلى مكان الخلل بسبب الطرق الزلقة .. تتباعد السحب كاشفة عن وجه البدر .

فيما بعد لم يستطع أحد تحديد من أين جاء الصوت ، لقد بدا كأنما هي آت من لا مكان وكل مكان ، كضوء القمر الذي لوّن أسطح البيوت . آت من لا مكان وكل مكان مع رياح مارس مثله مثل صوت بوق صحارب من الفايكنج .. تسمعه (دونا لي) بينما زوجها الشرير يغفو جوارها .. يسمعه الكونستابل (نيري) إذ يقف في نافذة غرفة نومه في شارع (الوريل) .. يسمعه (أولي باركر) ناظر المدرسة اليدين ، أستاذ قواعد اللغة عديم الجدوى .. يسمعه كثيرون ومن بينهم صبي عاجز على مقعد متحرك بعجلات ..

لا أحد يراه .. كما لا يعرف أحد اسم المتسكع الذي وجده عامل الطريق في الصباح ، حين وصل أخيرًا إلى البلدة لإصلاح كابلات الكهرباء .. كان مغطى بالثلج ووجهه يصرخ صرخة صامتة وقد تمزّق قميصه .. كان المتسكع وسط برك متجمدة من دمه ، ويداه ما زالتا ممدودتين في حركة من يبعد الهول عن جسده ، وقد تراكم الجليد بين الأصابع ، وحول جثته كانت آثار مخالب .

آثار أقدام ذئب!

٩ ـ ربيع رضا الرب

في منتصف الشهر استحالت آخر نوبات العاصفة الثلجية إلى ضلالات من المطر ، وثمة شيء مدهش يحدث في تاركرز ميلز : لقد عادت الخضرة .. لقد رحل الجليد في مزرعة آبقار ماتي غلينجهام ، وذاب الجليد في أسفل الغابة العمياء (الغابة الهائلة) .. يبدو أن الحيلة الرائعة القديمة ستنجح هذه المرة من جديد : لقد عاد الربيع !

احتفل القوم بالمناسبة بشكل محدود برغم الظل الذي خيم على البلدة . قامت الجدة (هيج) بخبز بعض فطائر التفاح ووضعتها على إفريز نافذة المطبخ حتى تبرد .. وفي الكنيسة المعمدانية قرأ الموقر (الستر لوي) بعض أناشيد سليمان وألقى موعظة عنوانها (ربيع رضا الرب) .. وفي الحانة بحثل أكبر سكير في البلدة ، (كريس رايتسون) بالمناسبة بطريقته الخاصة ، يرقص صاحب الحانة (بيلي روبرتسون) وهو يمشي مترنحًا في ضوء قمر أبريل الفضي غير الحقيقي ويقول للساقية :

ـ «لو كان للذئب فريسة أخرى الليلة، فأعتقد أنها (كريس)» .

تقول الساقية وهي تهز كتفيها :

ـ «لا تقل هذا !»

اسمها (إليز فورنيير) ، عمرها أربعة وعشرون عامًا ، تذهب للكنيسة المعمدانية وتتلو معهم الأناشيد لأنها مغرمة بالموقر (لوي) .. لكنها تنوي ترك البلدة في الصيف .. لا غرام ولا غيره ! إن موضوع الذئب هذا قد بدأ يثير رعبها فعلا .. بدأت تعتقد أن البقشيش ربما يكون أفضل في بورتس ملوث والذئاب الوحيدة هناك تلبس ثياب البحارة !

إن الليالي في (تاركرز ميلز) حين يكون القمر مكتنزًا ، غير مريحة .. أما النهار فيكون أفضل وتحلق الطائرات الورقية عصر كل يوم في عنان السماء .. ونال (برادي كينكيد) - البالغ من العمر أحد عشر عامًا - نصرًا في عيد ميلاده .. وقد فقد كل إحساس له بالزمن وهو يرقب الطائرة تعلو وتهبط في السماء الزرقاء ، ويرتجف خيطها في يده كأنها كائن حي .. لقد نسي أن عليه العودة إلى البيت للعشاء .. نسي أن كل الطيارات الورقية الأخرى قد رحلوا الواحد تلو الآخر .. وقد طوى كل منهم طائرة تحت إبطه، طائرته المصنوعة من الورق أو الألمونيوم أو التي على شكل خيمة أو صندوق ..

نسي تمامًا أنه صار وحيدًا .. دائما ما يكون رحيل الضوء ، وغزو اللون الأزرق هما ما يخبره بأنه تأخر ، وبأنه قد توغل بعيدًا .. وعندها يرى القمر يرتفع على حافة الحديقة .. للمرة الأولى هذا قمر دافئ .. منتفخ برتقالي اللون وليس أبيض شاحبًا ، لكن (برادي) لا يلاحظ هذا . فقط يعرف أنه بقي طويلاً وأن أباه سيلومه على الأرجح . وأن الظلام قادم .

في المدرسة سخر من خرافات أصدقائه عن المذنب الذي قالوا إنه قتل المتسكع الشهر الماضي .. وقتل (ستيللا راندولف) في الشهر الذي قبله .. وقتل (أرني وبستروم) في الشهر الذي قبله .. لكنه لا يضحك الآن ! وإذ يحول القمر طبشة أبريل إلى ستار دموي ، تبدو له القصص حقيقية أكثر من اللازم .

بدأ يلف الخيط بأسرع ما يستطيع ، جاذبًا النسر بعينيه الحمراوين من السماء المظلمة . يجذبه بسرعة بينما يموت النسيم فجأة ، ونتيجة لهذا تهوى الطائرة وراء المنصة في الهواء الطلق . يتقدم نحوها وهو يلف الخيط كلما تقدم . ناظرًا في عصبية إلى الوراء . وفجأة بدأ الخيط يهتز في يديه للأمام

والخلف . ذكره هذا بخيط الصيد حين يمسك بسمكة كبيرة فى مجرى نهر تاركرز . ينظر إلى الخيط فى توتر مفطبًا .

فجأة يدوى زئير مريع فى سماء الليل ويصرخ (برادى كيناسيد) ! الآن هو يصدق . حسنًا، يصدق . لكن تأخر الوقت جدًا ، وقد ذاب صباحه ومطالبه الذى بدأ يتعالى إلى أن صار عواء .

الذئب يركض نحوه . يركض على قدميه. فراؤه المشعث يرتقالى المزرر لهيب القمر وعيناه مصباحان أخضران بزاقان . وفى إحدى اليدين ـ اليدان اللتان تبدوان آدميتين ، وقد حلت المخالب مكان الأصابع ـ يرى طائرة النسر تشبه النسر . إنها تهتز فى جنون .

يستدير (برادى) للهرب ، لكن ذراعين جافتين تحيطان به . ويشم شيئًا سيئًا هو مزيج من الدم والقرفة . ويجدونه فى اليوم التالى ملتصقًا بالنصب التذكارى للحرب، بلا رأس وبلا أحشاء . وطائرة النسر فى إحدى يديه .

ترافص الطائرة كأنما تبغى الصعود إلى السماء، ببطء فريق البحث بجواره أدواجه مذعورًا شاعرًا بالغثيان . والطائرة فى يده تتراقص لأن النسيم قد صار يتراقص كأنما هى تعرف أن هذا يوم مناسب للطائرات الورقية .

5 ـ الوحش يمشى بيننا

عشية (أحد العودة للوطن) فى الكنيسة المعمدانية ، حلم السوقر الخاص لوى) بحلم مريع ، صحا منه يرتجف غارقًا فى العرق ، ناظرًا عبر نوافذ بيت الكاهن . عبر الطريق كان يستطيع أن يبصر كنيسته . ضوء القمر يدخل من نوافذ غرفة النوم فى شعاع فضى ثابت . يخطر له أنه للحظة سيرى الشىء الذى يتحدث عنه الجميع ، ثم يغمض عينيه ويستغفر الله على تصديقه هذه الخرافات . يختم صلواته بعبارة واحدة : حيًا فى الله ، آمين .

لكن الحلم .

في هذا الحلم كان في الغد ، وكان يعظ في احتفال (العودة للدار) ، فقط المجانين يطلقون عليه ذلك . وبدلاً من أن يرى مقاعد خالية أو ملينة كما يحدث أيام الآحاد ، كان كل مقعد مليئًا . في هذا الحلم رأى نفسه يعظ بقوة نارية لم يعتد أن يعظ بها . اليوم لمست لسانه قوة هائلة وأدرك أنه إنما يلقي أعظم موعظة ألقاها في حياته . وكان موضوعها هو التالي : (الوحش يمشي بيننا) . كان يدور حول هذه النقطة شاعرًا أن كلماته صارت شعرية ، وأن صوته يزداد قوة .

إن الوحش ـ كما قال ليهم ـ في كل مكان. الشيطان يمكن أن يوجد في أي موضع ولو حتى في رقصة في المدرسة الثانوية . يشتري علبة سجائر مارلبورو في المتجر وقداحة بيوتان كبيرة. يقف أمام صيدلية برايتون ويلتهم شطيرة عند الساعة الخامسة إلا ربع . ربما كان الوحش جالسًا جوارك في قاعة الكونشيرتو . ربما يأكل فطيرة في مطعم (دردش وامضغ) في الشارع الرئيسي .

الآن صار صوته همسًا . لقد استحوذ عليهم تمامًا . احترسوا من الوحش . ربما ابتسم وقال إنه جارك . أسنانه حادة ويمكنك أن ترى تقلب عينيه . إنه الوحش - وهو هنا في تاركرز ميلز بالذات . لكن فجأة ينهار وتتخلى عنه طلاقة لسانه . لأن شيئًا مريعًا يحدث هناك في كنيسته .

إن المستمعين يتحولون إلى مذعورين ، كلهم، الثلاثمائة مستمع : فيكتور بولي ، رجل البرلمان الأبيض البدين المنتفخ ، وفجأة يستحيل جلده إلى اللون البلي وينجعد ويظهر عليه الشعر . فيوليت ماكنزي ، معلمة البيانو ، جسمها العاتي النحيل يعتلي فجأة . منخارها يتسطح ويطول . مدرس العلوم البدين ذو الشعر الأحمر الفريعان يزداد بدانة . وخصلات شعره قوية كالزغب تنبت من صدره ،

كما يشب الباى من الأريكة القديمة ! شقتاه الصغيرتان تتراجعان كالشيء
أسنان غليظة كمفاتيح البيانو !

يتراجع العوفر (الوى) عن منبر الوعظ في خوف ، بينما تسود الفوض
ويصرخ الرجل :

ـ ، الوحش ! إنه في كل مكان ! كل مكان . الوحش يعيش بيننا !

لكن صوته لم يعد صوته . لقد تحول إلى نوع من العواء بلا مقاطع . وهي
تنظر لبديه رأى أنهما تحولتا إلى مخالب . هذا مجرد حُلم . كذا فكر وهو يعو
لفراشه فقط حلم . الحمد لله .

لكنه حين فتح الكنيسة في صباح الأحد ، صباح يوم (أحد العودة الوطن
لم يكن ما رآه حلمًا . هذا جسد (كلايد كورليس) الذي تولى التفتيش في
أعوام . هذا جسده وقد فرغ من الأحشاء معلقًا من قدميه ومكتسٍ بقر
لم يكن هذا حلمًا ، فقط تمنى العوفر (الوى) لو كان كذلك . يفتح فمه بصر
بأعلى صوته . لقد جاء الربيع ثانية . وفي هذا العام جاء الوحش معه !

6 ـ دردش واصفح

في أقصر ليالي العام ، يقف (ألفي نوبفلر) صاحب (دردش واصفح)
المقهى الوحيد في تاركوز ميلز ، يلمع المنصة المصنوعة من الفورمايكا ، ثم
رفع كمي قميصه حتى كوعيه ، كاشفًا عن ساعديه العضليين المغطيين
المقهى في هذه اللحظات خالٍ تمامًا ، وهو ينهي عمله فيقف بعض الوقت
ينظر إلى الشارع ويتذكر لقاء الحب الأول في ليلة صيف . كان هذا مع (الين
ماكيون) ، إنها الآن (آرلين بيسي) ، زوجة أحد أنجح محامي بانجور ، ليلة
كانت ليلة رائعة في مقعد السيارة الخلفي ، وكم كان عطر الليلة منعشًا !

ينفتح الباب الذى يقود إلى الصيف ، ويسمح بدخول مد هادئ من ضوء القمر . إنه يعتقد أن المقهى خالٍ لأن الوحش يمشي في ضوء القمر ، لكن (ألفى) لم يكن خائفًا ولا قلقًا . لأن وزنه اثنان وعشرون رطلًا ، وأكثر هذا الوزن عضلات ممتازة اكتسبها من البحرية . لم يقلق لأنه يعرف أن الزبائن سيأتون في الصباح طلبًا للبيض والبطاطس المحمرة والقهوة كالمعتاد . يقول لنفسه : ربما أغلق مبكرًا هذه الليلة . وربما ابتاع بيرة ولعل الوقت مناسبًا للذهاب للحفلة التالية في السينما . سينما سيارات . يونيو . سماء دافئة وقمر مكتمل . يوم مناسب لتذكر غزوات الماضي .

يتجه لآلة القهوة عندما ينفتح الباب خلفه . يستدير .

ـ « هيه ! كيف حالك؟ »

يسأل لأن العميل زبون لديه برغم أنه لا يراه بعد العاشرة صباحًا أبدًا . يهز الزبون رأسه ويتبادل الرجلان عبارات ودودًا . يسأل (ألفى) بينما الرجل يجلس إلى أحد المقاعد العالية المواجهة للكاونتر :

ـ « قهوة؟ »

ـ « نعم ، من فضلك »

حسن . حسن . ما زال الوقت كافيًا للحاق بهذه الحفلة . يستدير إلى آلة القهوة . لا يشعر بأنه على ما يرام هذه الليلة . مريض ربما . مرهق ربما . لكن الوقت ما زال مبكرًا على النوم .

هنا تزيل الصدمة بقية أفكاره . ويفتح (ألفى) فمه في غباء . إن آلة القهوة من المعدن المقاوم للصدأ وهي أسطوانة كالمرآة تلمع مثل أي شيء في هذا المقهى . وفي سطحها العاكس المقوس يرى شيئًا لا يصدق كما أنه مخيف !

إن زبونه الذى يراه كل يوم ، والذى يراه الجميع كل يوم في (تاركرز مليز) ،

يتغير . وجهه يلتوى . يذوب . يتسع . قميص الزبون القطنى ينتفخ ويتمدد فجأة تتمزق الخياطة ، وكل ما يتذكره (ألفى) أن هذا المشهد كان فى معمل يحب ابن أخته (راى) أن يراه : الرجل الأخضر .

لقد صار وجه الزبون الباسم الرقيق شيئًا حيوانيًا : عيناه البنيتان صارتا لامعتين صارتا خضراء ذهبية مخيفة . يصرخ الزبون لكن صرخته تتهشم وتضيع . ينفتح فمه مثل مصعد وتتحول إلى عواء غاضب غريب . وينقطع الصراخ كمصعد يسقط إثر الشىء . الوحش . المذءوب . أيًا ما كان يقف أمام الكاونتر ويزار .

يستدير (ألفى) فيصدم ردفه دورق القهوة . يسقط هذا على الأرض وتنتشر القهوة الساخنة فى كل مكان وتحرق كاحليه . يصرخ ألمًا وخوفًا . نعم هو خائف . لقد نسى وزنه الثقيل وعضلات البحرية المذهلة . نسى ابن أخته (راى) . نسى كل شىء إلا الوحش ! يقف هنا مثل وحش فى أحد أفلام الرعب القديمة . وحش خرج من الشاشة فجأة . يثب على (ألفى) ويحاول أن تفاديه . لكنه ينزلق فوق بقايا الدورق المهشم ويسقط على مشمع الأرضية الأحمر ، مزيد من العواء وفيضان من الزفير الدافئ ثم ألم أحمر ، إذا نهض أنياب الوحش فى عضلة ظهر الرجل . يغرق الدم الأرضية والكاونتر .

يتأرجح (ألفى) واقفًا على قدميه وظهره ينزف بقوة ، ويحاول الصراخ بينما ضوء القمر الدافئ . ضوء قمر الصيف يسبح من النافذة .

ينقض الوحش ثانية .

وضوء القمر آخر ما يراه (ألفى) .

* * *

عفريتة هانم أمريكانى

لولا أن صُناع الأفلام التى نعتبرها فى عُرف السينما مغامرة إنتاجية يحملون
ل من الشغف ما يساوى ما يملؤهم من الأمل لما تنوعت السينما العالمية وارتقت
ء على عدة مستويات . عندما غامر أحدهم بإخراج (أليس فى بلاد العجائب)
ين تهموه بالخبال ، لكن لولا حماسه (حتى وإن فشل فعلاً كما تنبأ الشامتون)
أ لما ظهر (ساحر أوز) العالمى ، وما لمعت الشاشات فيما بعد بأبطال مجلات
لأبا الكوميكس التى لا يدمنها سوى فتى منطو يغطى وجهه النمش ، لولا إيمانهم
ا ء بصوت هذا الصبى لما كان هناك سوبرمان أو مجموعة افنجرس حتى يبدأ
ى ا السادة فى مانهاتن بدعم خط مارفل الإنتاجى لتقديم أفلام البوكس أوفيس فى
ا كل عام ، مرورًا بسلسلة باتمان وابن الجحيم وكابتن أمريكا حامل اللواء العصرى
يطا سليل ولعبو ا يلعبون على المضمون الآن بمنطق جزارنا داعى راقصات الأرض
خط وبطجية الجيارة ، ولكن بعد أن جعلوا ما يريدون ويتحمسون له مضمونًا !!
ر ا هذا أحد الفروق الرئيسية بين التاجر والفنان وفكر المؤسسة . العبقرى يلتقط
ويتـ ميزة من هذا وفائدة من ذاك ويلعب لصالحه على المدى البعيد ، هذه هى
هذا أصول اللعبة من شارلى شابلن إلى سبيلبيرج .

الأفلام التى تتناول حياة كاتب والآلية الإبداعية للكتابة يسير أصحابها على
حد الموسى ، فبالرغم من شغف أرباب القلم بالموضوع ، ينصرف القطاع
الأكبر من المشاهدين عنها ، تمامًا كما يحدث مع الأفلام التى تتناول عوالم
الفيدرة الخصوصية ، كحياة أسطورة الشطرنج بوبى فيشر (التضحية بيدق)
لدرجة أن عنوان الفيلم نفسه لا يمكن أن يفهم مغزاه إلا لاعب حاذق ! لكن

الفضل يعود لفيلم متواضع الإنتاج منذ عدة سنوات بعنوان (البحث عن
فيشر)، وهكذا كانت أفلام الكتابة والكتاب عاثرة الحظ في أغلب الأحيان
(أبرس ، عيس بوتر ، كاتب .. كاتب !) حتى إن المخرج يعمد إلى دمج
الموضوع مع خط حكائي آخر (فيلم «طريق مختصر» يحيله إلى فانتازيا على
«كلمات» يتحول إلى رومانسية تاريخية في زمن الحرب) ، لكن هنا العكس
والإيمان بالآخر) و(منح الفرص) لما التقط الخيط الكاتب العظيم ستيف
كنج وصارت الأفلام المأخوذة عن رواياته التي تتحدث عن حياة الروائي
(ميزري) و(النصف المظلم) و(إشراق) من ضمن أعلى الأفلام مشاهدة في
الأعوام ! والآن نشاهد فيلم الكاتبة زوي كازان ، حفيدة المخرج الكبير إيليا
كازان ، الجديد (روبي سباركس) ويتناول فكرة مدهشة وعميقة جدًا بقدر
الأنس المثال والمُلهمة وهم أحمق للكتاب الذكور ، ومن العباء أن نجد
من نحب تحت ضوء نماذج مثالية خاصة لا تمت للواقع بصلة . الأنثى في
العادة ترى العالم بعيون الرجل الذي يعتقد أنها خليلة دائمة وجاهزة
ومراهقة وجاهزة لمتعته ٢٤ ساعة وسبعة أيام كل أسبوع ! غطاء . خطأ
الفيلم يقدم لنا الكاتب (كالفين واير فيلدز) ـ الممثل بول دانو ـ المقيم في
لوس أنجيليس وتستعد دار النشر التي تتولى طباعة كتبه للاحتفال بصدور
الطبعة العاشرة من روايته اليتيمة ، بالرغم من هذا إنه غير سعيد كما يجب
به أن يكون ، بل يعاني من إحباط وتعاسة عميقة ، كيف لا وقصة حبه الوحيدة
مهددة بالضياع . كالفين رجل حالم متردد وفصامي وكان يتلقى علاجًا نفسيًا
يُخلصه من خصال الانطواء والميول المرضية التي يحيها بشكل ما مثل
كلبًا لا حيًا في الحيوانات الأليفة وإنما ليلفت إليه الأنظار، إنه مجبول على

لكنه مغرم بالظهور وحب الاستعراض . يقص على معالجه الدكتور روزنتال حلمًا
يطيرًا يراوده كل ليلة كالهاجس : شابة كالحورية تزوره كل ليلة في المنام ، إنها
المليمة التي لا تحبه ككاتب وإنما لشخصه . كذلك يصارح طبيبه بمشكلة قفلة
الكاتب الشهيرة ، فيملي عليه الأخير واجبًا منزليًا أشبه بتمارين ورش الكتابة
إياها : قم بوصف فتاة أحلامك في صفحة واحدة .

كالفين يحل الواجب ، ويحلم بمزيد من اللقاءات والمحادثات بينه وبين
المليمة الخيالية ، وفي كل صباح يهرول إلى آلته الكاتبة ويعزف عليها كلمات
وكلمات ، تتراكم لتصنع مخطوطه الجديد عن الشخصية المثيرة للاهتمام
والشغف ، الرسامة الموهوبة (روبي سباركس) تلعب دورها البطلة وكاتبة
الفيلم الجميلة زوي كازان (أمها روبين سويكورد كاتبة حوار فيلم «الحالة
المثيرة لبنجامين بوتون» ، ووالدها نيكولاس كازان هو كاتب فيلم «عكس
الحظ» عام ١٩٩٩) هذه الفتاة تتجسد من الأوراق وتخرج للحياة الواقعية ،
حواء تتخلق من ضلع آدم مستعدة بالكامل لتسطيه ، وهنا يأتي السؤال الهام :
ماذا لو كان بمقدورنا أن نخلق بأيدينا شريك حياتنا ؟ وهل من الصواب أن
نمنحه تلك القدرة الخيالية على المنح في سبيلنا دون تمييز ؟ في البداية
لا يجد في داره كلما استيقظ أشياء نسائية هنا وهناك، خصلة شعر حريمي أو
قلم شفاه ، أو سوتيان ، حتى يجد (روبي) كاملة تعد له الإفطار في المطبخ
بإحدى الحرات . في البداية يظن أن حالة الفصام التي أصابته تفاقمت إلى
هلاوس بصرية ، لكنه يفاجأ بأن الآخرين يرونها ويسمعونها معه وليست مثل
شخصية جمال (عفريتة هانم) بالنسبة لفريد الأطرش في الفيلم المعروف عندما
كان إسماعيل ياسين ينبه أفراد الفرقة ألا يجزعوا ؛ فالأستاذ يُكلم نفسه أحيانًا
ويتفاعل ويتأثر مع الهواء ، هذه علامات العبقرية !

كالفين ، المؤلف ، يفزع لإخبار شقيقه الذى اعتاد نوباته ومزاجه
ويشكك فيه هذا الأخير حتى بعد أن يرى (روبى) ويلمسها ، لكن الأخير
فيما يشبه ألعاب التحدى يحاول إثبات صدق حكايته الغريبة لشقيقه الأ
ويطلق كالفين – لإثبات سلامة عقله – إلى الآلة الكاتبة ويكتب فى المطبخ
الطازج أن روبى قادرة على التحدث بالفرنسية ، وفى الحال تتوقف
الجميلة عن الكلام بالإنجليزية التقليدية وتتحدث الفرنسية بطلاقة ! يهز الشق
هارى رأسه مفعجبًا ويؤكد على كالفين أن يأخذ حذره من النساء ، بالرغم
أن المؤلف يأتمن أخيه على السر ويتعهده ألا يخبر أحدًا بأصل النكتة ، ثم
يعود ليحذره ؛ حتى لو كانت المرأة من صنع يديك وأفكارك ، فهى كائن لم
لا يمكن أن تثق به وبمقدورها أن تتغير من النقيض فى لمح البصر . وبالفعل
كان المؤلف فى قصة (منسق كلمات الرب) البديعة لستيفن كنج يتعقب
تفاصيل أسرته بكبسة ذر ، يضغط على delete فتختفى زوجته العشاقة
فإن كالفين لا يتعرض لبنت أفكاره بأى إساءة لفظية أو تحرش جسدى
لكنه ظل أنانى صنع أمه بأنامله ويرغب فى الاستحواذ على كامل
هكذا يتحكم فى عواطفها ودقائق نفسيتها بحركات بسيطة على آلة
بالرغم من أنه كان فى البداية يقتصر فى تعامله على أمور شكلية لا
الصفات التى تعرّف عليها فى الحلم الأول ، لكن العنت الذكورى
تصرفاته لا إراديًا حتى يجعلها كدمية الماريونت معلقة بخيوط فى كفه

(روبى) تشعر بالضجر ، إنها ترغب فى بعض التنفس والاستقلال
الرغبة فى شىء من الخصوصية تثير قلقه ، فمعنى هذا أنها قد تتركه
هل يحق له أن يقلق وبمقدوره أن يجعلها أكثر نساء العالم إخلاصًا

كلمات يسطرها على الصفحة البيضاء ؟! روبى تمشى وتتكلم كأى إنسان ، وتقدم نفسها لمعارفه على أنها صديقته التى تعيش معه ، فتزداد ثقة كالقين بنفسه حتى تصل إلى الغرور ويعتورها شىء من الصلف الذكورى فيدأ يعطيها الأوامر بعدما كان قد وعد بأن يترك لها حرية التصرّف ، إنه يحاول أن يجعلها نسخة نسائية منه أكثر مثالية لدرجة أنه عندما يصحبها لمنزل عائلته يبقى هو فى مقعده حبيس الانطواء الطبيعى وتنعم هى بالصحبة والمرح ! هى تتزلج معهم وهو يقرأ وحده ، فشعر بالغيرة منها وتنتقل إليها روح الكآبة بالتبعية ويمشى هو الوقت يحدق فى الورقة البيضاء مغمور بالوحدة وتتوتر العلاقة بينهما وعندما يخشى أن يتحول صنع يديه إلى كارثة ، يكتب بنفسه أنها تشعر بالسعادة الغامرة ، وفى الحقيقة تكون سعادة مشتعلة يشعر بها ، فيغير سطر النهاية أكثر من مرة وفى كل مرة تكون النتيجة ألعن . هناك طريق آخر يجب استكشافه فى مطوية الفيلم : هو إعادة الاهتمام بفعل الزمن فى العلاقات ، وليس فقط الحالة النفسية والأمزجة الشخصية ، بالشكل الذى تدعونا إليه نظرية «جيوم» بكل ما تنطوى عليه من صرامة التأويل المتعلق بـ «الزمن التكوينى» . من هذا المنظور يجب أن يفهم زمن أى علاقة باعتباره زمنًا تقتضيه كافة العمليات العقلية وربما الجسدية المنجزة حينما نمارس فعالية تعبيرية معينة . على الرغم من أن المنطق بديهى ، فإننا نادرًا ما نناقشه : الطبيعى فى ما له معنى هو المستمر والمهيأ للجدل والتعديل وما عداه يسقط فى هوة مجهولة لا معنى . والفكرة هى أن نفترض وجود كتلة كلية ربما بحجم العالم المحسوس من جانبنا نمثل معانى الكلمات والمواقف والنصوص ، ونسأل : أين تذهب الأشياء الحقيقية عديمة المعنى؟ إلا إذا كنت نفترض أصلًا أنه لا وجود إلا

لما له معنى! طبقا هذه الفرضية سوف تفترض بدورها أن تكتل الأشياء معا
المعنى وشغلها لحيز من التفكير يجعلها ذات معنى لكن دعنا من هذا الـ
لأنه سيعقد الأمور أكثر دعك من أننا بسهولة يمكن أن نقول أن اجتماعا
كل خفي هو ما له معنى ولا يعني هذا أنها (ذات) معنى! يبدو أن التساؤل
المتعلقة بما يمكن أن تحصل عليه مسألة معنى المعاني قد تقلق المختص
بالحالات السينمائية خاصة ، في حين أن اهتمام المختصين بهذه المسألة من
الفنون الأخرى ، أقل . الصورة والخلفية الموسيقية للحوار يمكن التعبير عنها
في كلمات (يجب) أن تكون مفهومة في ترابطها ، أما النص المكتوب في
هذه المرحلة نفسها . على الرغم من ذلك ، إن استخدام التصنيفات لتعريف
في الموسيقى أو في الرسم أو غير ذلك يثبت أن انتشار هذه التصنيفات في
الفنون غير اللفظية ليس أقل من انتشارها في مجال الأدب . ولا يمكن كذلك
تفسير الاختلاف من خلال الاعتماد على خصوصية الوسيط اللفظي : لكن
مسألة وضع التعريفات دائما على الفنون كافة وعلى رأسها فن كتابة
السيناريو . على الرغم من أنه في كل فن بصري يعبر عن فعل مكتوب نلاحظ
بوعيا تعبيرات متعددة . في الواقع ، التعبيرات النوعية (المتعلقة بالجنس
والغاية والأسلوب) موجودة في كل أحاديثنا عن الممارسات الثقافية : في كل
لحظة يحدث أن نميز لحن معين عن آخر ، ومقام موسيقي عن غيره ، ونظ
طبيعي عن طبيعة ميتة أو عن لوحة تاريخية ، ولوحة تكعيبية عن كاريكاتير
ودراسة فلسفية عن خطبة وعظية أو مرجع رياضيات عن كتيب في الشطرنج
واعتراف عن مجادلة أو عن رواية ، وكلمة روحية عن دعابة ، وكلمة حب عن
تهديد عن وعد أو وعيد . من هنا يأتي هذا السؤال: هل التصنيف هو تحليل
أول للمعاني ؟

أخرج الفيلم الزوجين دايتون وفاريس بعد نجاح فيلمهما السابق (الآنسة
شروق الصغيرة) فى إبراز المقصود بيسر على الشاشة، وخصوصًا باللجوء لنغمات
فرنسية رشيقة لهولدن بلاستيك، وسيلفى فارنان ، وبيرتراند ديريك هاربوت مع
نغم كونترباص حزين من آن لآخر حالما تنزوى (روبى) عندما تنفتح على فهم
طبيعة العلاقة بينها وبين مبدعها. لا توجد لدينا أعمال فنية تتناول أزمة الكاتب
أو الفنان عمومًا إلا بمنظور سطحى سخيف ، فهو مهرج أحمق يلعب الدور
الثانى ليضحك المتفرج (رامى قشوع فى «بطل من ورق» عندما كان الأبطال
المنذج أكثر من اللازم والفيلم فى المجمل مسروق) أو هو بطل خارق جدًا مثل
محمد فؤاد فى (رحلة حب) فهو مطرب وملحن ورسام وشجاع ورومانسى، بل
ويقول نكاتًا فى غاية الظرف فى الجنازات ! أو تكون البداية واعدة ثم تتفكك
والمفاهيم كالعادة لإرضاء الطبقات الدنيا فى المنظومة، فيلم «درب الفنانين»
مثلًا ، لا يوجد فيه سوى مشاهد أولى، آفان تتر، تلخص مأساة نحات شاب
فى كاشمرد «محمد صبحى» تتحمس له ابنة مدير المعهد وزميلته الجميلة «وفاء
سالم» ، لكن العناوين تحمل أسماء أخرى وتتحول فكرة يوسف فرنسيس إلى
فيلم حوارى آخر، يهرج فيه أحمد بدير ، ويتلوّى صبحى ، وفى النهاية تنتصر
بنت البلد معالى زايد ويعيشا معًا فوق الفرن ومحل الطعمية ، ولا يبقى أى
من الناس، من موضوع فرنسيس أو نظارة وفاء سالم أو الهدف الذى اجتمع من
أجله صناع الفيلم، وأخيرًا أرجو أن يتعلم أهل الفن الكرام عندنا من الموازنة
بين التعمق فى دراسة سر الصنعة والإيمان العقيقى و(الصحيح) بما يرجونه
من الأجيال القادمة من الفنانين والمشاهدين وناس البلد .

* * *

ذبـــاب

(قصة قصيرة)

أيها القارئ الكريم .. يبدو أنك سيد مهذب ذو ذوق ، مثلما أعتقد كذلك .. ويخيل إلىّ أيضًا أن دارك نظيفة مثل داري .. حسنًا .. لعلك أيضًا صبورًا منفهمًا .. لأننى لم أجد أحدًا بين القوم من لديه المقدرة على فهم هذه النزعة الروحية المرهفة ..

إننى لن أعترف بحقيقة مروعة .. ولا أطمع فى استعدادك لأحداث مثيرة، لكنى فقط سأحاول أن أتحدث عن شيء ما .. شيء سخيف .. لزج .. مقزز، تحوج .. شيء جعل لحياتى مذاقًا كريهًا ..

ولأننى أعرف ما لديك من صدق البصيرة والدراية النفسية وحسن الظن، فإننى موقن من أنك قد عرفت ما هو ..!

* * *

الذباب ..

لكم أمقت هذا الكائن الوحش البالغ القسوة .. إننى لا أبالغ يا سيدى، فما من مخلوق ينغصه الذباب ويجعله شغله الشاغل سواي ..

إذا جلست أمام التلفاز أو قررت أن أقرأ قليلًا ؛ فإذا بهم يأتون من حيث أدري لإفساد لحظات الهدوء القليلة هذه .. أهشه بيدي .. فيبتعد .. ثم يعاود الهجوم حول وجهى وفوق أنفى وعلى يدى ذاتها .. العجوزة طويلة عريضة، لكنه يصر على الهجوم علىّ ..

لا أستطيع تفسير هذا التصرف الغريب من ناحيته.. لكن المؤكد أنه قد أدخل حياتي إلى جحيم ..

أيعجبك تقولها : الذباب يضايقنا جميعًا ، فلماذا تحسب نفسك متفردًا بهذا ؟

صدقني .. عندما أجلس بين جمع من الناس ؛ أكون أنا المستهدف الأساسي إن لم يكن الوحيد ـ لهم ـ أعني الذباب وليس الناس طبعًا ـ تقف إحداهن على طرف أنفي والأخرى تتنزه على قفاي وثالثة تتمشى على جفني وتحاول دخول عيني .. ورابعة تنقض علي من سقف الحجرة لتلقي بنفسها في فمي ، كما كان يفعل طيارو الكاميكاز الانتحاريين في الجيش الياباني أبان الحرب العالمية الثانية عندما كانوا ينقضون بطائرات الزيرو في قلب الهدف فتتلاشى الأرواح الأمريكية من على وجه الأرض .. وبالطبع صار هذا واضحًا لكل من كانوا معي وقتها ..

تخيل أنك تعيش الهواء حولك كالمجانين ، وتنفخ كقاطرة بخارية ، وتهرش كالأجرب ، وتبصق الذباب من فمك وتحاول إخراجه من أذنيك ..

بالطبع لم يكن الموقف يستحق الاهتمام ، وكان من الممكن أن يمر ببساطة .. لكنهم ـ بمنتهى اللطف ـ سخروا كما حلا لهم .. وقالوا شيئًا عن دخيل العسل (بالطبع تعرفون تلك الدعابة القديمة الصملة عن بوصيل العسل الذي يجذب الـ ..) وحتى لا يتكرر موقف مماثل أكون فيه الأحمق الوحيد بين العالمين ؛ فقد اعتزلت الجميع ، وقبعت في داري .. فتفرغت لهم تمامًا ..

هل تسأل : ماذا فعلت حيال ذلك ، يمكنك أن ..؟

يمكنك أن تنظف دارك .. فعلتها .. وكل يوم أفعلها .. حتى لم يعد لي من عمل سوى هذا ! يمكنك شراء مبيد قوى للحشرات الطائرة .. فعلتها وإذا تفضلت بزيارتي يمكنك أن تشاهد مجموعتي الكاملة لجميع أنواع المبيدات .. علب خضراء وحمراء وصفراء ومساحيق الرش وأخرى للتعفير كما أنني قد اتبعت كل قواعد الوقاية من الذباب .. غطيت النوافذ والأبواب بالأسلاك ذات الثقوب الرفيعة جدًا .. وضعت ناموسية على الفراش .. سلك للذباب .. صواعق للذباب .. دهانات جلدية .. أبخرة .. كل شيء .. كل شيء .. حتى إنني قد قررت أخيرًا شراء بندقية صيد ووضعها إلى جواري على سبيل الاحتياط ! أسمعك تهمس بعبارة تفوح منها سخرية بينة : « أنه يتشاجر مع ذباب وجهه ! » لن أغضب منك .. فمن قال أنني لست كذلك ؟.. لقد بدأت الحرب بيننا ولا رجعة فيها .. فلك الحق إذن مع تعديل بسيط « أني أحارب ذباب وجهي ..! »

ولك الحق أيضًا إذا قلت أنني أبالغ نوعًا ما ..

* * *

هذا مشهد لا يجب أن يفوتك : قررت النوم ، لأنه قد صار من العبث أن تعلم أن أعارس أي نشاط ما في الآونة الأخيرة ، وقد أعددت الدفاع للنوم أغلقت الأبواب والنوافذ واستخدمت قميصي في هش الذباب عبر نافذة الحمام ثم أحكمت إغلاقه هو الآخر . وهكذا تراني كجندي مخلص غارق في عرقه لأنني كنا في يوليو إمعانًا للتعذيب ، أطلق المبيدات في كل مكان .. كنت في البداية بالطبع أتأذى من رائحته الكيماوية وبالتدريج أدمنتها حتى صارت

العطر محببة إلى نفسى ولدى فى ركن المطبخ هرم هائل الحجم فى العبوات الفارغة (لقد راجت هذه الصناعة بسببى ، هذا مؤكد ، ولقد حقق الصيدلى المجاور لدارى ربحًا لا بأس به أبدًا) وقازت غرفة نومى بعناية مركّزة ، إذ فرّغت فى جوها عبوة كاملة تقريبًا حتى صار الجو خانقًا تمامًا . رائحتها مثل .. مثل بستان مبيدات حشرية -

وأخيرًا .. أستلقى على الفراش . بالرغم من أن العرق كان يتفصد من كل بوصة مربعة فى جسدى إلا أننى بدأت استمتع بالهدوء ، وشرعت فى تخيل أشياء رائعة وأمنى نفسى بأحلام بهيجة و .. زززززززززززززززززززز ..

أرجو ألا تسألنى . بالطبع وجدت إحداهن مدخلًا عبر الناموسية المحكمة .. فمت هنا مفهومًا للقارئ ! وإلا فلماذا ترانى أنتفض جالسًا ؟ (ظهرت ذبابة ثانية) أحاول قتلها بكفى إذ تقف على الوسادة (ثم ظهرت ذبابة ثالثة) ورابعة .. وبدأ المرح ..

الحر الرهيب .. رائحة المبيد القاتلة .. وهُم . وقفت على الفراش لأقاتل بأطرافى الأربعة ، حتى ليصبح مشهدًا جديرًا بأفلام الكاراتيه السخيفة التى تنتجها هونج كونج .. ازداد العدد .. وازداد الزن .. كفى تشق الهواء يمينًا ويسارًا ، فوق وتحت و .. هوب .. اشتبكت قدمى بملاءة الفراش .. انزلقت - استقبلت الأرض رأسى . ورقدت حيثما كنت بلا حراك . شدة الحر تزداد وطأة - والمبيد تتراكم أطنى أكثر . الذباب يهاجم أكثر شراسة عن ذى قبل - وعن الملل والإرهاق تقل جفناى رغبة فى عالم النوم الرحيم .. ورأيت حلمًا بديعًا

ملىء بالألوان الزاهية .. حلمت إننى ذبابة .. أنتقل كالنحلة بين رحيق الزهور العياء .. وأحدهم قد وضع يده على كتفى معلنًا أنها فرصة عظيمة لا تتاح لسعيد الحظ ولا تتيسر إلا بالمال والوساطة .. وأصبحتُ ذبابة غاية فى العهار وأصبح لزنى مفعول السحر ، فانهالت على العروض المغرية لأعمل صحافى ناقد فنى .. عضو بمجلس الشعب .. زوجة العريس لُقطه .. نجم سينمائى كاتب ! ورأيتنى محاطًا بالفتيات أوقع لهن على الأوتوجراف .. كيف لم يلحظ أننى ذبابة بالرغم من أن لدى ثلاثة أزواج من الأرجل المشعرة القصيرة وثلاث فقرات صدرية وأربع بطنية .. ولاحظ كبار رجال الدولة أجزاء فمى العينية للمص والشفة العشقوقة وقناة طعام باللسان وقناة تعاب فقرروا على الفور الموافقة على تعيينى طبيبًا أو رئيس حى أو مسئولًا .. ولأنه من الصعب ظربان الذباب فقد نجحت فى الفرار من محاولات اغتيالى ووقفت على جبل من القصلات والقمامة والصحف والقرارات والأفلام والعقاقير وكتب التاريخ والأكاذيب الملتهبة والحمى المعوية والكوليرا .

* * *

انتهى (سامى) الصيدلى من تضميد جرح رأسى . وانبرى أحد أصدقائه الجالسين يقول وهو يهش ذبابتين تحومان حول رأسى : « يبدو أن لدغة من نوع ما قد أصابتك .. هذا هو التفسير الوحيد ! »

نصف ضحكة ساخرة بترتها بسرعة لأكرر ما قال : « لدغة ؟ لا أعتقد أن لدغات أجدادى كان من حفارى قبور الفراعنة ! »

وقال متظرف آخر: « إذن هى لعبة يهودية لتدميرك .. حرب مخابرات .. »

قلت لأخرسه : « نظرية المؤامرة موضة قديمة .. كلام يقال فى كل شىء وعن أى شىء وقابل للتصديق فى أى وقت .. وهذا الذباب ميكانيكى طبعًا يحرك بالتحكم عن بعد بغرض التجسس أو التفجير أو هو مهجن بمعالجة جهنمية تجعله يستهدفنى من بين ملايين . ظريف جدًا ! »

حاول (سامى) تهدئتى : « إننا نمزح وحسب ، لقد صرت حاد الطباع هذه الأيام .. الأحرى أنك قد أصبحت مثل .. مثل ذبابة مشاكسة ! »

وراق التعبير لأحدهم فعلق بدوره : « من عاشر القوم أربعين يومًا صار منهم ! »

رمقته بنظرات سفاكة ، وأبعدت ذبابة وقفت على حافة صوان أذنى ..

* * *

حاولت فى الأيام التالية أن أكون مضيفًا مهذبًا لكميات الذباب التى تزورنى يوميًا ، فتخلصت من الناموسية ومضارب الذباب وكففت عن رش المبيدات ، إلا أن العلاقة بيننا لا زالت مشحونة بالتوتر .. مضايقة من جانبهم وحنق بالغ من جانبى .. وواتتنى يومًا خواطر غريبة بعد أن عدلت عن قتل تجمع للذباب بواسطة صحيفة مطوية تخيلت فيها أن هذه الكائنات صغيرة بحق ، وتستحق الشفقة وربما كانت تضايقنا دون أن تعرف ذلك . ألا تنقل فيروسات شلل الأطفال والتهاب الكبد وطفيليات الدوسنتاريا على شعرها وبطنها دون أن تدرك المأساة التى تتسبب فيها ؟.. لكنى عدلت عن فكرة معادلة الصلح هذه .. هل

جلتت حقًا ؟ بالتأكيد لدى خبراء علم النفس تعبيرًا لاتينيًا من عشرة حروف يناسب وضعى هذا .. ورأيت فى الأيام الأخيرة لهذا الأسبوع الهول ذاته يتمثل فى كميات عجيبة من الذباب من كافة الأشكال والأحجام !..

بدأت الحرب !.. وساعدنى (علاء) ابن شقيقى – وهو طالب بكلية العلوم – على فهم أشياء كثيرة فى هذا الكتاب وبفضله تعرفت على ذبابة الرمل وذبابة الخطيرة والتسى تسى ذات الجناحين المقص والساطور على الجناح المفرود. واتباعًا لنصائحه حاولت ألا أعرض جروحى لهجمات الذباب (هل جننت ؟ ليس لدى أكثر من كلمة : ربما) . هكذا ترى حقيقة العلاقة الشائكة المشتركة العليلة بالشك وسوء النية بينى وبين الذباب . أعرف أن بعضكم لن يصدق حرفًا مما قلت والبعض الآخر سوف يؤمن به ويل ويتوقع أننى ربما قد فعلت أكثر من ذلك !

* * *

وقد فعلت أكثر من ذلك ، لقد تلاعبت الأفكار الغريبة برأسى المنهك !.. والطريق ممهد الآن لإصابتى بالجنون . أعذرنى فلقد شاب شعرى من هول ما رأيت ..

المهم ، بتحريض منى استطاع (علاء) أن يحضر لى كرتونة مليئة بزجاجات عسلية اللون .. أقرأ فى عيونكم سؤالاً سأحاول – مؤقتًا – الفرار منه .. لقد قضيت الليالى فى مزج السوائل وتحضير المحاليل ورشها هنا وهناك .. كانت للرائحة أضرار جسيمة .. احمر أنفى ويمكننى أن أقول أن حجمه قد تضاعف

وكان للسائل نفسه تأثيره السيئ على الجلد .. والتهاب شديد على الذراعين وراح الشعر ينمو بغزارة في بعض المناطق ، مع هرش مستمر في كل مكان ـ أرجو من القارئ افتراض حسن النوايا . صرت سجينًا مع الذباب والمبيد بعد أن أغلقت النوافذ والأبواب واعتزلت الخلق .. فقدت شهيتي للطعام ، فازددت نحولًا ، وبرزت أوردة ذراعي ! وأحسب أنها قد تشكلت في خطوط متوازية ومتقاطعة ..

واستمر استعمال السائل الذي كان له تأثير حارق على شفتي حتى أشعر أنها تتشقق وعلى وجهي ظهرت قروح على شكل حرف (S) مثل برقات ذباب الحظيرة وعلى صدري قروح أخرى على شكل الفصلة ، وبقع أخرى برميلية الشكل وأسطوانية وأشكال تشبه الموز لونًا وشكلًا ! الأفضل من كل هذا ، أن حركتي صارت أكثر خفة كأنني .. كأنني أطير .. وبدأ لون البطن يتحول إلى الرمادي .. بقع سوداء في كل مكان.. ولا زال الشعر ينمو بغزارة .. وجدت أن الحياة بجناحين وثلاثة أزواج من الأرجل أكثر سهولة .. ولأنني قد صرت واحدًا منهم .. فلم يعد أيهم يضايقني مرة أخرى ..!

***

www.riwaya.ga

حذار من الشفقة !

بداية فيلم (اليتيمة) كابوسية مقبضة. تكتشف الأم أن إدمانها الخمر جعلها تفقد جنينها ، ولكن تتخلف من عذاب الضمير وتقنع زوجها بتبنى طفلة من ملجأ أيتام روسى حتى تعطيها ما لديها من حب مفقود للطفل الذى ولد ميتاً ، ويقع الاختيار على فتاة صغيرة عجيبة ، شديدة الذكاء ، وذات ميول غريبة ظاهرة ، ولها قدرة غير عادية على جذب الآخرين واستمالة الغير .

إنها الطفلة (إستر) التى تبحث عن الأمان بدورها فى أحضان أسرة جديدة، فيحدث تفاهم متبادل سرعان ما يزول فى البيت عندما تبدو على الطفلة مظاهر مريبة تلاحظها الأم ، بينما يقف الأب بجوار البنت دون أى اعتراض يذكر .

كما جرت العادة .. (إستر) غير قادرة على الانسجام مع زملائها الجدد فى غالبية الدراسة ، وهى لا تستطيع التواصل مع أخيها الصغير ، بالرغم من قدرتها على التأثير على الابنة الخرساء وتأخذ الأمور منحنى كابوسى عندما تأتى الراهبة السوداء التى كانت مسئولة عن الطفلة (إستر) فى الملجأ لتتفقد شئونها وتقرر ماذا تم فى أمرها وأيضًا لتعطى أهلها الجدد فكرة عما خفى عنهم من أحوالها .

يعترى (إستر) الخوف والاضطراب . ثمة سر لا تريده أن ينكشف ، ولكن كيانه تندفع إلى إجراءات وقائية وتدبير مؤامرة خطيرة بمعونة أختها الخرساء للتخلص من الراهبة بقتلها بشكل شديد الشناعة ! ولا تكون هذه هى الجريمة الأولى ، وأيضًا بمساعدة الطفلة الخرساء تحت التهديد كى لا تلقى المصير إذا كشفت السر ، أما الضحية الجديدة فهى الأم التى تستنجد بطبيبة نفسية

وتصرح لها بشكوكها فى (إستر) طفلتها المتبناة لكن الأمور تجرى لصالح الطفلة الغريبة ، فتبرئ الطبيبة (إستر) وتلقى اللوم على الأم !

اما أخوها (دانيال) فيشك فى سلوكها فيكون عقابه سريع جدًا : إنها تستدرجه وتحرقه حيًا ! حتى تتفرغ لتدبير خططها ضد الأم المتشككة التى سرعان ما تنهار وتعود للإدمان وتسرف فى شرب الخمر فتتأكد شكوك الطبيبة النفسية فى قواها العقلية وتنصح بحجزها فى مصحة عقلية . فتكون هذه فرصة الأم للاستفهام هناك عن الماضى الغامض لإستر التى تستغل فرصة غياب الأم وخلو البيت لإغواء الأب !

وبالتحرى السريع تكتشف الأم عدة حقائق ..

هذه الطفلة الغامضة لم تكن فى ملجأ للأيتام ؛ بل فى مستشفى المجانين ! أيضًا هى ليست طفلة ذات أحد عشر عامًا ، بل شابة تجاوزت الثالثة والثلاثين ، أما سبب ملامحها الطفولية فهو داء بالغدة الدرقية أحدث نوعًا من الخلل الهرمونى ، والعائلة التى كانت تعيش معها من قبل قد قتلت كل أفرادها وحرقت منازلهم !

الأم تخرج من المستشفى غارقة فى الهلع ، إنها ترغب فى العودة سريعًا للدار لتحذر زوجها الغافل من حقيقة الطفلة / الشابة الدموية ، لتكتشف أن الأوان قد فات ، إذ إن الطفلة بعد أن رفض الأب المذهول محاولاتها لإغوائه تقتله بوحشية وتهم الآن بقتل أختها الخرساء .

وتدور المعركة النهائية بين الأم المكلومة والطفلة القاتلة فى جو مرعب فى الجليد .. ثم ينتهى الفيلم الذى يشير بأصابع الاتهام إلى المعسكر الشيوعى والحزب الاشتراكى وإلى الأسرة الأمريكية وعجز الطب النفسى والمستشفيات العقلية وقصور ملاجئ الأيتام ونساء المجتمع ككل وليس الخمر ، الصالح براءة الطفلة التى ماتت بالتدريج ضحية لكل هؤلاء !!

الفيلم من إخراج جومى كول سيرا ، كتب السيناريو ديفيد جونسون عن قصة أليك ماسى ، والبطولة لفيرا فارميجا (كيت) ، بيتر سارسجارد (جون) ، إيزابيلا فورمان (إستر) ، جيمى بينيت (دانييل) ، وجدير بالذكر أن شركة وارنر برازرس قامت بتحرير إعلان الفيلم لحذف عبارة (من الصعب أن تحب الطفل الذى تتبناه كأنه ابنك) بعد وصول أطنان من الشكاوى ، لكن العبارة بقت داخل الفيلم رغم ذلك !

* * *

أسطورة الوادى الناعس

مترجمة عن قصة لواشنطن إيرفنج

« وجدت بين أوراق مهاجر هولندى من المهاجرين الأوائل إلى (نيويورك) . » كانت أرض مفعمة بالمرضى بأحلام اليقظة قبل أن تغمض عين، وفى القلعة الشاهقة التى تشق السحب المتكاثفة فى سماء الصيف ، يصدر أحد الخلجان الرحبة التى تنتشر على امتداد الضفة الشرقية لـ (هدسون) ، حيث تتسع حافة النهر خالقة مساحة متسعة أطلق عليها البحارة الهولنديون القدماء (تابان زى) والذين كانوا دومًا يقللون من سرعة قواربهم الشراعية عندها ملتمسين بركة (القديس نيكولا) ، تنشأ مدينة تجارية صغيرة ، ميناء ريفى صغير يدعى (جرينسبيرج) اصطلح على تسميته (تارى تاون) ، أو مدينة التلكؤ كما أطلقت عليه سيدات المنازل فى المدن المجاورة حيث اعتاد أزواجهن التلكؤ فيها لبعض الوقت والعربدة بالحانة فى أيام المناجرة ، وعلى بعد ميلين من تلك المدينة يوجد جوف صغير بين التلال المرتفعة يمكنك اعتباره من أكثر الأماكن هدوءًا فى العالم ، يمر عبره جدول صغير ، ولا يبدد هذا الهدوء المقيم سوى صفير السلوى أو نقيق نقار الخشب .

عُرف هذا الوادى الصغير باسم (سليبى هولو) أو (الوادى الناعس) حيث يقول البعض أن هذا المكان قد سُحر خلال الأيام الأولى لاستيطان السكاويين فيه والبعض الآخر يرجح أن ساحر هندى ماهر هو سيد عشيرته قد جعل كهفه الى هناك قبل اكتشاف البلدة على يد (هنريك هدسون) ، وبسبب ذلك ظل المكان واقعًا تحت تأثير بعض القوى السحرية التى تسيطر على إدراك

الأصحاء من سكان البلدة فتجعلهم يهيمون فى أحلام يقظة مستمرة وخواطر غريبة ورؤى متعددة لمشاهد عجيبة ويسمعون موسيقى وأصوات تتردد فى الهواء، ويقص كل من فى المدن المجاورة عنهم العديد من القصص والحكايات المحلية التى تتحدث عن البقاع المسكونة بالأرواح وخزعبلات العصر.

ولعل أشهر تلك الحكايات التى ترددت هى قصة شبح لفارس بلا رأس يمتطى صهوة جواد قيل أنه شبح لمرتزقة ألمانى طارت رأسه بفعل قذيفة مدفع فى إحدى المعارك الحدودية خلال حرب الثوار ، اعتاد أهل البلدة رؤيته يجرى فى كآبة هذا الليل بسرعة فائقة وكأنما أسلم جناحيه للريح ، ويعزو المؤرخون ذلك إلى أن جثة هذا الفارس قد تم حرقها فى فناء الكنيسة الذى يغادره كل ليلة بحثًا عن رأسه المفقود فى مكان وقوع الحادث ، ويعدو سريعًا ليعود إلى فناء الكنيسة قبل بزوغ الفجر ، أطلق عليه سكان المنطقة (الفارس الولاعى الناعس الفاقد الرأس) .

واللافت للنظر أن تلك النزعة التنبئية والأوهام لا تصيب فقط أبناء البلدة الأصليين ولكنها تلحق بكل من يستقر هناك لبعض الوقت ، والذين يؤكدون أنهم يقعون تحت تأثير تلك القوى السحرية بمجرد دخولهم إلى تلك المنطقة واستنشاقهم الهواء المسحور تبدأ مخيلتهم فى النمو ويغرقون فى أحلام اليقظة .

بين أحضان تلك الطبيعة الخلابة، منذ ما يقرب من نحو الثلاثين عامًا انشأ بيت (إيتش ابوود كرين) القادم من ولاية (كونكتيكت) التى كانت تحرص على إعداد الاتحاد بمديرى المدارس لتعليم الأبناء والحطابين الجيدين لأعمال الغابة، قدم (إيتش ابوود) إلى (الوادى الناعس) لتعليم الأبناء ، كان (إيتش ابوود) ذو هيئة تشبه الديك المعدنى القابع فوق رقبة مغزلية تدل على اتجاه الريح فى

الحقول حيث كان طويل القامة نحيف جدًا بأكتاف ضيقة وأذرعه تمتد إلى خارج أكمامه وأقدامه الطويلة التي تشبه المجارف ورأسه الصغير المنبسط من أعلى وأذنيه الطويلتان وعيناه الزجاجيتان الخضراوان وأنفه العديب الطويل ، تراه يمشي في يوم عاصف بملابسه المتسعة التي يغوص جسده بداخلها تحسبه فزاعة طارية من حقل ذرة. وكان مبنى المدرسة مكون من غرفة كبيرة ، مبنى بإهمال ونوافذه غير مكتملة الزجاج ، مرقع ببقايا الدفاتر القديمة ، كان المكان سهلًا جدًا لأي لص قد يفكر في سرقته عند دخلوه بينما قد تعترضه بعض العراقيل عند الخروج ، وكان مبنى المدرسة يقوم وحيدًا أسفل تل من الأشجار تؤنسه ساقية تركض قريبة منه تنمو على إحدى جوانبها شجرة بتولا عملاقة ، يهدر صوت التلاميذ في ترداد دروسهم كصوت صادر عن خلية نحل في يوم صيفي خامل ، يقطعه أحيانًا صوت المعلم منبهًا أو موجهًا وكأنما يقود بعضًا من قنافذ البحر الهولندية العنيدة لطريق معروف ، أو الصوت المزعج لشجرة البتولا ، كان (إينش ابوود) رجلًا واعيًا يرى في تعليمه لأبناء الوادي الناعس قيام بالواجب ، يمارس دوره بمنتهى الحكمة فكان يساعد الضعفاء منهم ويزيل عن كاهلهم الأعباء الثقيلة التي يسندها للأقوياء من بينهم ، كان دومًا يجنب الصبية الخوف من العصا ، فهو يؤمن بالمثل القائل (تبقى العصا ويفسد الطفل) ويسعى لتحقيق الثواب والعقاب بإفراط العقاب على التلميذ العنيد ، الذي يثير غيظه ويجعله كقنفذ البحر الهولندي الذي ينتفخ وينمو تحت شجرة البتولا ، ولا يعاقب طالب إلا بعد إيعاز من أهله ، ويعزي ما قد يلحق بهم من ألم إلى أنهم سوف يشكرونه في يوم من الأيام على الفرصة التي أتاحها لهم للحياة بشكل أفضل ولو ليوم واحد .

حين تنتهي ساعات الدراسة، يشارك (إيتش ابوود) الصبية الكبار في لهوهم وفي عصر يوم العطلة يرافق الصغار منهم إلى بيوتهم بحجة إيصالهم ، بينما يهدف بذلك إلى الإبقاء على علاقات جيدة مع أولياء الأمور وخصوصًا من لهم أخوات جميلات وأمهات رائعات في الأعمال المنزلية لإشباع شهيته النهمة للطعام ، حيث إن ما يحصل عليه من أجر في المدرسة ضئيل للغاية يكفيه بالكاد لشراء الخبز اليومي ، فعلى الرغم من ضآلة حجمه إلا أنه كان يتمتع بشهية مفتوحة للطعام كشهية أفعى الأناكوندا ، كان يعيش على التنقل بين بيوت تلاميذه يمكث في كل منها لبعض الوقت حاملًا معه منديل قطني كوني صرة تضم كل ممتلكاته في تلك الحياة . بعيدًا عن الوقار المفرط الذي كان يبدو به في المدرسة ، كان (إيتش ابوود) يتعاون مع الفلاحين في إعداد العلف وإصلاح الزرائب ورعي البقر إلى المرعى ، مما جعله يلمس الرغام في عيون الجميع وخصوصًا الأمهات لمساعدته لأطفالهن ، فكان يجلس مع الأطفال ويداعبهم ويهز مهد الرضع منهم بقدمه في سعادة لساعات . بالإضافة إلى ذلك كان (إيتش ابوود) المطرب المفضل لأهل البلدة ، يجني بعض العملات المعدنية اللامعة حين يقود كورال الصغار في القداس ، كان (إيتش ابوود) يزاول كل تلك المهن دون التفكير في عمل واحد مرهق يكفل له حياة سهلة وأكثر راحة . وكان (إيتش ابوود) يحظى ببعض الأهمية في دائرة أسرة البلدة، بشخصيته المحترمة الأنيقة وما يمتلكه من عظمة وكبرياء الأغنياء، كان في أيام الآحاد يجمع العنب لفتيات البلدة من العروش الموحشة المنتشرة حول الأشجار في ساحة الكنيسة ، وكان يقصص عليهم ما تحويه المزامير المكتوبة على شواهد القبور ، ويتجوّل مع مجموعة منهن على ضفاف برك

البئر المجاورة للكنيسة ، بينما تدبر عنه الخجولات منهن بسذاجتهن الريفية ، بحسده الجميع على أناقته وشهرته ، كان بمثابة جريدة يومية متنقلة تنقل الأخبار من بيت إلى بيت ، كان محترمًا من قبل الرجال والنساء لسعة معرفته وقراءاته المتنوعة ، كان خليطًا فريدًا من الدهاء والسذاجة ، فكان ملمًا بتاريخ ساحرات نيو إنجلد ، مغرمًا بالحكايات غير الاعتيادية ، فكانت قمة متعته حين ينهي اليوم الدراسي يتمدد على الحشائش الخضراء المتاخمة للساقية ليقرأ في (عهد ساحرات نيو إنجلند) دون خوف أو ريبة حتى يسقط الغسق ، ليبدأ في رحلة عودته إلى بيته الريفي المريح البناء ، ترافقه أصوات الطبيعة ونقيق الضفادع تحت الشجرة ، وصياح اليوم الكئيب ، الذي يرفرف فيهيج أخيلته ، فلا يملك في هذا الجو الكئيب سوى ترنيم الإنجيل ، وأهالي الوادي الناعس الذين اعتادوا الجلوس أمام منازلهم في المساء ، يقطع صمتهم صفير (إيتش وودا) وهو يرتل المزامير على طول الطريق المظلم . كان كذلك يؤنس وحشته في ليالي الشتاء الطويلة بالجلوس مع العجائز الهولنديات المؤنسات بنار الموقد التي يحمص فيها التفاح المشوي المرشوق في أسياخ، ليستمع لحكاياتهن العجيبة عن الأشباح والعفاريت ، والجسور والمنازل المسكونة بها ، وخصوصًا قصة الفارس الذي فقد رأسه ، بينما يمتعهن هو بحكاياته عن السحر والطالع والمشاهد والأصوات العجيبة التي تملأ الهواء والتي كان يسمعها في بلدته (كونيكتيكت) ، ويرهبهن بتوقع النمازك والشهب والمذنبات ، ومما يعرضهن التوتر والقلق . بينما كان يعتبر هذه متعة ، كان يتقوقع على نفسه والوهج المتورد القادم من المدفأة وطقطقة الخشب المحترق ينعكس فوق صفحة وجهه ، لم يواصل المشي السريع في الطريق إلى بيته ، والذي يخيم عليه

الظلام والظلال الخائفة ، وسط الوهج الضعيف لليل المثلج ، يرقب الوهج الضعيف القادم من النوافذ البعيدة ، خائفًا حتى من النظر خلف أكتاف كراة يباغته الفارس الخالد الرأس ، ويتملكه أحيانًا الفزع الرهيب حين يسمع صرير انفجار مفاجئ يصدح من بين الأشجار يرجح بأنه صوت عدو الفارس الفاقد الرأس . كان كل ذلك مجرد خيالات تتراءى له في الظلام ، كرؤية شياطين تحيط به ، ضوء الشمس كان كفيلًا بإنهائها جميعًا ، كانت حياته ستكون أكثر سهولة ومتعة إن لم تتخللها تلك الحكايات والأعمال الشيطانية ، وما يعترض طريقه من مخاوف في عودته إلى بيته ، وما أربك به حياته من تلك الشئون .

كانت (كاترينا فان تاسيل) الابنة الوحيدة للمزارع الهولندي الثري ، من بين تابعيه الموسيقيين الذي يجمعهم في مساء ليلة من كل أسبوع ، فتاة بالغة في الثامنة عشرة من عمرها ممتلئة كطائر الحجل ، ناضجة ذات وجنات وردية كالخوخ الذي يزرعه والدها ، ذات شهرة واسعة ليس فقط بسبب جمالها ولكن أيضًا لقدراتها على العبث بشكل واسع ، مع قدر من الغنج يتضح من طريقتها في اختيار ملابسها ، فهي ترتدي ملابس تجمع ما بين التصميمات القديمة والحديثة بحيث تبرز مفاتنها، كما ترتدي حلي من الذهب الخالص ورثتها عن جدة جدتها لوالدها والذي كانت قد حصلت عليه من (سد سار) ، ملابسها كانت تظهر بطنها بشكل مثير كما في الزمن السابق ، تنورتها كذلك كانت قصيرة بشكل مغرى ، تظهر ساقيها وكاحليها الأجمل في البلدة .

كان (إيتش ابوود) يتمتع بقلب حنون وطائش تجاه الجنس الآخر ، كانت عيناه تفضحان شوقه وهيامه في كل مرة يزور (كاترينا) في قلعة والدها الريفية

الواقعة على ضفاف هدسون ، والتي تعتبر صورة للنهضة والتحرر من القالب الريفي المعتاد ، كان (فان تاسيل) قانعًا بثروته لا ينظر إلى ما هو خارج حدود املاكه الثرية والغنية بالأناقة ، في إحدى مرابعها الخضراء توجد زوايا قصية تغطيها فروع شجرة دردار عملاقة يرعى فيها المزارعون الهولنديون الفراغ الصغيرة ، وفي نهايتها كان الماء يسعى رقراقًا ، ومخازن الحبوب المحيطة بالقلعة تتفجر نوافذها وشقوقها بكنوز وخيرات الحقل ، والحمام يمرح بين الأبراج التي يداعبها شروق الشمس بأعلى القلعة ، قطعان الخنازير بخوارها ترقد بكسل في مضاجعها ، مجاميع منتظمة من الإوز الأبيض تلهو في البركة المحاذية تواكبها مجاميع من البط وتنظيمات من الديوك الرومية تصدح عبر ساحة الحقل .

كان (إيتش ابوود) يغط في أحلام اليقظة التي تتراءى له بخنزير مشهو في فمه تفاحة مشوية بين فكيه والحمامات معددة في شطيرة ترفل في فراش من الخبز ، والإوز يسبح في العرق ، وأزواج من البط تستريح في الصحون ، يحيطها صوص البصل وغيرها وغيرها من أحلام اليقظة التي جعلت ذلك المرح يجيل عيونه الخضراء بين المروج النضرة المنعمة وحقول القمح الغنية والفجر والحظة السوداء ، الذرة الهندي ، البستان المورد بالفاكهة وهو يحتضن قصر (فان تاسيل) الدافئ ، هفا قلبه للفتاة التي ستورث كل هذا النعيم ، اتسع خياله أكثر وفكر كيف سيتحول كل ذلك إلى نقود سائلة ، يستثمرها في مجالات طائلة في الحياة العدنية ، تخيل (كاترينا) والأطفال الصغار يستقبلون عربة معبوءة بأغراض البيت ، وهو يتقدمهم يظهر كأنه زعيم الركب .

حين دخل إلى بيت (كاترينا) كان قلبه منصاع تمامًا لهواه ، كان واحدًا من البيوت الريفية ذات الأسقف المرتفعة المدرجة ، شيد على طراز بيوت المستعمرين الهولنديين الأوائل ، الإفريز البارز يتشكل كشرفة في المقدمة دخل عبرها (إيتش ابوود) المبهور إلى الساحة التي تتوسط القصر ، بهرت عيونه الأعمدة اللامعة والأطباق القصديرية المرصوصة في الخزانة ، وطيات كبيرة من الصوف ذات أذنين من الذرة الهندي وحبال من القطاع والفوع المجفف تعانقها حبال من الزهور على طول الحائط ، والباب النصف مواربة أتاح له رؤية غرفة الاستقبال حيث المقاعد ذات الأرجل المشكلة على هيئة مخالب ومنضدة من الماهوجني القاتم تلمع كالمرايا وتزين رف المستوقد عدد من الحلازين والمحارات وحيات برتقال صناعية وحبال من بيض الطير الملون معلاة فوقه ، بينما تركت خزانة في الركن مفتوحة تعرض كنوز هائلة من الفضة الأثرية وأوعية صينية مرممة .

فقد (إيتش ابوود) السيطرة على عقله منذ أن جالت عيونه في هذا الفردوس وأصبح شغله الشاغل هو كيفية استحواذ قلب الابنة الوحيدة لـ (اف تاسيل) كيفما كانت تلك المغامرة ، فعليه التغلب على عشاقها الريفيين الذين يتربص الواحد منهم للآخر طوال الوقت، تاهيك عن أكثرهم رعبًا (إبراهيم) والذي يطلق عليه كمختصر هولندي (براوم فان براانت) القوى البنية ، الهائل المرعب ، الطائش بطل البلدة بأكملها، المشهور بأعماله البطولية ذات القوة والبسالة ، بأكتافه العريضة وشعرة القصير المجعد الأسود ، وجهه الذي تجمع بين المرح والغطرسة وهدوء الملامح ، ونتيجة لقوته أطلق عليه ابراهيم الضخم) حيث اشتهر بمهارته في الفروسية فهو الأول في كل السباقات وكذلك

صراع الديكة، أهلته قواه الجسدية لحل جميع النزاعات فهو دومًا مستعد لأى معركة أو مزاح ، تغلب ميله للإيذاء والسخرية على الرفق فى شخصيته ، له ثلاثة أو أربعة من الرفاق يعتبرونه قدوتهم وحامي بلدتهم يتذكرون كل مشاهد المعارك التى خاضها فأحيانًا والتى تهز سكون الليل على طول المنازل الريفية مع الصيحات والهتافات وصياح المسنات «هاهو براوم الضخم ورفاقه» ، وأحيانًا كان يمارس بعضًا من توده الخشن على (كاترينا) ومداعباته الشبيهة بصداعبات الدببة والتى يصر أنها ترقق إليها بعض الشيء ، مما جعل المنافسين له فى حبها يتراجعون بمجرد رؤية حصانه وقد ربط بسياج بيت (فان تاسيل) فى ليالى الأحد .

كان هذا هو المنافس الذى يحسب له (إيتش ابوود) حسابًا ، آخذًا فى الاعتبار ما يتمتع به (براوم) من قوة تجعله يتفوق عليه فى أى مقارنة بينهما، كان (إيتش ابوود) يتمتع بالمثابرة والتفاؤل بطبعه فكان بمثابة عمود سارى السفينة الدوار يتحنى ولا ينكسر ، كان من الجنون أن يترك (إيتش ابوود) الباب مفتوحًا أمام منافسه لذلك كان يأتى فى زيارات متكررة إلى بيت (فان تاسل) الريفى بحجة كونه السيد المغنى ، فأخذ يتودد إلى الفتاة ويجلس معها تحت شجر الدردار خلال الربيع مستغلًا عدم تدخل أبيها بطبيعة شخصيته المتساهلة المحبة لابنته حد عشقه لغليونه، وكأب عاقل وممتاز ترك لابنته الحرية التامة فى كل شيء، وكذلك أعطى زوجته الشابة الأثيرة مطلق الحرية فى تدبير شئون البيت والدواجن ، بينما هى منشغلة بأمور البيت أو قابعة فى أحد الأركان لتغزل كان زوجها يدخن غليونه فى الجهة الأخرى وهو يتابع إنجازات الحارس المتقاعس المسلح بالسيوف فى كلتا يديه يحارب الرياح بجرأة فوق برج يعلو مخزن الحبوب و(إيتش ابوود) مع (كاترينا) تحت شجر الدردار أو يترجلان تحت القسق .

أعترف بأنني لا أجيد فن اقتناص قلوب النساء فهم دومًا بمثابة لغز يثير إعجابي . وتمكّن (إيتش ابوود) من رفع شعبيته في بيت (فان تاسيل) بينما تدر تواجد حصان (براوم) مربوطًا في السياج بليالي الأحد ، مما جعل العراع يدب بينه وبين (إيتش ابوود) الذي سمع تهديد (براوم) وتوعده له بالقتل من فوق سطح مدرسته إلا أن (إيتش ابوود) كان دائم الحرص على عدم منح هذه الفرصة ، فلم يجد (براوم) حلاً سوى اللجوء إلى إطلاق النكات لغيظ على منافسه كما قام بسد مدخنة مبنى المدرسة وكذلك لجأ إلى اقتطيو وإرباك كل ما بها ، والأسوأ من ذلك هو تعمُّد (براوم) إحراج (إيتش ابوود) أمام محبوبته حيث كان يقدم كلبه الوغد كمنافس لـ(إيتش ابوود) في نزل المزامير أمام (كاترينا) ، استمر الوضع على ما هو عليه وبينما كان (إيتش ابوود) جالسًا فوق مقعده المرتفع وهو يتابع سير اليوم الدراسي في عصر يو خريفي ، قطع هذا السكون الظهور المفاجئ لزنجي يمتطي مُهرا أشعث الذي من بوابة المدرسة وقدم لـ(إيتش ابوود) دعوة لحضور حفل كرنفالي في قص (فان تاسيل) في المساء .

ازداد النشاط والصخب بين جنبات المدرسة وعجل من أبطأ في تقديم دروسه واشتعل الجميع بالحماس والسرعة إلى أن أنهوا اليوم الدراسي قبل موعده بنحو ساعة .

ظل (إيتش ابوود) لأكثر من نصف ساعة ينظف بزته الوحيدة ويجلخ ويزيح الصدأ عن الأزرار ليبدو كفارس حقيقي ، قام باستعارة جواد من الهولندي (هانس فان ريبير) الذي يقيم معه ، كان حصان محترف لا يعطي

متقدم فى العمر ، وحشى المزاج نحيف وأشعث ، رقبته كرقبة النعاج ورأسه كمطرقة ، شعر رأسه وذيله معقد على، بالقشور ، فقدت إحدى عينيه بؤبؤها وأصبحت تختلف عن عيون غيره المشعة بوميض شيطانى ، ربما كان يتميز بقوة شخصيته فى صغره وهذا ما يدل عليه اسمه (بارود) ، ربما هو تأثر بروح قائده العصبى (ريبير) فكان الشيطان يترصد فيه أكثر من أى مهر صغير فى البلدة .

كان (إيتش ابوود)هو الفارس المناسب لهذا الشرس الذى قاده معتمدًا على ركاب القصير الذى قرب ركبته إلى سرج السيف بينما كانت مرافقه الحادة تقاوم كالجنادب ، حمل سوطه فى يده كصولجان بينما انصاع الحصان تمامًا لحركة ذراعيه ، هرول الحصان سريعًا مما جعل قبعة (إيتش ابوود) الصوفية ترتل إلى أنفه ، وتهدل ذيل معطفه الأسود الطويل فوق ذيل الحصان ، خرج مشاقلا من بوابة (خانز فان ريبير) فى مشهد نادرا ما تجتمع تفاصيله فى وضح النهار .

كما قلت ، كان (إيتش ابوود) مغرمًا بالجو الخريفى ؛ فالسماء كانت واضحة وهادئة اكتست الطبيعة من حوله بالغنى والذهب الذى يذكرنا دومًا بالوفرة ، ووضعت الغابات رداءها الأصفر والبنى بينما بعض الأشجار اللينة كانت قد فرغت بالصقيع إلى درجات البرتقالى والأرجوان والقرمزى ، بينما حلقات من الطيط البرى بدأت تلوح بين نباح السناجب المنتشر فى بساتين الزان وبندق الجوز وصافرة طائر السلوى المرتفعة تجلجل فى حقل القش المجاور . كانت الطيور الصغيرة تتناول آخر وجباتها وهى تصفق من أجمة إلى أجمة بعربدة

وكذلك طائر أبو الحناء وهو اللعبة المفضلة لدى الصبية بصوته الشاكي طيور السمور وهي تطير بين الغيوم ، ونقار الخشب بأجنحته الذهبية رأسه القرمزية وبطوق رقبته الأسود الريش وطائر الأرز بأجنحته الرقطة وذيله الأصفر وقبعة الريش المميزة فوق رأسه ، وطائر أبو زريق المزعج بمعطفه الأزرق الفاتح والأبيض داخله بضوضائه ومراحه ليحظى بعلاقات جيدة مع كل غريدى البستان .

هرول (إينش ابوود) ببطء بين الحقول وعيونه تتجول بين خيرات الغرض المرح على كل الجوانب ، لمح مخزن كبير للتفاح وحقول هائلة من الناضجة بأذانها الذهبية التى تطل من مكامنها المحاطة بالأشجار والتي بالكعك والحلوى الآتية وتحتهم الفرع الأصفر يخرج بطونه المستديرة إلى الشمس لمزيد من الفطائر الأكثر روعة وهو يعبر بالقرب من حقول الحظائر السوداء المعطرة تنفس رائحة خلية النحل، وبينما هو هكذا سيطر على مذاق طبق صغير لطيف مكلل بالزبد ومزينة بالعسل والدبس بيد (كاترينا تاسيل) النضرة .

أخذ يغذي عقله بالعديد من الأفكار اللذيذة والتخمينات الساحرة ، على مدى التلال المشرفة على المشاهد البديعة لهدسون ، تحرك قرص الشمس هابطًا نحو المغيب ، بدا سطح (تابان زي) ساكنًا كسطح زجاجي باستثناء بعض تموجات لطيفة هنا أو هناك ، تنعكس عليها ظلال زرقاء للجبال البعيدة ، بعض الغيوم العنبرية تعوم في السماء بدون أية هبة هواء تحركها، واكتسى الأفق بخيوط ذهبية تتدرج نحو لون التفاح الأخضر والأزرق المتعمق في السماء

وشعاع مائل يتباطأ فوق قمم الأشجار المتداخلة على المنحدرات المطلة على النهر ، مما يمنح المزيد من العمق لأرجوان جوانبها الصخرية ، وسفينة شراعية تدرب بفعل المد بينما الشراع والسارية يتعاكسان ونتيجة لانعكاس الصورة على الماء يخيل إليك وكأنما السفينة معلقة في الهواء .

وصل (إينش ابوود) إلى قلعة (فان تاسيل) قبل حلول المساء ، وكانت القلعة تعج بالزينة والزهور المستوردة من البلاد المجاورة ، كان المزارعون من كبار السن في معاطفهم وسراويلهم المحلية وجواربهم الزرقاء يرتدون الأحذية الضخمة ذات التوكة الكبيرة ، بينما ارتدت نساؤهن النحيفات الشاحبات القبعات ذات النهايات المعقوصة والأثواب القصيرة بتنانيرهن المحلية ذات الجيوب الخارجية المرقطة بالألوان المختلفة بينما الفتيات البدينات قد ارتدين ثيابًا من خيوط أميالين باستثناء قبعات القش ذات الشريط الرفيع وربما بياض الفساتين هو الذي أظهرهن أكثر حجمًا من الحقيقة ، بينما ارتدى الصبية معاطف ذات نهايات مربعة بصفوف من الأزرار النحاسية الرائعة وقد صففت شعورهم بزيت سمك الجرين المغذى والمقوى للشعر كموضة تلك الأيام ، على كل حال كان (براوم الضخم) هو بطل المشهد حيث جاء على صيوة جواده المفضل بغروره اللاحه المفعمة بقوة الشخصية والشر الذي لا يمكن أن يبدو إلا منه .

كان (إينش ابوود) يتمتع بالرحمة والرضا ينتشي بالطعام كانتشاء الرجال بالخمر ، لم يستطع أن يغمض عيونه الواسعة عن السحر المتبحث لطاولة الشاي الهولندي في هذا الوقت الخريفي والأطباق الكبيرة المغطاة بالكعك الصغير المحلى على كل الأشكال والذي تتقنه ربات البيوت الهولنديات ، بالإضافة إلى

فطائر الخوخ والقرع والتفاح وشرائح لحم الخنزير والبقر المدخن، علاوة على ذلك كان هناك صحون من الخوخ المحفوظ والطازج والكمثرى والسفرجل وأسماك الشابل والدجاج المشوى معها أكواب من الحليب وأطباق الشاى وإبريق الشاى يرسل سحبًا من البخار .

ضحك (إيتش ابوود) فى نفسه لمجرد تخيل أنه قد يكون فى يوم ما على كل هذا المشهد من الترف والعظمة الخيالية، حينها سيدير ظهره إلى العودة القديمة ويضع أصابعه فى وجه (هانز فان ريبير) وكل راع بخيل ، بينما كان (فان تاسيل) يتجول بين الحضور باسمًا محييًا يربت على أكتاف من لم يلمع نجمه ضاحكًا . بدأ صوت الموسيقى يأتى من قاعة الشلعة لدعوة الجميع للرقص ، كان قائد الأوركسترا زنجيًا مسنًا قاد الأوركسترا المتجولة فى أنحاء المدينة طوال نصف قرن ، كانت آلاته قديمة يقدمه محطمة كنفسه ، رائف حركة رأسه كل حركة تقوسه . كان يميل نحو الأرض ويدب بقدمه كلما بدأ ثنائى جديد فى الرقص ، كان (إيتش ابوود) يفتخر بقدراته فى الرقص ربما أكثر من قدراته الغنائية فلم يدع وترًا أو طرفًا من أطرافه ساكنًا فكان كل جسده ينطلق بالرقص بحركة كاملة دارت فى أنحاء الغرفة .

كانت سيدة قلبه هى شريكته فى الرقص تبتسم بلطف لكل نظراته الوالهة بينما (براوم) يجلس وحيدًا يعتصره حبه وغيرته ، وحين أوشك الرقص على الانتهاء، تجاذب (إيتش ابوود) أطراف الحديث مع الرجال الجالسين مع (فان تاسيل) الذى كان يدخن فى جهة من القاعة ، يحكى عن الأزمنة الغابرة وبطولاته فى الحديث عن قصص الحرب، حيث كانت المناطق المجاورة فى تلك الأوقات

التي تحدث عنها تعج بالتواريخ والرجال العظماء، كانت سبيل للبريطانيين والأمريكان خلال الحرب ومشاهد الغزو وقوافل اللاجئين ورعاة البقر وكل أصناف النشاط المسلح على الحدود ، وكان الوقت كافيًا ليسرد كل من المتحدثين قصته بعض التأنق والارتجال المناسبين بحيث يتصور نفسه بطلًا للقصة .

كان هناك قصة (دوفو مارلنج) الهولندى ذو اللحية الزرقاء الذى تمكن من أخذ فرقاطة بريطانية ذات تسع مدافع حديدية من المتاريس القاذفة . وكذلك قصة المسن ذو الثراء المجهول الاسم صاحب البطولة فى معركة السهول البيضاء والذى تمكن من تفادى فذيفة بندقية بسيفه الصغير تشهد الحكاية بدوره الكبير فى إنهاء الحرب ، إلا أن كل تلك الحكايات تواضعت بالكامل بجوار حكايات الأشباح وظهورها المفاجئ حيث تحفل تلك المنطقة بكنوز من الحكايات الأسطورية التى حدثت للهولنديين القدامى الذين يتعللون فى بقعة ليومهم وهاجر بعضهم للخارج وتزور أرواحهم المنطقة أحيانًا فى الليل . كان لقرب من الوادى الناعس أكبر الأثر فى انتشار هذا النوع من قصص الخوارق العدوى المنتقلة منه عبر الهواء وكان أغلب من تعرضوا لحمى نعاس الوادى حاضرين فى قلعة (فان ناسيل) ، بالإضافة إلى العديد من الحكايات الكئيبة التى تحدثت عن مواكب جنائزية ونداءات حداد وعويل مسموع تنبعث من الشجرة التى أخذ إليها الصبيور المسكين (أندريه) ، تجدر الإشارة أيضًا إلى امرأة نرتدى البياض التى سكنت الوادى الصغير المنعزل (رافن روك) والتى ظلت فى الثلوج تسمع صرخاتها غاليًا فى ليالى الشتاء قبل قيام العاصفة .

إلا أن القصة الرئيسية المتداولة كانت عن (فارس الوادى الخامس عشر) (فارس الرأس) والذى يتجول عبر أنحاء الوادى فى الليل ثم يربط حصانه بين الصخور المنتشرة فى باحة الكنيسة الكائنة فوق الربوة المحاطة بشجر الغرب والدردار الشاهقة التى أضحت مزارًا للأرواح غير المطمئنة بجدرانها البيضاء اللامعة الماثلة قليلًا باتجاه صفحة الماء الفضية تجاورها الأشجار السامقة تعانق تلال (هدسون) الزرقاء وقد نما العشب فى ساحاتها مما يعطى شعورًا بأن الموتى ينامون بسلام ، يمتد وادى من الأشجار الكثيفة ناحية الشمال تقطعه ساقية تشق طريقها عبر الصخور والأشجار الساقطة بينما ألقى جسر قديم فوق جزء عميق من الجدول وقد ظلل الطريق عبر الجسر بمجموعة من الأشجار ذات المنظر الكئيب فى النهار والمخيف ليلًا ، يعتبر هذا المكان من الأماكن المفضلة للفارس مقطوع الرأس وأكثر الأماكن ورودًا فى الحكايات ففى رواية (بروير) المسن وهو الأكثر جحودًا وإنكارًا لوجود الأشباح حيث رأى الفارس وهو فى طريق عودته من رحلته الليلية وقد أمره بأن يتبعه عبر الوادى والمستنقع حتى بلغوا الجسر فتحول الفارس إلى هيكل عظمى ألقى برأسه فى البئر ثم قفز بعيدًا إلى أعلى الشجرة وسط صفق الرعد .

أبدت تلك القصة حكاية (براوم الضخم) والذى قابل الفارس ثلاثة مرات حيث كان عائدًا من قرية (سبنج سبنج) المجاورة فى إحدى الليالى فتحدى الفارس بمسابقته وأن عليه أن يهزمه وإلا نال العقاب ، فانطلق جواد الضخم عبر الوادى وما إن بلغ الجسر حتى اختفى بلمح البصر وتلاشى فى الظلام

كل تلك الحكايات تابعها (إيتش ابوود) الذى قرأ عليهم مقاطع من (عهد إمران نيو إنجلند) وأضاف العديد من الأحداث الرائعة التى حدثت فى ولايته (كونيكتيكت) والمشاهد المرعبة التى رآها خلال سيره بالوادى الناعس ، انفض الجمع بشكل تدريجى وصعد المزارعون وعائلاتهم إلى عرباتهم مطلقين ضجة استمرت لبعض الوقت على طول التلال البعيدة بينما بعض الفتيات صعدن خلف عشاقهن وضحكاتهم اللا مبالية تختلط بصفق حوافر الخيل المتردد عبر الغابات الساكنة ، تلكأ(إيتش ابوود) فى المؤخرة ليتبادل الحديث الهامس مع (كاترينا) وقد غمره يقين تام بأنه يسير على درب النجاح ورغم ذلك كان شىء مايزرع الخوف بداخله من الفشل عوضًا إلا أن هبة هواء مقفر وكئيب كانت كافية لترفعه إلى أعلى ، يالله ! يا لهن من نساء ! كان تشجيع (كاترينا) للمعلم المسكين ما هو إلا خدعة لتتأكد من حب منافسه لها !

كانت تلك الهبة المقفرة من الهواء كافية لجعل (إيتش ابوود) ينسحب إلى الخلف دون النظر يمينًا أو يسارًا متمتمًا معه دقات قلبه المتسارعة، أوقظ جواده الجموح وتابع سيره إلى حيث البيت فى ذلك الوقت الأكثر سحرًا من كل منزل القلب ومكتئب وقد نشرت (تابان زى) مياهها المعتمة فى صمت الليل الحيث الآخذ فى الإظلام ونباح كلب حراسة لجنة مراقبة الشاطئ المطابل بعيد وصياح ديك ربما استيقظ عرضًا، بدت النجوم وكأنها تغرق فى السماء ، الطيها الغيمات من لحظة لأخرى، شعر (إيتش ابوود) بكآبة ووحدة لم يشعر الطيل ذلك ، تسارعت فى ذهنه حكايات الأشباح والجن التى سمعها من قبل وهو يعبر المناطق التى تدور حولها هذه الحكايات بالذات ، وانتصبت

شجرة لبق أمامه في وسط الطريق تلك التي ارتبطت بقصة المجوز الذي
الخمس الذي سجن عنوة واعتبره أهل المدينة شخصية خرافية ومحترمة . لكن
اقترب (إيتش ابوود) من تلك الشجرة بدأ بإطلاق صفارته التي ظن أن
يرتد إليه إلا أنه سمع صوت انفجار من بين أغصانها وتراءى له جسم أبيض
بين الأغصان ، أوقف صفارته إلا أنه علم أن ذلك من فعل البرق تابع طريقه
إلى حيث البئر الصغيرة تقطع الطريق بينما اصطف القليل من جذوع الشجر
القاسية على جانب الجسر ، مجموعة من أشجار الكستناء والبلوط غطتها
العشب البري المتسلق يثقل أغصانها المزيد من الغم على المشهد .

وكز (إيتش ابوود) جواده في ضلوعه المتضورة ليزيد من سرعته إلا
انحرف إلى الجانب المعاكس حيث أجمة العليق وانحرف إلى جانب الجسر
مما جعل (إيتش ابوود) يسقط إلى عنقه وفي تلك الأثناء لمح (إيتش ابوود)
جسمًا ضخمًا مشوهًا اسود شاهقًا ناحية البئر بدا وكأنه وحش عملاق
لمهاجمة المارة ، انتصبت خصلات شعر (إيتش ابوود) من خوفه إلا أنه
فواه وصاح متلعثمًا :

ـ « من أنت؟ »

فلم يجبه أحد فكرر سؤاله بصوت أكثر حدة فلم يجبه سوى الصمت
عيونه بينما تردد داخله لحن مزمور . ونتيجة للظهور المفاجئ لهذا
المخيف تضاعف ظله وبدا ذا أبعاد كبيرة بعد أن امتطى صهوة جواده
قوي البنيان مبتعدًا عن الطريق مهرولاً تجاه جواد (إيتش ابوود) الذي
ناحية عينه التي لا يرى بها، فرفع (إيتش ابوود) من سرعة جواده ليتجاوز

الغريب فاسرع هو الآخر ، مما جعل قلب (إيتش ابوود) يغرق بين أضلاعه من نهوض هذا الصامت الغريب الذى بدا أكثر ارتفاعًا عن الأرض وكأنما بضاعف ارتفاعه المضيا فى عباءة السماء . تيقن (إيتش ابوود) إلى أن هذا الغريب كان بلا رأس وازداد رعبه حين أدرك أن رأس هذا الغريب كان محمولاً أمامه على بقبض سيفه ، ازداد رعب (إيتش ابوود) إلى حد اليأس مما جعله يستمر فى ركل جواده ليسرع متجاوزًا هذا الغريب إلا أنه تمكن من تجاوزه بقفزة واسعة ثارت الصخور الصغيرة فتطايرت بلمعان مضى، من حوله، صفقت ملابس (إيتش ابوود) الريح فى الهواء بينما جذب جسمه النحيف الشارع بعيدًا عن رأس جواده وكأنما يحاول الطيران .

وصلوا إلى الطريق الذى ينحدر إلى حيث يستقر الوادى الناعس ، والذى يعبر الجسر على بعد ربع ميلا من الربوة الخضراء التى تتوسطها الكنيسة ، اما جواد (إيتش ابوود) وكأنما أصيب بمس شيطانى جعله يهبط المنحدر بقفزات أكبر مما أرعب (إيتش ابوود) إلا أنه أعانه على المطاردة ، وقبل أن يتمكن من عبور نصف المسافة إلى الوادى انفلت الطوق من السرج وأحس (إيتش ابوود) كأنما انزلق من تحته إلا أنه تمسك بعنق الجواد واستجمع كل قوته ليبقى على صهوته وظل يرتج بعنف فوق عظمة العمود الفقرى لحصانه وكأنها تقطره نصفين ، وعبر فتحة بين الأشجار لاحت الكنيسة من بعيد والجسر المؤدى اليها والمشهد الكامل الذى ذكره برواية (براوم الضخم) حيث اختفى الفارس المقطوع الرأس ، فكر : « لو أستطيع .. لكن .. أبلغ هذا الجسر .. أنا

فجأة سمع صوت الجواد الأسود من جديد يلهث ويتفخ خلفه تماما وأمر بسخونة أنفاسه ، وقد ركل جواده برعب في ضلوعه فقفز فوق الجسر وارتطم حوافره على الألواح الخشبية بصوت مدو واتخذ الاتجاه المعاكس ، اختلس (إيتش ابوود) نظرة للوراء ليرى ما إذا كان مطارده كما اختفى كما عرف عنه إلا أنه لمح هذا العفريت في ركابه يقذف رأسه المقطوع نحوه وقد قفز من نفاديها فاصطدمت بجمجمته في صوت تهشم عنيف فسقط بين الغبار إلى جوار جواده بينما تجاوزه الفرس الأسود والفارس الشبح كإعصار .

في الصباح التالي وجد جواد (إيتش ابوود) وحيدًا دون سرجه ولجامه مدل تحت أقدامه بحفر العشب عند باب مالكه ، لم يظهر (إيتش ابوود) على الإفطار ولا العشاء بينما الأطفال تجمعوا في المدرسة وترجلوا بكل من البئر ولكن مدير المدرسة لم يحضر ، تحققوا من وقوع الهجوم وبعد تطبل مضن وجدوا السرج في الوحل وآثار حوافر الخيول تحفر الطريق بعمق من الجسر وعلى بعد مسافة كبيرة من البئر عثروا على قبعة (إيتش ابوود) التي وبجوارها ثمرة قرع عسلي محطمة وبعد تفتيش البئر لم يتم العثور على جثة(إيتش ابوود) ، أثارت هذه الحادثة الغامضة الكثير من التساؤلات في الكنيسة خلال أيام الأحد التالية حيث تأتي جموع الناظرين إلى باحة الكنيسة على الجسر في البقعة التي وجدت فيها القبعة وثمرة اليقطين يهزوا رؤوسهم بأسى متأثرين بخاتمة (إيتش ابوود) التي ساقه إليها المرتزقة . وعلى اعتبار أنه أعزب لا أقارب له لم يشغل ذهن الناس طويلاً ، غير أن مزارع محلي كان في رحلة إلى نيويورك بعد الواقعة بأعوام وعلم من الاستجابات

إن (إيتش ابوود كرين) ما زال على قيد الحياة وقد ترك المنطقة ليهرب من الحفريت ومن (هانز فان ريبير) وعار النبذ من (كاترينا) واستمر في التدريس وإلى جانب ذلك درس القانون واندفع إلى الحياة السياسية والكتابة بالصحف وأخيرا أصبح قاضي لمحكمة (تين باوند) ، بينما (براوم الضخم) بعد اختفاء منافسه بفترة وجيزة شوهد مع (كاترينا) عند مذبح القرابين بالكنيسة استعدادًا للزفاف ، ولوحظ أنه أكثر من يعرف تفاصيل واقعة (إيتش ابوود) والتي تجعله ينفجر من الضحك كلما ذكرت ثمرة اليقطين مما دفع البعض إلى الاشتباه في أنه يعلم عن الأمر أكثر مما يحكي ..

(بوغم كل شيء ظلت ربات البيوت المسنات بالمدينة يقصصن قصة (إيتش ابوود) الذي اختطفته قوى ما وراء الطبيعة ، وهن جالسات حول ركبة النار في ليالي الشتاء وصار الجسر المؤدي إلى الكنيسة أكثر إثارة للرعب وربما كان هذا بسبب تغيير الطريق إلى الكنيسة، وكذلك مبنى المدرسة الذي تم تدميره نتيجة الإهمال ويعتقد البعض أن شبح المدرس التعيس قد استوطنه وأحيانًا يعربد في ليالي الصيف وهو ينشد مزاميره عبر صمت الوادي الناعس ..

* * *

التحوّل

(قصة قصيرة)

حدث ذلك في آخر ليلة لي مع زوجتي . الليلة التي رأت فيها أن هذا كفى جدًا ورأيت أنا أن لا بأس . لم تكن هذه هي آخر ليلة لي معها ، بل الليلة أن تقول أول ليلة لي بدونها . لهذا كان من الغريب أن أدخل الحمام دون أن تتناهى إلى أذني الأصوات من التلفاز الذي يعرض مسلسل الثامنة مساءً وهي عادة زوجتي التي لم تتوقف عنها قط لا في ليلة التاسع من فبراير عام ١٩٩١ عندما شعرت بألم غامض في كتفها الأيمن واتضح أنه التهاب في المرارة ، ولا ليلة الحادي عشر من مارس في نفس العام عندما ألمها مغص حاد وعرفنا أنه بسبب الانسداد في القناة المرارية .

والآن ها هي الحياة بدونها وبدون مشاكل الكبد ومستحضرات الكولنجيز والربيافرين وأغاني فيروز والمجلات النسائية العليلة بالبالرونات التي تحب ـ أحبت ـ تجميعها في مجلد واحد برغم أنها لم تكن أبدًا ماهرة في التطريز .

يبدو وأنك الآن تظن أنني أحبها . نعم ، لا زلت أحبها ، وربما هي أيضًا لا زالت تحبني . فلماذا كان الطلاق إذن ؟.. لا أعرف، ولا أعتقد أن أحدًا في هذا العالم له القدرة على أن يعرف . هذه الأشياء سوف تظل إلى الأبد بلا أي تفسير .. كان قدرنا أن نلتقي ، وكان قدرنا أن نفترق .

وما أن أضأت نور الحمام حتى رأيت ظلها الغالي مرة أخرى، وفي المرآة المصقولة بعناية كانت ذكراها منقوشة مع الشعر الأسود على الإطار الخشبي حيث اعتادت أن تستند على حافة المرآة بيدها اليسرى وهي تتزين، وبالأحمر بقع حمراء لأحمر الشفاه الذي كانت تمسحه بأناملها، ومع صورتين صغيرتين

لليمون واحدة وهي تحتضن فيثارتها الصفراء والأخرى وهي تتنزه في ربوع الشام. ولا شيء آخر..

يا المصيبة...

لا شيء آخر..

* * *

تذكر آخر مرة شفتك أنت

تذكر وقتيا آخر كلمة قلتا

وما عدت شفتك

وعلك شفتك كيفك أنت !

* * *

البغ وأماكن الاتساخ على الإطار الخشبي وزجاج المرآة اللامع إلا في ركنها العلوي الأيسر إذ تقشر من الخلف بفعل الزمن ، انعكاس باب الحمام لمعطر حوائجي مفعوله منذ عام .كل شيء كان انعكاسه موجودًا في المرآة كالعادة . وما ذلك ، فلا شيء آخر ..

لم أكن أنا موجود في المرآة !!

حسنًا .. كيف يصفون مثل هذه الأمور ؟ عندما تستيقظ متأخرًا ثم لا تعثر على جورب واحد نظيف ، فإنهم يصفون هذا بالارتباك ، عندما تفتح عينيك لا تجد نيكول كيدمان إلى جوارك وتكتشف أنك ـ فقط ـ كنت تحلم ، فإنهم يصفون هذا بالتشتيت ، عندما ينفد منك الثقاب وتحاول إشعال سيجارتك فتجد الجميع قد صاروا من أعداء التدخين ، فإنهم يصفون هذا بالحنق .. ولكن ، كيف يصفون عدم عثورك على صورتك في المرآة ؟

أعتقد أن أحدًا لم يجرب شعورًا كهذا من قبل ، لهذا ـ أعذرني ـ لن أجد لك

وصفًا مناسبًا . وبالتأكيد لن أجد لك وصفًا لما حدث بعد ذلك بثوان (والذي يعتبر أكثر فظاعة ، كما سترى) . حاولت أن أعبث في إطار المرآة هنا وهناك بحثًا عن خدعة ما ، لكني كنت أمزح ، فما الذي كنت أحاول العثور عليه (وبدا طريفًا أن لا أرى لجسدي الذي يتمايل يمينًا ويسارًا أي انعكاس) وهنا حدث ما حدث .

كنت راكعًا على الأرض أحاول اكتشاف سر هذا المقلب الرديء ، وعندما كنت أهم بقامتي صاعدًا (متوقعًا ألا أراني في المرآة ، يبدو أنني قد اعتدت الأمر كأنه من بديهيات الحياة اليومية) لكني في هذه المرة بدأت أرى موزعًا تظهر ، حمدًا لله ، يبدو أن ضعف بصري كان السبب في الـ ..

يا إلهي ، يا إلهي ..

عادي جدًا !

أنا في المرآة مرة أخرى ، قميصي اللبني الذي فقد أزرارًا من أعلاه فأظهر طوق الفانلة الداخلية . المؤخرة البلاستيكية البيضاء لقلمي الفرنساوي تبدو من الجيب الذي انسخت حافته . القلم أحمر ، أخبرك لأنك لا ترى هذا في المشهد ، بالرغم من أنني أمقت الكتابة بالحبر الجاف الأحمر ، هذا القلم انتشلته عنوة من أصابع صديقي اللدود (عماد) إذ كان يحاول في حماس أن يرسم شاربًا للفتى المرسوم على غلاف «وجوه الحب السبعة» الذي نسيته على مائدة الطعام ليلة الثلاثاء الماضية . كان السيف قد سبق العزل على أية حال ، فالفتاة الحالمة المرسومة داخل قلب الزدان بوردتين قد صار لها لحية حمراء عملاقة جديرة ببراسيوتين .

لكن وجهي في المرآة كان عبارة عن جمجمة !

هيكل عظمي يرتدي قميصي . اقترب من جمجمته . أعود للخلف ، فتبعه الجمجمة وتغوص في خلفية المرآة . أحرك رأسي ، فتهتز الجمجمة طربًا .

هنا أدركت أن جسمي يرتجف رغمًا عني ، لست ممن ترعبهم رؤية الجماجم، ولكن عندما أراها حيث يجب أن تكون رأسي ، فإنني ـ حتمًا ـ لن أظل بنفس الثبات .

العجيب أن قامتي لم تزل كما عهدتها ، نحيلة نعم ، ولكنها ليست بهيئة الهياكل العظمية ، حتى إن الجمجمة القبيحة التي كانت تطل من ياقة قميصي بدت سخيفة نوعًا فوق هذا الصدر المعتدل . مسنودة من أسفل بفقرات العنق السبع وعظمتي الترقوة ، لم يكن لها اللون الأبيض الذي تراه على مكاتب طلبة الطب في التلفاز . العيون فجوات غائرة كأنها الكهوف ، والفم بلا لسان أو أسنان إلا من ضحكة واسعة لن تغيب أبدًا . لا ريب أنني مريض ، مريض وأهذي ، نعم أشعر بسخونة فظيعة في جميع أنحاء جسمي وجبهتي تلتهب بالحمى ، حمى مصحوبة بانفعال مصموم وصل بي في ثوان إلى المرحلة التي تصل إليها الحمى من إجهاد للجسد وألم في الأطراف وتوتر في الأعصاب والإحساس الممض والمريح أن الموت يدنو منك . أنا واهم بلا شك ! وهم من النوع السخيف الذي لا يجعلك تظن أنه وهم بأي حال من الأحوال . ولكن ، هل لأنني أرى رأسي جمجمة ، معنى أتوهم بأنني مريض ، أم أنني مريض ، فأرى وجهي في جمجمة ؟

قبل أن أتهالك بجوار الحوض وأغوص في خواطر سوداء مقيتة لن أفيد منها إلا الصداع ، ولن تفيد أنت منها إلا ضياع الوقت ، فتحت باب الحمام وخرجت في الحال بأقصى سرعة سمحت لي بها حالتي السيئة صحيًا والعجيبة عقليًا ، ثم إنني أغلقت الباب خلفي بعنف أدهشني رغم وهني وفي الصالة رحت أنقر بقلم عماد الأحمر على المائدة وأنا في أسوأ حال من الاضطراب والحيرة .

لكنني كنت على يقين من فكرة واحدة :
لن أبقى في هذه الشقة لحظة واحدة !

* * *

أسطورة رجل الجليد

الثلج .. الثلوج .. العواصف .. الذئاب البيضاء تعوى هنا وهناك .. الكواسر الحطابين تنتشر فى كل مكان .. روح (بوذا) تحلّق فوق القمم الشامخة .. ودير الرهبان بعيد .. تصدّعت جدرانه من تعاليم السيد (جوتاما) أمير (سيدهارتا) .. ومن أقوال المقدس (ماهافيرا) .. الدنيا كلها جليد ناصع البياض .. وبعيدًا عن العاصمة (لهاسا) .. أو قريبًا منها .. أسرع الراعى الذى كان يرتجف رعبًا إلى داخل كوخه ، وأوصد عليه الباب فى إحكام .. وأخذ يلهث من فرط الرعب والانفعال .. والخوف مما سيحدث .. بعد ثوان .. كان المخلوق الغريب فوق السطح يمزق فطعًا كبيرة منه .. قطعة ، قطعة .. وما يجده حيًا كان يفترسه ..

فجأة .. تجمّد الراعى ـ الذى كان يرعى خرافه وماعزه ـ فى مكانه ، فى أعلى جبال هذه المنطقة .. (نيبال) .. فى لحظة ... تجمّع القطيع والتصق بعضه البعض ، وهو خائف مذعور .. إنها غريزة الحيوان التى تفوق غريزتنا بكثير .. والتى تشعر بالخطر قبلنا بمراحل .. ولأنها تشعر بالكوارث قبل موعدها ، وقبل أن نلمس معالمها .. إذن ، تلك ـ بلا ريب ـ علامة من علامات الشر المقبل .. وكان هو يعرف هذا .. لقد حدث مرات سابقة لرعاة مثله .. حدث كثيرًا فى الواقع !

* * *

إن الشرايا الذين يقطنون منحدرات جبل «إيفرست» ، قد ألف حماية قطعانه من الحيوانات المفترسة .. وعندما انكمش القطيع مذعورًا .. رفع الراعى عصاه

وهو يرتجف ، لصد الوحش القادم .. لكنه استعاد ثقته فى ثوان .. ربما كان أحد الحيوانات المألوفة.. هى أيضًا تسبب رعبًا للخراف.. ورفع عصاه هذه المرة فى هدوء، واثقًا من قدراته على مجابهة هذا المعتدى ، ظنًا منه أنه ذئب جبلى أو نمر .. ولكنه لم يكن كذلك.

كان هذا الكائن الذى يتقدم نحوه فى خطوات بطيئة متثاقلة ، يبلغ من الطول حوالى ١٩٠ سنتيمترًا، وله شعر أحمر كثيف يضارع فراء «المنك» المنتشر هناك .. لم يكن هذا الكائن مألوفًا بالمرة .. كان شعره ينسدل على عينيه، أما أسنانه فبارزة ، ورأسه مخروطى الشكل كرأس قرد .. كان الكائن واضح المعالم إلى حد بعيد .. وكان من الصعب- بل من المستحيل- ألا يتعرفه الراعى .. وهنا فزع عندما وجد نفسه وجهًا لوجه أمام المخلوق الغريب .. وصرخ : «ربّاه .. إنه هو ! »

* * *

(آلبتى) .. تعنى تلك الكلمة فى الغرب : (مخلوق الجليد المدهش) .. الراعى يعلم ذلك .. ويعلم أنه قد يستطيع مواجهة الذئاب الجبلية أو النمور أو القرود .. لكن هذا المخلوق .. ماذا يفعل ؟.. لم يكن هناك وقت كبير للتفكير .. فاندفع إلى داخل كوخ مجاور ، وأوصد الباب عليه .. وبذلك غدا فى أمان مؤقت .. ولكنه كان مخطئًا .. إذ سرعان ما سمع الكائن وهو يمزق قطعًا كبيرة من السطح بيديه القويتين ، وبعد لحظات سيكون معه فى الكوخ .. إنه هالك لا محالة .. سيصبح ضحية (رجل الجليد) هذا .. ولم يكن أمامه حل آخر .. أسرع يجمع بعض الحطب من هنا وهناك ـ داخل الكوخ ـ وجمعها تحت

منتصف السقف .. وأسرع بإشعال النار ، لعل الدخان الأسود الكثيف ، يفزع المعتدى، ويخنقه حاملاً إياه على الفرار .. ونجحت الحيلة .. تصاعد الدخان الخانق إلى سقف الكوخ حيث كان (آلبيتى) ، وفى غضب وهياج، قفز الكائن الغريب من فوق السطح ، وانسل نحو الجبل .. لكنه لم يستطع أن لا يترك آثارًا لأقدامه واضحة على الجليد .. ستكون فيما بعد محلاً للدراسة والبحث الطويل ..

مضى الكائن .. وبقى الرجل يلهث ، ويتنفس شهيق النجاة ..

* * *

كان الراعى الذى مر بهذه التجربة المخيفة وهذه الساعات العصيبة هو.. والد «تانزنج تورکى» .. وهذا الأخير هو المواطن النيبالى الذى نال شرف تسلق قمة جبل (إيفرست) ـ أعلى قمة جبلية فى العالم ـ فى صحبة السير (أدموند هيلارى) .. إن (تانزنج) وأهالى (الشربا) يعتقدون اعتقادًا قويًا فى هذه القصة.. إذ إن الكثيرين من قاطنى جبال (نيبال) قد رأوا المخلوق الغريب .. أو ـ على الأقل ـ يؤكدون أنهم رأوه وسمعوا نداءه العجيب ليلاً .. لكن السؤال ما زال معلقًا بلا إجابة : هل مخلوق الجليد هذا ، كائن حى أم مجرد أسطورة مثل أى أسطورة أخرى وهمية ؟ وسبب هذا السؤال بسيط جدًا : أن أحدًا لم يتمكن من الإمساك بـ (آلبيتى) حتى الآن .. أو حتى تصويره .. لكنه موجود حقيقة.. هذا ما يؤمن به (تانزنج) وباقى السكان الأصليين .. لكن ـ العلماء كعادتهم ـ يتهكمون على حتى مجرد فكرة وجود مثل هذا الكائن .. ومع ذلك ـ أيضًا ـ لا يمكننا أن نأخذ ما قاله (تانزنج تورکى) على محمل الخيال ، لأن معظم متسلقى

الجبال والمستكشفين الأوروبيين مقتنعون بوجوده .. فالسير «جون هانيت» مثلاً (وهو رئيس البعثة الكشفية عام ١٩٥٧ م إلى قمة إيفرست) .. رأى آثارًا في الجليد .. وهذه الآثار كما يقول ـ لا يمكن أن تكون لإنسان .. فهي تسير لمسافات بعيدة .. ويقول (هانيت) : إن هذه الآثار لو كانت لإنسان ـ كما يعتقدون ـ لسارت في خط مستقيم .. فتلك هي الطريقة المعروفة لمتسلق الجبال .. والمتسلقون والباحثون يعرفون هذا جيدًا .. لكنهم لا يصدقون .. لكن من يصدق (هانيت) ؟ لابد من دليل ..

بعد ذلك ، وعلى مر السنوات ، ادعى آخرون أنهم رأوا آثارًا على الجليد، تشبه آثار الهندي الأحمر وهو يتعقب فريسته في الصيد .. وخلف هذه الآثار ساروا .. لكنها ما لبثت أن اختفت في المناطق الغير مغطاة بالجليد .. انتهت بهم إلى .. لا شيء .. وظلت الحال هكذا ، حتى تمكنت البعثة الكشفية من اكتشاف آثار للمخلوق الأسطوري وهو يتزحلق على أرجله الخلفية (كأي متزحلق ماهر على الجليد ـ وكانت قدماه هما الزحافتين) .. وكان ـ وهو هكذا ـ يجرف الجليد بيديه القويتين .. وانتهت تلك الآثار كسابقتها .. إلى لا شيء .. ومع كل هذا الكم من الآثار ، لم يعثر أحد على دليل ملموس على وجود رجل الجليد .

* * *

فى البدء كانت الأسطورة

تحكى بابل القديمة قصة خلق مختلفة عن الرب الأعظم «ماردوك» الذى قتل الأم العظيمة وقطّعها إلى قسمين ألقى أحدهما إلى أعلى فتكونت السموات ودفن الجزء الآخر تحت قدميه . فتكونت الأراضى فى العالم . وقصة صينية قديمة تقول أن بيضة كبيرة بحجم الكون ، بداخل هذه البيضة مزيج من المتناقضات (إناث وذكور، برد وحر .. إلخ) ثم خرج من البيضة مارد عملاق اسمه «فان كو» وكانت تزداد قامته عشرة أقدام فى كل يوم ، حتى بلغ طوله عنان السماء ؛ فخلق جميع الأجسام السماوية مثل النجوم والشمس والقمر و .. إلخ بعدها نحت فى الوديان والجبال بعدقة ذات رأس خشبى ، وعندما مات فان كو تحوّلت الحشرات والبراغيث التى كانت تعيش فى شعره إلى آدميين . وخلقت أنثى الغراب توأمين وهما أول من خلق فى العالم ، وذلك ما تقوله قصة بداية الخلق فى شمال شرق سيبريا ، وحسب مزاعم هذه القصة فإن زوج أنثى الغراب ذهب فى رحلة طويلة لخلق الجبال والوديان ، ثم نزل على العالم وصنع من بوله جميع الأنهار والبحيرات فى الأرض وبعد فترة طيرت أنثى العنكبوت وخلقت السيدات !

يؤمن البوذيون بأن الكون يخلق وينتهى ثم تعاد عملية خلقه مرة أخرى خلال الأزمنة المختلفة ، وفى بداية كل دورة لخلق الكون لتكون الأرض فى الظلام ، على سطح الماء وتظهر على الأرض المخلوقات الروحانية والأشباح وهى أول ما خلق على وجه الأرض ، ويتم خلقها من جديد ثم تأخذ كل واحدة من هذه المخلوقات شكل الإنسان وبدأ الخلق الإنسانى فى التناسل ثم يخلق

بعد ذلك عهد السعادة والشقاء الذى ظل مستمرًا إلى يومنا هذا . وبعد فترة زمنية يذوب الكون وينتهى وتعود الكائنات الحية إلى روح الحياة لتبدأ الدورة من جديد. و«بوروساه» هو أول رجل خلق على وجه الأرض فى أحد اعتقادات الهندوسيين بشأن قصة الخلق . وجسم «بوروساه» يمثل الكون حيث كوكب الأرض هو الجزء الأسفل من هذا الجسم بينما السماوات هى الجزء الأعلى منه ويمثل الجنس البشرى أجزاء مختلفة من جسد «بوروساه» ؛ فذراعاه هما المحاربون وساقيه هما عامة الشعب ، أما قدميه فهما الفلاحون والخدم . وتقول الكتب الهندوسية المقدسة القديمة أن الكون تكون عن طريق عملية تنفس الإله «فيشنو» فعندما شهيق «فيشنو» تكوّن الكون ، ومع كل زفرة من زفراته تبعث المخلوقات الآدمية على أشكال حبوب صغيرة ، ثم تتحول مع مرور الوقت وتأخذ الشكل الآدمى . أما الديانة الجينية وهى ديانة هندية قديمة لها كتابها المقدس الخاص وتؤمن بأن العالم المادى أبدى يتقدم على هيئة دورات واسعة المجال ، وقصة نشأة الكون التى تؤمن بها هذه الجماعة تقوم على فكرة رفض فكرة الخلق من الأصل ! إذ يؤمن أبناء هذه الديانة أنه لا يوجد مخلوق فى هذا الكون قادر على الخلق وبأنه غير منطقى أن يخلق رب مرتى هذا الكون المادى وأن هذا الكون مخلوق من تلقاء ذاته أى أنه قد خلق نفسه بنفسه منقسم إلى ثلاثة أقسام (جنة ونار وأرض) والأخيرة هى التى يعيش عليها الكائنات الحية .

أما عن اعتقادات السريانيين والوثنيين فقد آمنوا بالإلهة الأم التى قسمت بحار وأنهار العالم إلى قسمين ، الأرض والسماء. وبعد عدة عصور بدأت الشعوب تؤمن أن خالق الكون هو رجل وليس امرأة ويطلقون على هذا الإله

«زوج الإلهة الأم» وكان يتشكل في بعض الأحيان في هيئة ثعبان ، حتى ظهرت بعض الديانات التوحيدية ونجحت في القضاء على فكرة تعدد الآلهة هذه في أماكن متعددة . وتحكي الكثير من القبائل في جنوب غرب أمريكا عن فصل بداية الخلق ، حيث يعتقد هؤلاء أنه قد عاش أسلافهم لمئات السنوات في عالم الأرواح ، في الظلام ، ثم بدءوا في الظهور على سطح الأرض لرؤية الشمس للمرة الأولى ! ومن أشهر قصص خلق الوجود عندهم هي قصة الإله «تاتايوه» وهي تدور حول الحشرات التي كانت تسكن في أدنى ثلاثة عوالم من العوالم الستة . ثم حدث أن طردتهم الآلهة ليسكنوا في العالم الرابع ، وهناك انقسموا إلى قسمين ليبدأ ظهور أول رجل وأول امرأة في العالم . ثم صعدوا مع أبنائهم العشرة فوق شجرة كبيرة بالعالم الخامس ، وهذا هو العالم الذي يعيشون فيه الآن ، وهناك بدءوا في خلق الجبال والنباتات وفي النهاية أحضروا الآلهة ليشاركوهم الحياة في العالم الخامس !

وعلى الرغم من تأسيس جميع الاعتقادات المسيحية على تعاليم المسيح والقديس «بولس» وبقية القديسين ، إلا أن اختلافات واضحة وعديدة عن المفهوم الأساسي للتوراة . ويؤكد بعض علماء الدين أن ثمة تباين بين اعتقادات المسيحيين المحافظين والمسيحيين التحرريين . لدرجة اتباع كل منهما طريقًا مختلفًا عن الآخر . ويصف سفر التكوين خلق الرب للكون بالترتيب ، ويعلق صاحب الفضيلة «جيم هاردينى» بدير جنوب ايداهو المعمداني على هذا قائلا : «لقد خلقنا الرب ، ولم يخلق أحدنا مصادفة ووجودنا هنا لم يكن مجرد عملية انتقال من شكل حيواني إلى آخر وكما يقول الرب في سفر التكوين أن كل مخلوق تم خلقه بنظام معين وأن الإنسان خلق في يوم واحد والحيوان

خلق فى يوم آخر» . ولقد دارت مناقشات عديدة بين المسيحيين المحافظين حول مفهوم كلمة (اليوم) فى سفر التكوين ، فهل هو اليوم الذى يتكون من أربع وعشرين ساعة أم مدة أخرى لا يعلمها إلا الله ؟ ويعتقد علماء الدين إن هذه الكلمة لها العديد من المعانى طبقًا لمواقعها فى سفر التكوين . ويؤمن معظم المسيحيين المحافظون بقصة الخلق طبقًا لما جاء فى سفر التكوين ، ففى حالة عدم ثبوت صحة هذه القصة، سوف يثبت عدم صحة بقية القصص الأخرى ، مثل جنة عدن وخروج الإنسان من الجنة ، والعزلة بين الإنسان وربه ، ومن الممكن أيضًا أن ينفى هذا قصة صلب المسيح وبعثه . وقال بعض العلماء المسيحيين فى ذلك : «إذا لم تؤمن بكلام الرب فى سفر التكوين فلا تؤمن بالديانة المسيحية كلها» والتشكيك فى صحة سفر التكوين يعتبر إهانة للخالق نفسه ، ومن هنا تأتى حرية الرجل فى تمجيد نفسه لأخذ مكان المسيح نفسه إذا أراد .

وعن الطوائف البروتستانتية التحررية فقد شجعت الكنائس المنتمية لهذه الطوائف نظرية النشوء والارتقاء لعشرات السنين ، وعلى الرغم من وجود العديد من التفصيلات غير المفهومة عن وجود العديد من الفصائل والسلالات على كوكب الأرض ، إلا أن العلماء والباحثين قد استطاعوا الاتفاق على نظرية واحدة لنشأة الكون ، فالكون قد بدأ من عشرين بليون سنة عندما حدث انفجار عظيم فصل النجوم عن الشمس ثم خرج كوكب الأرض و بقية الكواكب الأخرى من أحد النجوم ثم ظهرت بعد ملايين السنين أول أشكال الحياة البدائية على سطح الأرض ، وتطورت هذه الحياة حتى ظهرت العديد من الفصائل التى نراها الآن بما فيها «البشرية» وهكذا نجد بعض التحريين على اقتناع بقصتى

الخلق المذكورتين فى سفر التكوين (الإصحاحين الأول والثانى) ونجد البعض الآخر يراها مجرد أساطير . أما الطوائف البروتستانتية المتشددة فلا يعتقد بعض أعضائها فى نظرية النشوء ، بينما يعتقد البعض الآخر أن الرب هو الذى خلق الكون من البداية ثم استخدم نظرية النشوء والارتقاء فيما بعد . كذلك يعتقد الكثير من اليهود فى نظرية النشوء والارتقاء ولكن مع بعض الاختلاف ، فاليهود الأرثوذوكس لا يؤمنون بهذه النظرية، ويقول (رابى بينى زبيل) بدير ارثوذوكس مينا نايم إنهم لا يعتقدون فى مثل هذه النظريات ، فعندما خلق الله الكون فى ستة أيام خلق المخلوقات الحية فى هذا العالم كاملة النمو، فلم تمر بمراحل نمو وتطور مختلفة كما تزعم نظرية النشوء . وأخيرًا فقكرة الإسلام عن خلق الكون واضحة وصريحة وهى تعتمد على ما ذكره الله عز وجل فى كتابه الجليل ، القرآن الكريم بأنه سبحانه وتعالى هو الخالق الأوحد للكون بكافة مخلوقاته وموجوداته ثم استوى على العرش .

* * *

حلم ليلة خوف

(قصة قصيرة)

ظهر الأربعاء، وصل إلينا خبر رجوع شكسبير، وأنه ما يزال مريضًا. لم يكن به شيء. حارس الدائرة الصحية كان قد ذكر أنه بقي نائمًا منذ البارحة وإلى الآن، وأنه كلما أفاق من نومه لحظة راح ينظر فيمن حوله بوجوم مذهول.

كنا نلتف حوله في غرفته الخيبوبية الغامضة، عندما قال الطبيب:

ـ «لعل ما أذاه هو استخدام أصابعه أكثر ما يجب!»

تمتم (هوراشيو) بجوار أذني:

ـ «إنه الضجر ولا شيء آخر!»

أما أنا فغبت في حيرة الموقف وحذلقة العلاج وتأويل الفوم ولم أعلق بشيء.

* * *

أشاح وجهه عنها وصوته المعدني يغادر البيو معه:

ـ «كل شيء بخير وسينتهي بشكل جيد».

راودها حنين لحظي سرعان ما تلاشى وهي تحاول تفسير غضه الطرف وسقوط جفنه المصنوع من ورق الألمنيوم، وإذ ذاك تساءلت: منذ متى والآن تشعر بالحرج أو بالرغبة في تبرير ذاتها؟ لكنها أقنعت نفسها بأن ثمة الكثير مما يمكن فعله بشأن لا شيء.

* * *

هذا المشروع الطموح الذى قدمه الحاج للمجلس الأعلى وقدم معه كو
الأوراق الشارحة للغرض منه : صنع الرجل الآلى الأنيق القادر على العيش وسط
عشيرة السيد القيروفى . هناك اختبأ ذلك الإقطاعى المهول عشرة أعوام كامل
قبل أن يكتشف الرعاع أمره و يذبحوه ويمثلوا بجثته ، لكن السادة هنا يريدون
الكنز الذى كان معه عندما فر . بالصندوق علبة من نحاس أرضى وبالعلبة ذلو
الشىء المسمى(فينوس) . لا أحد يعرف ما هو ولماذا أطلق عليه هذا الإسم
البشرى ، ولماذا أنثوى بالذات . قدروا أنها جوهرة باهرة الجمال لصغر حجم
العلبة كما فى الأقاويل ولحرص السيد عليها كما تأكد مرارًا . إذ سمع عن بعض
معاصريه أنه كان يحفظها فى حق من صفيح بين ثنيات ثيابه فى الحلات
وفى الغزوات حتى إنهم عزوا انتصاراته المستمرة فى معاركه غير متكافئة إلى
تعويذة خاصة مضمرة بالجوهرة ، وقال ميكانيكى ماهر مرة بحماس : إنها سر
نشاطه الخارق وهمته ! وأورد شاعر مبتدئ هذه القصة : أن خادمة فى قصره
تسللت إلى جناحه ومن باب مخدعه الموارب اختلست النظر فى ليلة زفافه الثا
على سبيل العبث الماجن فسمعت الأميرة تتوسل إلى مليكها بفتح ولهفة أن
يريها سره ، كان السيد يولى الباب ظهره العملاق فلم يظهر من العروس إلا
القليل ، وتقسم الخادم أنها سمعت الأولى تشهق إكبارًا أو جزعًا حتى إن وجهها
توهج بحمرة نارية وسقطت راكعة أمام رب القصر . وفى الصباح لم يعد
للأميرة وجود ولم يكن لأحد أن يسأل . قيل فى تتمة ضعيفة أن الخادمة نفسها
تمكنت من رؤية الجوهرة الفريدة وقصت ما رأت تفصيلًا لحبيبها الشاعر الذى
ألهمته الدرة بعشرات الأبيات !

وكانت كلمة الشيخ «زبير» هى القول الفصل : «من حكمة الخالق أن يتشقق الكون من ميازيب نقطة واحدة يرجع إليها فى ختام الأمر، وأن يختفى هذا المركز العلغز فى جعبة من لا يستحق . فيظل باب الجهاد والاجتهاد مفتوحًا لبحق الحق» .

هام مريدوه بالمعنى الغامض الملتبس وشحذ أصحاب الهمم من صلاتهم جل النشاط لكشف السر وانتزاع حجر الأسرار من اليد الكافرة .

فى القاعة التى تلى حجرة الشيخ اجتمع السحرة والساسة وخبراء الحاسوب ، واقتباس من الكلمات المباركات وبرضا أصحاب النفوذ وبحماس أهل العلم ، كان الاتفاق والقبول على خلق المخلص الرسول : شكسبير .

فى الأول كان كالبيضة الكبيرة بحجم صبى المعصوعة من المعدن . تخرج منها طائفة من الأسلاك ومجسات تقوم مقام الحواس فى الجسد البشرى ، ثم امتلأت البيضة كرة فى حجم التفاحة زرعوا فيها الآلاف من محركات البحث . سأل أحد التلامذة : فكيف يبحث عما لا يعرفه ؟ وكانت الإجابة هى تطعيم العجعمة القصديرية بشريحة موجزة لتاريخ الأمم . تعتم صديق الشاعر وكان يعمل بالمختبر : هذا هو الجسد وهذا هو اللب ، فأين القلب ؟ ، وجاءه الجواب : إن ذلك هو محركه ، سوف تكون الجوهرة هى قلبه .

* * *

فى صبيحة يوم عاصف جهزوه لمهمته ، وسط متفرجين من العلماء والعاملين ، وحشد من الممولين والمشككين . وما بين خيبة أمل وشماتة توقف (شكسبير) فور خروجه من رحم التجريب وبدء دخوله مسرح البحث ، فما الخطأ ؟

في مركز القاعة وتحت ظل ، استقر جسمه المعدني المطعم بالشرائح الدقيقة والمحاط بالأسلاك ، إذ قال قائل :

ـ «أكثر سكان المناطق المحيطة من الرعاع ومن الطبيعي أن يفزعهم منظره. لسوف نكون محظوظين لو لم يدمره أحدهم بقراوة خشبية أو يفتك به ».

ـ « دعك من لصوص الغابة الذين سوف يفككونه إلى عشرات القطع طمعا في بيعها إلى مهندسي البرج ».

ـ « وهؤلاء السادة لن يمنحوا له أبواب قصرهم العملاق إلا لتحويله إلى جهاز منزلي لا قيمة له ».

وكان أن تم اللجوء إلى فنانين ومصممي ديكور متقاعدين لتغيير هيئته بالكامل لتقارب الشكل البشري ، أما الرونق الخاص بجمجمته الصاقلة فقد داروه خلف قناع من وجه شاحب مريض وشاربين رفيعين وعينين نصف مغلقتين وفروة رأس مشعثة . وألبسوه كما يلبس البسطاء .

تنفس الصناع الصعداء وهو يجتاز الريف ، وخفت حدة الحاسة إذ جلب إليهم العلماء الإشارات التي يرسلها (شكسبير) تنبي بتخطيه الغابة ودخوله برج المهندسين .

لكن الشاعر وقف أمام صديقه الميكانيكي وهمس :

ـ « يا للإنسان! يفقد سر وجوده في الوحل وبين الدهماء ثم يخلق عليه من الجماد ليعثر عليه ! »

وبين يدي الشيخ (زبير) يتعتم أحد مريديه :

ـ « طال الوقت يا سيدى ! وأخشى أن يكون الأمر كله مجرد لعبة » .

وتأمل القائد العلى الأفق الأرجوانى من نافذته المعلاقة حيث غربت منان الشموس وقال لشخصه فى يأس :

ـ « يا لها من مزحة كافرة ! »

* * *

اختفى لسنوات وصات المشروع وبين الحين والآخر يتساءل أحدهم عن مصيره ، فيقول البعض أنه قد فسد كأى آلة لهذا توقفت الإشارات التى كان يرسلها بانتظام حتى توقف المختصون عن متابعتها ، وتولى ابن القائد مقاليد الحكم بعد شيخوخة الأب، فبدأ نظامًا جديدًا انتهى حل المجلس الأعلى وتحكيم كبير العلماء كأول الاستشاريين بدلًا من الشيخ (زبير) الذى اعتزل مع قلة من تلامذته وسكن الخلاء حيث ساله أحدهم وهم فى جوف جبل عن حكمة ما آلت إليه تصاريف القدر، فأجاب وفى عينيه بريق مطفأ :

ـ « البحث عن الجوهر يقتضى أن تصل والبحث عن الحق يقتضى بأن تتصل ، أما الحقيقة فمن غيرتها على أصحابها هى قاطعة من وصلها، واصلة من قطعها » .

* * *

وجاء من أقصى الغابة رجل يسعى وسعه نبأ غريب ، كان صديقًا لخادم تم طرده من برج المهندسين ، يقول إن (شكسبير) يحيا مع الأكابر والسادة ، إنه حى كبشر ، وتزوج من البشر ، وهو ممن يشار إليهم بالبنان .

تفجر الحماس فى قلب الشاعر فأنشد سوناتا هائلة تقترح أن شكسبير قد عثر على الجوهرة المقدسة وعرف أنها هى قلبه وتمكّن من وضعها فى المكان الصحيح بصدره فشبع بالحياة (بالخلود ؟)

لكن دولة العلم التى أقامها القائد الابن حظرت التفوّه بهذه الخزعبلات واعتبرت من يشيع ذلك بين من الناس هو من الخوارج المارقين .

قالوا إن برج المهندسين قد تحوّل إلى قلعة للعازفين والرسّامين بعد أن قل اهتمامهم هناك بالتجهيز العسكرى ، تبدّل مدفعش عزاه الشاعر (وهو مخمور فى جلسة سرية) إلى شكسبير ، تغيّر عجيب دفع القائد لفكرة مجنونة بغزو البرج وأبقى جميع مستشاريه بأنها نهاية دولتنا .

أما الحادث العجيب فهو خبر حنين شكسبير المفاجئ إلى أهله ومنعه هناك من العودة من ثم تسلّل سرًا ليأخذ درب الرجوع بين الغابات والقرى ، أما هنا فلم يكن هناك مخلوق فى استقباله .

اللهم إلا شاب من مريدى الشيخ (زبير) فهم الدرس ووعاه ، لكنه فر من خلوة الجبل فى ليلة ثلجية عاصفة ، وبالبحث والاجتهاد والتخفى عن أعين الرقباء عثر على جسد شكسبير مطمورًا بالثلج . فأحضره إلى مكان اجتماعنا الخفى .

* * *

عندما سقطت الثلوج الأولى لم يعد يرى ، أشعلنا له المدفأة ورأينا النساء يجلسن بقربها يقرأن . وعندما سقطت الثلوج الثانية والثالثة ، لم يعد فى إمكان شكسبير أن يحرك أصابعه .

* * *

تحت سطح البحيرة

فى القرن الأول الميلادى كانت المرتفعات الشمالية في أسكتلندا مسكونة بقبائل متوحشة يطلقون عليها الملونين لأنهم كانوا دائمًا ما يضعون وشمًا هائلًا على أجسادهم ، كان ذلك فى الوقت الذى وصل إليهم فيه الرومان ، هذه القبائل كانت تعيد الحيوانات وترسم صورها على جلود الوجه والبطن ، كانوا محترفين بالرسم كذلك ! إذ وجد الرومان هناك لوحات جدارية بالكامل أغربها كان للوحش الغريب !.. وحش لوخ نيس ! هى بحيرة نيس والرسم كان لوحش أسطورى له زعانف مكان الأقدام ، كما أن لديه خرطومًا طويلًا يتدلى من أنفه ، حتى إن بعضهم قال إنه ليس إلا فيلًا يسبح فى البحيرة !

ويبدو أن قبائل الإسكتلنديين القدامى كانت مغرمة بفكرة الحيوانات الغرائبية السابحة في المسطحات المائية ، فهم لم يتركوا نهرًا أو بحرًا دون أن يذكروا له وحشه الخاص بدءًا من أسطورة فرس الماء (كيلبى) والتى تتكلم عن مخلوق هائل شبيه بالحصان يسكن النهر ويحاول إغراق كل من يحاول الاقتراب ، غالبًا ما يكون هؤلاء الضحايا ثم من الأطفال فهو يتودد إليهم محاولًا إغراءهم بالركوب على ظهره ، ومن تلتصق أيدى الطفل بالوحش الذى يقوص به إلى أعماق الماء حتى يموت غرقًا .

أما وحش لوخ نس فقد ورد ذكره للمرة الأولى فى يوميات القديس «كولومبا» عام ٥٦٥ ق.م وكان من أوائل من نادى بالديانة المسيحية فى أسكتلندا يروى هذا القديس أنه كان فى طريقه لزيارة زعيم قبائل الملونين عابرًا ببحيرة لوخ نس ، فرأى وحشًا عملاق الحجم يوشك على الفتك بشخص يسبح بالبحيرة ،

فأخذ القديس يتضرع إلى الله ويأمر الوحش بأن يذهب إلى حاله ، فامتثل الوحش له وفر السابح .

إلا أن البداية المعاصرة لأسطورة وحش لوخ نس تبدأ مع عام ١٩٣٣ عندما تم إعداد أول طريق شمالي عند شاطئ البحيرة . وفيها بدأت المشاهدات العجيبة في شهر أبريل على وجه الدقة، عندما لاحظ «جون ماكي» ـ صاحب فندق «رمنادروشيت» ـ وزوجته كائنًا ضخمًا يطفو ويغطس فوق سطح البحيرة. تلك الواقعة نشرت وقتها في صحيفة (انفرنس كورير) وكانت أول من استخدم لفظة وحش لوصف هذا الكائن .

بعد نشر هذا الخبر تحول لوخ نس إلى نجم ! ففي شهر أكتوبر من العام نفسه صارت اسكتلندا قبلة للإعلاميين والصحفيين الوافدين من لندن لسبر أغوار الوحش الغامض ، حتى أن سيرك «برايتون» الإنجليزي أعلن عن مكافأة مقدارها مبلغ ٢٠،٠٠٠ جنيه إسترليني (وهو مبلغ رهيب في عام ١٩٣٣) لمن يتمكن من القبض على هذا الوحش . وبلغ الهوس مداه في ديسمبر من نفس العام ، عندما طلبت جريدة «ديلي ميل» صيادًا محترفًا ـ «مارمادوك ويزريل» ـ لقنص الوحش الذي حير الجميع ، وأعلن «ويزريل» اكتشافه لآثار أقدام بالغة الكبر لكائن ذي أربع أصابع ، بعدها صنع هذا الصياد قالبًا من المطيط لأقدام الوحش وأرسله إلى متحف التاريخ الطبيعي بلندن لمقارنتها بما لديهم في مراجع الحيوانات المنقرضة، وأثناء انتظار نتيجة البحث احتشدت المنطقة المحيطة بالبحيرة بالسياح ومطاردي الشهرة والصحفيين . ولكن لخيبة أمل الجميع، جاءت نتائج البحث الذي أجراه عدد من العلماء تعلن أن آثار الأقدام التي أرسلها «ويزريل» مصطنعة! ولا تنطبق على أية آثار لحيوان منقرض .

وهكذا عاد الجميع خائبين إلى الديار .

لكن موضوع الوحش عاد من جديد مع الباحث المتحمس «روبرت توماس جوده» الذى مسح قناة كاليدونا بالموجات الصوتية (السونار) ليكتب ثانى أهم كتاب عنه (الوحش : الأسطورة الجديدة) عام ١٩٧٤ والذى رصد فيه ٥١ رؤية للوحش مع تحليل تلك الرؤى لإثبات وجود الوحش . ثم جاءت الطبيبة «كونستانس وايت» التى اتخذت منحنى جديدًا فى البحث إذ بدأت بجمع المشاهدات من الأشخاص الذين رأوا الوحش وتدوين الملاحظات الخاصة ومقارنتها ببعضها ثم كتبت عنه كتابها المهم «ليس مجرد أسطورة» . وكانت هى من أطلق عليه اسم التدليل الذى ظل يرافقه حتى يومنا هذا.. .(نيسى) !

بعد ذلك ظلت الصور تنهال على الصحف من التى التقطها المصطافين وأهل البلدة للوحش ، وبالطبع كان أكثرها ملفقًا أو غير واضح بشكل كافٍ وربما الوحيدة منها التى يمكن الثقة فى مصدرها هى التى التقطها الجراح البريطانى «كيت ويلسون» .. هذه هى الصورة (المعتمدة) الوحيدة لوحش لوخ نيس هى التى تراها فى كل كتاب وكل مجلة تتحدث عنه أو فى أى موقع على شبكة الإنترنت يناقش مسألة هذا الكائن الغامض ، ويظهر فيها الوحش يرتفع من سطح البحيرة برقبته العديمة عند الرأس وعلى كل حال فقد حاولت أكثر من جريدة التشكيك فى دقة الصورة التى تم تسميتها (صورة الجراح) !

كانت آخر المحاولات لكشف حقيقة هذا الوحش هى التى أجرتها محطة «بى بى سى» عام ٢٠٠٢ عندما مسحت البحيرة بالسونار وبأجهزة أخرى أكثر تطورًا من تلك التى تم استخدامها فى عام ١٩٣٣ وكانت النتيجة المعتادة : لا أثر !

إلا أنه وحتى هذه اللحظة يعلن أحدهم من وقت لآخر أنه رآه وأنه قد التقط له صورة كذلك ، ولكن .. تظل الحقيقة متوارية مع الوحش المجهول تحت سطح البحيرة !

* * *

المقبرة

مترجمة عن قصة لـ . هـ . ف . لافكرافت

كيف أحكى لك قصتى وأنا فى مثل هذه الحالة الصحية ؟ بالطبع سوف تشك فى صحة أقوالى ، لاسيما وأنا محتجز فى مصحة الأمراض العقلية ! إنه لواقع مؤلم حقًا أن أكثر البشر ذوى عقلية محدودة الذكاء وبصيرة فقيرة تجعلهم يحكمون على الأمور بدقة وصبر . الأمور التى أعنيها هى الظواهر التى لا تراها وتحس بها سوى قلة من مرهفى الحس ومفرطى النزعة النفسية. الرجال الأكثر وعيًا وثقافة يعلمون أنه لا حد بيّن بين الحقيقى وغير الحقيقى، وأن الظواهر لا تبدو كذلك إلا من خلال إدراكنا ، لكن الفكر المادى الغالب يجعلهم يرون وجهات النظر الثاقبة للحجب ضربًا من الجنون .

أنا (جيرفاس دودلى) ، تملكتنى الرؤى العالمة منذ السنوات الأولى للطفولة، كان لدى المال فوق ما أحتاجه وزيادة ، ولم أكن ذا مزاج يمكننى من متابعة نظام دراسى واحد أو الانخراط فى حياة اجتماعية عادية . لقد أمضيت [illegible] صباى وسن مراهقتى مع كتب قديمة من مصادر مجهولة وأنا أهيم على وجهى فى الحقول قرب مسكنى ، يخيل إلى أننى لم أر أو أقرأ فى هذه الكتب ما لا تدركه أبصار الرايى يرون ويقرءون . على أية حال لا ينبغى أن أصرح أكثر ، لأن ذلك من شأنه أنه يثير فى الأذهان من جديد الشك فى قوى العقلية ، حسبى أن أقص عليكم ما حدث ولا أحاول تفسيره .

قلت أنني عشت في ركن قصي عن العالم المرئي . لكني لم أقل أنني عشت وحيدًا . فما من مخلوق قادر على هذا . وبجوار بيتي يوجد واد منجر استطعت أن أجوب ظلماته ، أفكر وأتخيل وأحلم . نزلت على منحدراته ووضعت خطواتي الأولى طفلًا وترعرعت أحلام صباي . رأيت جنبات الحدائق وتأملتهن في رفصاتهن الحميمة بين الأشجار ، مع الحوريات تحت أشعة القمر الباهتة . لكني لا أتكلم عن الوادي أو الجنيات أو الحوريات ، بل عن قبر (هيدز) المتواجد في ظلمات الأشجار ، المهجور المشهور لأسرة عريقة مات آخر أحفادها قبل مولدي بدهور .

من جرانيت عتيق هو ، حال لونه بفعل الرطوبة والبخار على مر السنين . مقر في جانب الجبل بحيث لا تراه إلا من مدخل الباب هو قطعة من الحجر تحرك بمفصلات قديمة صدئة ، قد أبقى نصفه مفتوحًا في موضعه بجنازير حديدية عملاقة كما جرت العادة منذ نصف قرن . دمرت عاصفة قمة الضريح منذ أعوام وأعوام ، ولهذا تسمع الناس يتهامسون عن غضب الرب ، مما أشعل حماسي وأثار فضولي لمعرفة ساكن القبر . آخر أحفاد (هيدز) الذي جاءت بقاياه من مكان قصي ، فلم يبق من بضع أزهارًا على المقبرة ولا يجرؤ أحدهم على اجتياز الدغل المظلم الذي يحيط بهذه الصخور . ولن أنسى عصر ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه وجود بيت الموت هذا في منتصف الصيف عندما صارت الغابات كلها كيان واحد من الأخضر العظيم . في جو كهذا يفقد العقل حكمه السليم ويصبح المكان والزمان أوهامًا . كنت في الوادي المقيم أهيم ، أتجول في رياضه الغامضة ، أتحاور مع أشياء لا أذكرها وأضحك لدعابات لم يقلها أحد ، كنت أمشي بين صفين من الأشجار عندما وجدت نفسي أمام

القبر . لم أعرف ما هو . كانت هناك أجزاء جيرانيتية ذات نقوش جنائزية مقوسة ، لكن الخوف لم يهاجمني ولم أشعر بقلق أو توجس ، بل سيطر على الفضول المطلق ، ذلك النداء المجهول يخبرك أن تجتاز العمر وتعبر العمر رغم الجنازير التي توصده ، فحاولت حشر جسدي بلا جدوى في الشق . وعدت للمدار بخفي حنين لكني أقسمت أن أعود ومعي طريقة لاجتياز العمر سلبيًا نداء الظلمات . والآن يقول الطبيب ذا اللحية الرمادية الذي يزورني يوميًا في غرفتي إن هذا القرار يعكس هذيانًا وميلًا قاسيًا للتوحد ، لكني سأترك هذا القرار الأخير .

فيما بعد حاولت اختيار المدخل سرًا . ورغم سني الصغير قلم يدهشني طبيعة الاكتشاف . كنت أقف بالساعات كل يوم حيال هذا الباب أمام ما يبدو أنه درجات رطبة تقود لأسفل . رائحة المكان مقززة لكنها ساحرة رغم هذا . الهواء وشعور الحميمة كأنني أعرف المكان من زمن سحيق . ورحت أرمق القبر عامًا بعد عام . وفي هذا الوقت كنت أقرأ أسطورة تيذيوس وعن الصخرة الضخمة التي كان يرزح تحتها البطل ـ ليجد وهو طفل ـ قدره إذا تمكن من رفعها . هذا حفزني وأقنعني بأنني سأكتسب طاقة عبقرية تمكنني من فتح الباب فورًا مما جعل الفكرة تزداد إغراءً ، خاصة بعد أن عرفت أن ثمة صلة قربى بعيدة ضعيفة بين أمي وتلك الأسرة اليائدة . وبما أنني آخر نسل أسرتي ، فلا أحد أخر من أحمل دم هذه الأسرة الفانية . هذا جعلني أشعر وكأن القبر قبري إذا سيطر على حلم العبور واجتياز حجب الظلام فوق الدرجات الرطبة وفي قبل الأحراش وأصبح القبر مكاني الخاص والباب بابي . هنا جننت وأحلام عمري العجيبة !

جاءتني الرؤيا الأولى في ليلة شديدة الحرارة . لم أغف إلا من الإرهاق . إلا إنني سمعت أصواتًا وأنا بين اليقظة والمنام . لهجات غريبة ونطق أغرب ومصطلحات بلا تفسير كأنني أسمع الإنجليزية بكل لهجاتها منذ المستعمرات البريطانية . وأيضًا ظهر شيء غريب . ظاهرة فريدة لا أعرف كيف أصفها . عندما نبهت أن ضوءًا كان في المقبرة وقد أطفأه أحدهم بسرعة . لم أصب بالرعب . لأنني كنت قد تغيرت كثيرًا في هذه الليلة . عندما عدت للبيت أخرجت المفتاح من الصندوق العتيق في العلبة . وتمكنت في اليوم التالي من فتح الحاجز الذي ظل عصيًا لدهور .

دخلت القبو المهجور في ضوء العصر الناعس كالمسحور ووجيب قلبي يكاد يكون مسموعًا . أغلقت الباب خلفي ونزلت الدرج على ضوء شمعة وكأنني أعرف الطريق مسبقًا . الشمعة تترقرق بسبب الأبخرة الكبريتية . لكنني رغم ذلك شعرت بالألفة . الألواح منصوبة وعليها بقايا توابيت . البعض مغلق وسليم والبعض كان أثرًا بعد حين تساقطت مقابضها الفضية في التراب . وعلى لوحة ابن اسم السير (جيفري هايد) الذي جاء من سوسكس عام ١٦٤٠ ودفن هنا . هناك تابوت فارغ بلا جثة . لكني قرأت الاسم المكتوب وارتعدت فرائصي . أخرج بداخلي شعور من الخوف والغرابة . فلسبب غير واضح أمامي وجدتني أصعد في هذا التابوت .

غادرت القبو فجرًا وأحكمت إغلاق بابه خلفي، ومر ٢١ غريف نيبس فيها ليلى فتأملني الفلاحون في دهشة وأنا أهرب سريعًا . ما إن استيقظ حتى أنتظر الفجر كل ليلة لأسمع وأشاهد وأقوم بأفاعيل لا أذكرها . وكان أول ما تغير

هو كلامى . تغيرات خفيفة فى البداية ، وقد لاحظ القوم أننى أستخدم كلمات عتيقة منقرضة للغة منسية . وبدأت أتصرف بطيش ونزق وصار سلوكى جريئا أكثر من اللازم وأصبحت ذا دراية واسعة كراهب شاب وملئت صفحات كتبى بأفكار بارعة من العصر القوطى وذات صباح رحت أهذى بصوت على الإفطار بشعر يقول :

مرحى يخيوط الشمس يا رفاق
خيط قلادتها بين إسار الغيوم
أطلقوا الكؤوس وهيا نركض معًا
فوق زبر صافية
نتانق ونتألق فى لحظة سامية
اقعموا الحواس فى صحتكم
كيف لو يصيح هذا الخطو ذكرى ؟
كلما غابت خلائق
جاءت الريح بأخرى
وماذا لو قتل الملك حسناواتكم ؟
ماذا لو رميت فى حجرك بكل الأسئلة ؟
أفضل أن أكون شاعرًا رجيمًا
على أن أكون وديعًا مينًا
فحنانيك يا فاتنتى !
حنانيك !

قلت هذا بلهجة شعراء قرون ماضية كأنني في حانة ، ولم أكن أبالي بهذا، وأصبحت أخشى الرعد والعواصف وأختبئ في ركن بعيد بالمنزل والسماء ترسل لعناتها الكهربية ، كانت صورة البيت العظيم يحترق في العاصفة . وأخيرًا جاءت اللحظة التي خشيتها كثيرًا .

لقد بدأ أبواي يقلقان من اختفاء ابنهما المتكرر وبدأ يتقصيان الأمر مما كاد يتسبب في فضيحة . لم أخبر أحدًا بشيء عن المقبرة وحفظت السر في صدري منذ صباي لكنني يجب أن أتحلى بالمزيد من الحذر الآن فلا أترك خلفي أثرًا أثناء سيري بين الأشجار مادام أهلي يتجسسون علي . كنت أعلق المفتاح في سلسلة على صدري ولم آخذ معي أي شيء أجده في المقبرة . وغادرت المقبرة مرة والسلسلة ترتجف في يدي حيث شعرت بمن يراقبني بين الأجمة . أيقنت أنها النهاية ، لقد انكشف أمري وعرفوا مكاني السري وانفضحت جولاتي الليلية . لم يباغتني أحدهم بكلام فرأيت أمامي المجال لأركض عائدًا للدار كي أعرف ما سيقولونه عني لأبي الذي أرسل جاسوسه . سوف تعرف الدنيا كلها قصة تسللي الليلي للمقبرة الخطيرة . تصور أنني سوف أسمع الجاسوس يهمس في أذن أبي أنه ما ترك باب القبر وهو يحرسني بالخارج ؟! أحتاج إلى معجزة لأظفر بالنجاة . لقد نلت المعجزة فعلًا من قبل فأنقذتني قوة خرافية ، هذا الخاطر أهمني شجاعة وأكسبني جرأة فبدأت أعود للقبو خفيًا عن الأنظار . ظللت طوال أسبوع كامل أنعم بهذه المتعة المختلفة عندما حدث الشيء .. فلا كتب علي أن أنتقل إلى عالم كتيب ممل . فما كان يجب أن أجرب في هذه الليلة ، لأن الرعد كان بين السحب وثمة ضوء فوسفوري جهنمي ينبعث من المستقع المدفون في قرار الغابة . كنداء الموتى . وضوء القمر يشع على

الغرائب قرب الغابة ويضفي غموضًا على البيت . البيت الذي فني منذ دهر يعود منتصبًا للعيان من جديد .

الشموع تزخم النوافذ ، وعربات تجرها الخيول تندفع على الطريق وإلى المجتمع الارستقراطي يتجمعون عند المدخل . هل كنت مضيفًا لم يحضر الضيوف ؟ لم أعرف . وفي القاعة موسيقى وثرثرة وضحك وخمر نمتاً الكؤوس عرفت بعض الوجوه . أكثر أصحابها شبعوا موتًا . زهو مرح سري في عروقي . أنا المجنون الأعزل . وفجأة دوى الرعد يفوق صوت السادة المعربدين . فر السطح فأجفلت الأبدان . ألسنة اللهب البرتقالية تلتهم البيت وصرخات كثيرة انطلقت من أرجائه . فر الجميع واختفوا في الليل الحالك . وبقيت وحدي كالمشلول في مقعدي مسلوب الإرادة . واحتل رعب من طراز جديد عظمي وسلب لبي ؛ لو احترقت وصرت رمادًا فكيف أرقد في قبر آل (هايد) ! في تابوتي ؟ في مكاني الطبيعي بين نسل سير (جيفري هايد) . لسوف يطأ (جيرفاس هايد) ـ أنا ـ بحقه في المقبرة !! وغاب الدخان والنار وشبح البيت المحترق ووجدتني أصرخ بين ذراعي الجاسوس الذي كشف سر قبري بأشعاع برق يسطع في الأفق الذي غطاه المطر . بينما أبي يمسح وجه من الخزي وأنا أصرخ مطالبًا بحقي في التابوت . وكان يطلب منهم أن يرتدوا وكان الفلاحون قد تجمعوا يحملون الفوانيس يتلصصون ويحيطون بصندوق أثري بان تحت أشعة البرق . توقفت عن المقاومة والتملص وأنا أشاهدهم يفتحون الصندوق الذي دمرت ضربة برق أقفاله فرأيناه مملوءًا بثياب وأوراق قديمة لكن عيني كانت تبحث عن شيء بعينه ؛ تمثال خزفي صغير لكلب أبيض عليه حرفي (ج. هـ) ويحمل وجهي .

في اليوم التالي وضعوني في هذه الغرفة ذات القضبان على النوافذ وأوصوا خادم عجوز برعايتي . أما ما استطعت أن أحكيه عن زياراتي الليلية للقبر فلم يجب سوى الشفقة . ولم ينقطع أبي عن زيارتي وقال لي ذات مرة أنني لم أعبر الجنزير على الباب قط وأقسم أن القفل الصدئ ظل سليمًا كما هو . قال إن الفلاحين يعرفون بأمر زيارتي الليلية ولكني كنت أنام كل ليلة في التكعيبة. فماذا أقول وقد ضاع مفتاحي في الظلام في صراع الليلة السابقة ؟ ماذا أقول وأبي يصر على أنها هلاوس بسبب قراءاتي الكثيرة في مكتبة الدار ؟ لكن خادمي العجوز (حيرام) هو من كان يثق بي بينهم وهو الذي فعل الشيء الذي جعلني أكتب هذه القصة الآن ؛ فمنذ أسبوع قفل المقبرة ونزل بفانوسه للقاع وعلى لوح جرانيتي وجد تابوتًا مفتوحًا بلا جثة عليه كلمة (جيرفاس) . وعدوني أن أدفن في هذا التابوت .

انتهت بحمد الله . تم حذف الكثير من التجديف في حق الديانة المسيحية، والقصيدة الواردة من نظم المترجم . ه . ح)

* * *

لعنة فاوست

سوف تدخل معي الآن بيت الشاعر الألماني العظيم (يوهان فون جيته). هذا البيت قد أهداه له الدوق (كارى أوجست) والواقع أنه قد تم إعادة بنائه بعد أن تهدم فى الحرب عام ١٩٤٢ وفى هذا البيت سوف ترى لوازم الفنان وأدوات الشاعر العلهم : زجاجات صغيرة، سوائل ، عظام أسماك ، ثمرات ورقية مخصصة لإجراء التجارب المتعلقة بعلم الألوان والأدوات الجهنمية ذات الطابع الشيطانى التى صاحبته أثناء رحلة كتابة ملحمته الشهيرة : (فاوست) ! وصفحة مفتوحة من يومياته كتب فيها : «فى الصباح انتقيت من المقطوعة الرابعة وأرسلتها للنسخ . قرأت (فروستموزلر) عن أنواع الحشرات . تجارب فى الكهربية الجلفانية . فى المساء مع (شيلر) : أثر العقل والطبيعة فى سلوك البشر . ثم فى الصباح المبكر صححت قصيدتى . قمت بعمل تشريحات للضفدع استراحة فى الصباح فى حديقة شيلر الجديدة . تحدثنا عن تخطيطها .. وقبل ذلك أعدت النظر فى المقطوعتين الأولى والثانية . فى الصباح وضعت جدولاً للألوان » نعم . ما وصلك من هذا الجدول اليومى لحياته يؤكد لك أنه كان عالمًا وفنانًا بجانب كونه أديبًا ، حتى إن بعض رفاقه قد لاموه على أنه لا يمنح من وقته لأدبه ، فأجاب : «إن من حقى أن أعنى بشخصيتى وهى أكبر من أدبى ! » (جيته) الفنان و(جيته) الأديب و(جيته) العالم لا يهديك الطريق لتصبح مبدعًا، بل يعلمك منهجًا مثاليًا للحياة .. كان مثل (ليوناردو دافنشى) يمارس الفلسفة والنحت والرسم والهندسة ، يضع رسومًا وأفكارًا لمخترعات سبق معظمها عصر . ووضع نظريات فى الهندسة والمعمار وتصنيفات فى الجيولوجيا وكتب فى الرياضة والشعر والفن .

كتب (جيته) ملحمته الرومانسية (آلام فرتر) التي كانت سببًا في انتحار عدد لا بأس به من الشبان الألمان عند نشرها .. وملحمته الكابوسية (فاوست) عن الرجل الذي باع روحه للشيطان وغير ذلك كتب (محمد) و(أجمونت) و(الفارس ذو اليد الحديدية) و(يدوات العشق) و(فيلهلم ميستر) و(أجانون) و(فرمان ودورتيه) وذكرياته التي كتبها تحت عنوان (الشعر والحقيقة) .. وعن اهتماماته المتعددة في الأدب والفيزياء وعلم النفس وقوانين الوراثة يقول : « إن أعظم ما يصبو إليه المرء هو أن يهتدي إلى قانون شامل عام ننتظم به التغيرات والاستحالات في الجماد والنبات والحيوان والإنسان » لقد كان يؤدي التخصص ويعتبر الحياة فلسفية يجب أن تتغذى بالثقافة ومختلف العلوم وأن الحقيقة الأولى في هذا العالم هي التغير والاستحالة كما هو شأن الطبيعة من لدن الأزل (جيته) علمنا أن نقرأ كل شيء وأن نجرب كل شيء وأن نمارس الحب والسياسة وأن نختلط بالمجتمع وأن نعرف كل شيء . هل تعرف كم من الوقت استهلك لإنتاج (فاوست) ؟.. ستون عامًا !!.. بدأ (جيته) يضع أساسيات الجزء الأول منها في عام ١٧٧٠ ثم ترك هذه اللبنة الأولى وكان يعود إليها فقط بين الحين والآخر عندما يسقط عليه الوحي ، فلم يفرغ من هذا الجزء إلا في عام ١٨٠٦ ، ثم نشر الجزء الثاني في عام ١٨٣٢ .

(بدأ ملحمة (فاوست) بمشهد سماوي تتناقش فيه الملائكة حول مسألة وجود الإنسان ، يتميز بينهم (جبريل) و(ميكائيل) و(روفائيل) و(مفيستوفوليس) (هو الشيطان) شخصيًا !.. كل الملائكة تسبح بحمد الله وقدرته وحكمته ، له (إبليس) ـ (مفيستو) ـ هو الذي عصى واستكبر ورفض أن يكون لابن لم المخلوق من طين تلك المنزلة عند الله ودعا عليه باللعنات وراهن على

حقارة الإنسان ودناءته و .. ولكنه لا يستطيع أن يبرهن على هذا ما دام فهم الرجل الطيب الورع : الدكتور (فاوست) ! هذا الرجل هو (جيته) في الرواية .. إنه رجل يعيش بين كتبه ودراساته يعمل بالعلم والتعليم يبحث وراء النجوم والأفلاك ويحاول سبر أغوار الطبيعة فاضطرب يقينه بالشكوك مرارًا .. وهذا هو السبب الأساسي في الجدال الدائر على صفحة السماء .. فالبعض يرى أن الدكتور (فاوست) رجل مؤمن وهو يحاول أن يتقرب أكثر إلى الله رغم شكوك، بينما يؤكد الجانب الآخر – ويمكن (مفيستو) بالطبع – أن (فاوست) قد كفر أو هو على وشك أن يكفر وأن تزل قدمه ، وأنه لمن الهين أن ينقله من الخير إلى الفسوق في لحظة ، ووعد الملائكة بأن يوسوس لـ (فاوست) ويلقيه في الهاوية ويثبت لهم أن ما يفصل بين الخطيئة العظيمة والفضيلة العظيمة مجرد شعرة رفيعة ليس إلا ! وعندما يكون العالم البار د. (فاوست) جالسًا بين صفحات كتبه ينزل (مفيستو) إلى الأرض حيث كان هذا الأول حائرًا وسط شكوكه وبعده عن اليقين ولم يصل بعد إلى قلب الحقيقة ، ويتلبس (مفيستو) في زي عالم من علماء الجامعة ويدخل على (فاوست) في مكتبه يتساءل أيهما كان في البدء : الكلمة أم الروح ! ويتحدث (فاوست) إلى (مفيستو فوليس) ويعرف منه حقيقته المرعبة : أنه جاء إليه زائرًا من عالم الجحيم العلوي ، لكن هذه الجذاب يشده فيتفق على أن يكون هذا الحديث هو الأول بينهما وأن يتكرر مرارًا . ويسر (فاوست) بفترة عنيفة من الصراع الداخلي المدمر ويتحول إلى إنسان سوداوي المزاج ، يائس ، محبط ، لا يعرف للحياة لونًا واضحًا ، نفسه حائرة وذهنه مشتت ، يتأمل في كل شيء لكنه لا يهتدي إلى الحقيقة . والأمل جاء مع (مفيستو) الذي يدعو إلى أن يتخلى عن هذه التعاسة :

ـ « إن الحياة مليئة بالمباهج والمسرات، ويمكنك أن تنعم بأطايب الحياة » .

ـ « ولكن كيف ؟.. »

ـ « لا تشغل بالك بهذا الأمر .. إنني صديقك المقرب ونديمك الأمين . دعني أرشدك إلى كل ما في الحياة من متع وملذات . إنني خادمك ورهن إشارتك » .

وقبل أن يسعد (فاوست) بهذا العرض يقدم له (مفيستو) شرطه الوحيد .

ـ « أن أكون خادمًا لك على الأرض، أطيعك طاعة عمياء ، وألبي لك كل إشارة مهما كانت تافهة ، ولكن حين تكون في العالم الآخر يجب أن ترد إلي الجميل » ، ويكتبها وثيقة بهذا الكلام وبوقعها (فاوست) راضٍ ويعيشه حياة جديدة يغوص في ملذات الحياة ومتعتها !

ويذهب (مفيستو) برفيقه (فاوست) إلى حان (أوربا) في مدينة (ليبزج) حيث لا ينقطع المجون وهناك يقوده إلى مطبخ الساحرات ليعرضن عليه بعض ألعابهن ، لكن (فاوست) لا يأبه بهذا غير أنهم يسحرن قلبه بحب فتاة ذات جمال بديع لم ير من هي أكثر بهاء منها ويتعلق بها وجدانه ويصبح هدفه الوحيد هو أن يمتلكها . فماذا يفعل (مفيستو) إذا ؟ ألم يبرمًا معًا اتفاقًا يقضي بأن يلبي له كل رغائبه ؟!.. حسنًا يا دكتور (فاوست) سوف تمتلك جسد وروح (مارجريت) وسوف تعرف من اللذة ما لم تعرفه من قبل ..

وعندما يهبط الليل يقتاد (مفيستو) صاحبه إلى حجرة (مارجريت) ويختبئان حيث لا يمكن أن تراهما الفتاة التي تدخل وفي يدها سراج وتبدأ في خلع ملابسها وهي تغني وما أن تفتح دولابها حتى تجد هوية من (فاوست) وهي

فستان جديد وقرط وسلسلة من الذهب !! ويلتقى العاشقان وتسلم له نفسها في الحديقة ويمارس معها الحب وتحمل منه سفاحًا وهنا تبدأ الفصول السوداء لمأساة (فاوست) !

فبينما يراقص (فاوست) الفتيات الجميلات في عيد الربيع حيث يرافقه (مفيستو فوليس) يلمح فتاة شاحبة الوجه بائسة تقف وحدها في ركن بعيد تتحرك ولكن ببطء بسبب قيود حديدية في قدميها ..

هل هي (مرجريت) ؟!! إنها تشبهها إلى حد كبير .

وعندما رأى نظرة العتاب واللوم في عينيها أيقن إنها هي (مرجريت) .. لكنها ليست حية .. إنها جثة تمشي على قدمين .. على رقبتها شريط أحمر من حد سكين .. إنها السكين التي أعدمت بها لأنها قتلت ابن الحرام الذي أنجبته من (فاوست) .. ويهتف (فاوست) بشيطانه : « لابد من إنقاذها يا (مفيستو) ! »

ولكن هذا الكلام لا يروق لإبليس .. فما معنى أن يستيقظ ضمير (فاوست) الآن ؟ هذا لا يسير في نهج الخطة التي وضعها لتكفيره .. فإنه إذا علا إلى (مارجريت) وأنقذها من مصيرها التعس لكفر عن خطيئته ولأصبح من الأبرار ولخسر (مفيستو) الرهان ! فيهتف به (مفيستو) : « يا لكم من أغبياء أيها البشر إنكم لا تزالوا ترسفون في الأغلال التي تشدكم إلى هذه الحياة .. تسألون نحن الشياطين أن نرفعكم إلى سماء فوق الحب والعطف والضمير وكل هذه العواطف الحمقاء . ولكن ما أن تسمو روحكم درجة أو درجتين حتى تحنون من جديد إلى طباع جنسكم الحقير وتعودون إلى حياتكم الوضيعة مرة أخرى » .

ويسقط فى يد (فاوست) ولا يملك إلا أن ينفذ العقد المبرم ، إن إبليس يقوده إلى القصر الإمبراطورى حيث يجلس الإمبراطور فى قاعة العرش مع حاشيته وبين الحكمة والوزراء والقادة يجلس (مفيستو) الذى لا ينصح إلا بالمنكر !

يبدد الإمبراطور أموال الشعب ويفسد وزير المالية بالتالى ويجوع الناس وتنتشر الفتنة وتصل إلى جنبات القصر !

يقدم إليهم (مفيستو) النصيحة : « إن رجال الدولة يريدون إصلاح ميزانيتها، فهم إذن يبحثون عن موارد جديدة ، الذهب والفضة متوفران ، ولكن المشكلة الحقيقية هى فى سبيل الحصول عليها . إن قلب الأرض يزخر بالكنوز والمعادن الغالية والجواهر النفيسة ، والأرض ملك الشعب والشعب ملك الإمبراطور ، فكل ما يحتويه بطن الأرض إذن هو من حق الإمبراطور ، إذن فلتعمل كافة أفراد الشعب فى التنقيب عن الكنوز ويمضى الإمبراطور فى الاستمتاع بملذاته ، إلى أن تنفك الكربة ويغتنى الجميع ! »

ولكن هذه النظرية الاقتصادية العبقرية تحتاج إلى رجل مهول العلم لتنفذها .. فهل هنا غير (فاوست) ؟!.. ويعين الإمبراطور (فاوست) حارسًا على خزائن الإمبراطورية وحامل مفاتيحها ومتولى الشئون المالية فيها .. وهكذا يظهر إليه (مفيستو) وعلى وجهه ابتسامة ظفر :

- « لقد وعدتك بكل ما فى العالم من ملذات .. ولقد وفيت بوعدى .. الآن لم يبق أمامك إلا شىء واحد .. »

- « ماذا؟ »

ـ ، أن تجرب أن تخلق الخلائق ! ! ،

وهكذا علمه (مفيستو) العلم المحظور وجعله ينشئ معملاً كيميائياً مل بالأنابيب والدوارق والمساحيق والأحماض والعناصر والمواد وكل شيء في سبيل خلق الإنسان وينجح في ذلك ! ! ويتنظر (فاوست) النهاية في منتصف الليل حيث تنتهي مدة العقد بينه وبين إبليس .. في هذه الساعة يجب أن يحقق أيضًا شرطه وينفذ الجزء المخصص له من العقد وأن يتبع إبليس في الحياة الأخرى في العالم الآخر !

يموت (فاوست) ويحمل إلى قبره وتصعد روحه إلى الجحيم حيث تلتهمها النيران الربانية ! ولكن سرعان ما تنزل طائفة من الملائكة من السماء لتنثر الورد والغفران على قبره فترتجف الشياطين عن عطور الملائكة .. تصعد روح (فاوست) إلى الجنة .. ويسأل (مفيستو) عن السر العجيب الذي جعل الملائكة تنتزع (فاوست) من قبضته الأبالسة يجيبونه بأن للحب يد تشفي جميع الذنوب.. هذا الحب بعضه على الأرض .. وكله في السماء .. وتتجلى قدرة الله في كل شيء .

* * *

طقوس

(قصة قصيرة)

الرفاق

قرأ الإعلان بالصدفة أو كان يبحث عنه . إنها مجموعة لتدريس العلوم الروحانية . خرافات ؟ ربما . لكن هذه الخرافات هى حصن الرجل البيض الخيالى الذى يتحول واقعه إلى أوهام . وحتى لا يُجن يجب أن يمسك الهواء ويقبض على الحلم ويخلق من الدخان قوة مسيطرة . قارن بين حاله وهو يسمع الالتزامات المزعجة لساعات العمل الطبيعى وترتيبات الزواج والزيارات وبين راحته عندما دخل مقرهم المتواضع . شقة صغيرة بالدور الأرضى لبيت قديم فى حى منسى . بدا أحدهم متوترًا عصبيًا لكنه لا يضر بعكس الوجوه المحايدة المشحونة بالخل التى يراها كل يوم فى طريقه . المُحاضِر يتودد ويُعد الشاى بنفسه فى جو بيتى حميم . شعر بنشوة مفاجئة وراحة . ولدهشته وجد بينهم سيدة بصناديق ثقيلة على الوجه . وجد نفسه لأول مرة يراقب بلا انتقاد . هؤلاء مثله . مجروحين منبوذين معطلين . فى صالة انتظار الطبيب تسقط العثارات والأحقاد وهمزات الاستخفاف . لماذا ؟ يعنى لماذا هو هنا ؟ لا يهم فالإجابات كثيرة . حياته كلها إجابة . لأنه ينتمى لحياة أخرى وليُعد مختلف له منطق مغاير أعدل وأسهل وأشمل . السؤال الوحيد المهم هو كيف ؟ كيف وكيف ؟ لنخط الحروف السريانية بدقة هندسية أنيقة الهاء جنب العين جنب الواو الخطوط والأعمدة والسلم ولنرسُم نجمة بديعة التكوين تُكلل نشاطنا المخلص بنقطة الكمال .

الجمعية السرية

ينتظر دعوة منهم فى أى وقت . فى كل وقت . غدًا يتواصلون معه فتصل الأجزاء المتناثرة فى باطنه . ولن تكون لأفكاره العظيمة المبتورة نهاية عبثية فى ظل النظام الجديد . سوف يستقر وجدانه فى جلسة هادئة ينعم فيها بالقوة الراسخة والهيمنة المطلقة على الخواطر والموجودات والناس . أحلام صبية الطائشة تراوغه تراوده عن نفسه بنشوة التفوق والخلود . لكن الدعوة لم تصل بعد ، وهو مضطر لأن يأمل حسب مقتضيات العمر . يكلل أمنياته بألا تشكل السنون عبئًا وأن يكون تلميذًا مخلصًا ، وتشمل الرغبات أن يترفقوا به فى خدمة الطريقة أو الممارسات . لقد هرب من العمل هناك . لا لبعمل هنا . يستحسن كذلك ألا تكون الطقوس عجيبة كافرة . لا بأس ببعض المجون . أما التجديف فلن يكون قبوله بالأمر السهل . ليرسموا حرف قاف لا نهائى ويزعمون أن له مفعول السحر على فتح الكنوز وقلوب العذارى ، وسوف يعمل الواجب وزيادة .

البُعد الآخر

حين يُرتّب أفكاره ، يلتزم الحياد والمرونة. فيخف الضدان له بالمرصاد . اكتب مقالك عن الحب . بل عن الطب . يا أخى فضفض وناقش هوى القلوب. بل اكتب عن دواء كل داء . الأدب وصنوفه هى من خُلق لأجله القلم . بل العلم والحكمة يا مؤمن . على أن الجدال يحتدم ؛ فينتبه الطرف الثالث فى العتمة ويوعز له بطلبات جديدة عليه . لا يفهمها فضلًا عن كيف يكتبها . يرسل له الوحى الرمادى فى كنف شعاع أحمر كليب بارد يضىء ولا يحرق لكن الدفء فى القلب يتحول إلى سخونة . يبارك له المجون ويبرر لأفكاره الجنون

فيسرق من الحرية معناها العارى لا تفك أى قيد او تهدم أى صنم أو تُسقط الطاغية ، فقط تهمس فى باطنه أن الحمق كل الحمق هو أن يرهق عيناه معًا . أغلق واحدة وانظر بالأخرى من ثقب الباب المثلث . تلصص على دنيا ناعمة حافلة بالعسرات والخدر . أجساد جميلة بلا ثياب طرية كبتلات الزهر ، البخور الأصفر لتفريق حبيباتك عن خطابهن والأزواج ، وتراتيل كثيرة منقوشة بأسماء العقاريت .

الأثر الضائع

صباح العبث ! بالأمس ابتاع بنقوده القليلة كتاب السحر النادر (تعاويذ الفرس والروم) وبلهفة قلّب الصفحات فى شرفة العصر . تعويذة الإخفاء عن العيون ؛ لا داعى لها فهو بالفعل خفى ضئيل ! طرد النمل والبق ؛ لا ، هم رفاق المسكن اليائس كما أن ثمن عبوة المبيد الفعّال أرخص من البخور المطلوب ، التفريق بين المرء وزوجه، نعم، لم لا ، بسرعة فكر فى تنفيذ هذا العمل على (وديعة) ، ابنة الجيران التى ترصّدته كثيرًا من النافذة ثم هرولت خلف أول غريس ، لكنه خاف عقبة هذا الفعل الحرام ، كما أن المدام قد انتفخ بطنها وطارت من وجهها مسحة الجاذبية القديمة . طلاسم جلب وتهييج النساء ؟ هذا جميل ، وهل للتعس الوحيد سوى أحلام المجون ؟ ولكن ماذا بعد أن تشتعل أجسادهن بهواه ، هل يقيم حربًا فى غرفة كالخرابة على السطح ؟ الذى اخترع هذه الأعمال السحرية كان عليه أن يحسب تكاليف نجاحها ! لم يغلبه اليأس للاعتماد عليه ، لكن اعتراه غم ووجوم ومضى يتصفح الكتاب للتسلية بعد أن ليئس من غلو أسعار الأمنيات عندما تتحقق . هكذا مضى إلى قسم الأعمال

الأقل خطورة وعناء وفسقًا مثل أدعية لحفظ كل ما تسمعه ، تحويطة من اللصوص والأعداء ، قراءة كذا وكذا لرؤية النبي في المنام . لا تناسبه الأولى فحياته العلمونة يتملى معها أن يفقد الذاكرة للأبد وكل يوم ! أما اللصوص فلو دخلوا داره التي تصرح فيها الفنران لتركوا له نقودًا ! لهذا توضأ وصلى وقرأ في السجود السور المطلوبة مرات عديدة حتى غلبه الحال ونام وهو يردد إيا تماخيثا) .

مرت الدقائق الأولى بعد أن يستيقظ المرء على أمل أن يكون أجمل وأرق وأقوى وبدون هموم قبل أن تهجم عليه المنغصات والواجبات والصداع والجوع. ألف لعنة ! تذكر نفسه ورأى الكتاب وعادت إليه تفاصيل البارحة. الصلاة والتلاوة والنوم على أمل رؤية الحبيب (محمد) ليفز بالآخرة بعد أن قالت له الدنيا وداعًا . جلس في الفراش كالمخابيل يلعن حمق مشايخ الفرس وحكماء الروم ، حتى التعويذة السهلة مغشوشة . لقد رآه فعلا ، لكنه لم يكن نبي الإسلام . بل رأى نفسه وجهًا لوجه أمام (جورج واشنطن) كما هو مرسوم على الدولار ، ملامح الوجه مكتنزة بالسكينة والنبل والوقار كمرادف لاستقرار الشخص والبلاد .

* * *

الذين جاءوا من أعلى

في الفترة التي تلت انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية ، بدأت تظهر بعض المعلومات والحقائق التي كانت قيل وقت قريب محاطة بسور متين من السرية والتكتم في خزانة الدولة . ولكن تظل قصة الكائنات الغريبة التي تم العثور عليها في سيبيريا وبعض الأراضي الروسية الأخرى من أكبر الأسرار التي حاول الاتحاد السوفيتي إخفاءها عن الجميع ، واعتبرها سرًا قوميًا يندرج في ملفات سرى للغاية جنبًا إلى جنب مع أسرار الدولة العليا . ففي عام ١٩٦٨م عثرت مصلحة الأمن القومي الروسية علي مخلفات مركبة فضائية انفجرت في بيرتسوفسكي القريبة من منطقة سفيردلوفسكي وبداخلها عدد كبير من القطع المعدنية الصغيرة ، وبقايا كائنات غريبة محترقة ومتفحمة ، واختفت معظم معالمها بسبب الاصطدام العنيف بالأرض ، وبعد ذلك بفترة قصيرة تم العثور بالقرب من مدينة كورولييف على بقايا أخرى لكائنات تنتمي الى عوالم مجهولة ، وقامت بنقلها إلى مركز تم إنشاؤه خصيصًا لدراسة الظواهر الغامضة من تلك النوعية خصيصًا ، أي ما يخص شئون الكائنات القادمة من خارج الأرض ، لكن لماذا ظلت هذه الاكتشافات محجوبة عن الرأي العام طوال هذه السنوات الطويلة ؟ ولماذا تعمد المسئولون في الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت إخفاءها عن الجميع ؟

لعل الإجابة على تلك التساؤلات تحتاج أولًا إلى متابعة الفترة التي ظهرت فيها تلك الأمور . ففي ذلك الوقت كانت الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي السابق وأمريكا قد وصلت إلى قمتها ، وأصبح سباق التسلح مهولًا ويهدد بكارثة ،

وصار حلم غزو الفضاء ، أسلوب حياة تسعى إليه كل من الدولتين العظميين روسيا وأمريكا لتحقيقه بتأكيد نجاح نظامها الذى حاولت فرضه على العالم أجمع ، وأصبحت المواجهة بذلك منصبة حول إثبات التفوق فى المعسكر الرأسمالى أو الشيوعى .

يقول العالم «ميخالوف بريتشكوف» الذي اهتم بدراسة الظواهر الغريبة التى كانت تحدث فى سماء الاتحاد السوفيتى السابق : كان الساسة السوفيت يبذلون قصارى جهدهم لإقناع الناس أن النظام العالمى الجديد سيتقلهم إلى الرفاهية والنعيم ، وقد لعبت الإنجازات العلمية ، ومشاريع الغزو الفضائى ، دورًا كبيرًا فى ترسيخ هذا الاعتقاد عند الناس ، كما ساهمت وسائل الإعلام بشكل كبير فى إقناع المواطنين بأنهم طينة أخرى من البشر ومتفوقون على باقى الأمم . ولهذا السبب بالذات ، ظلت كل المعلومات التى تم تجميعها عن الظواهر الغريبة ، والكائنات القادمة من خارج الأرض فى طى الكتمان ، وسرًا من أسرار الدولة الكبرى ، حيث لم يكن من المعقول أن يعترف المسئولون السوفيت ، الذين حاولوا لعدة سنوات إقناع الناس بنجاح النظام الجديد ، وهيمنتهم فى مجال غزو الفضاء ، بفشلهم فى حل لغز ظواهر غريبة حدثت فوق أراضيهم . ولو تسربت مثل هذه الأخبار فى ذلك الوقت ، فإن الناس قد تفقد ثقتها فى قدرة الاتحاد السوفيتى على غزو الفضاء ، والتفوق العلمى ، وهى النغمة التى كان يعزف عليها المسئولون فى ذلك الوقت . ويضيف الأستاذ «بريجنيف بايالوف» موضحًا لمجلة «كارماء الأسبانية : لا أحد فى وقتنا هذا يستطيع أن ينكر أن الاتحاد السوفيتى قد أخفى كل المعلومات التى تجمعت لديه حول الكائنات المجهولة التى عثر عليها فى مناطق متفرقة من

www.riwaya.ga

البلاد، ولا أحد يجادل فى حقيقة الظواهر الغريبة التى عجز العلماء عن إيجاد تفسير منطقى لوقوعها ، مثل حكاية الأشخاص الذين تم اختطافهم من طرف صحون طائرة ، والذين أجريت عليهم تجارب مختلفة ، وزيارة مركبات فضائية لمناطق متفرقة من البلاد ، وأخذ عينة من التراب والنبات ، أو مثل بقايا المركبة الفضائية التى عثر عليها فى منطقة سفيردلوفسكى . إلا أنه لم يكن بمقدور لى أحد من المسئولين أن يعترف بذلك علانية لأن ذلك كان من شأنه أن يخلق مشاعر الخوف والقلق فى المجتمع ، ولأن المواطنين لم يكونوا مهيئين لتقبل مثل هذه الغرائب ، كما أن بعض المسئولين كانوا فى عز الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية ، يعتقدون أن بعض الظواهر من تخطيط وصنع وكالة الفضاء الأمريكية التى قامت بذلك لأغراض تجسسية .

يقول العالم «ميخالوف بريتشكوف» من جديد : لقد كان الناس سعداء بنشوة النصر الذى حققه الاتحاد السوفيتى فى أكثر من مجال وخصوصًا فى مجال غزو الفضاء ، لدرجة أن بعض المتفائلين بدءوا يحلمون بإقامة تجمعات مكتبة فى القمر وفى بعض الكواكب الأخرى . وأصبح بعض العلماء يطلقون تصريحات مغرورة توحى للناس وكأن الفضاء أصبح فى متناول أيديهم ، ولذلك لم يكن من الضرورى أن يعرف المواطن العادى فى الاتحاد السوفيتى أن هناك كائنات أخرى تعيش خارج كوكبنا الصغير ، تتمتع بقدرات أعلى بكثير من قدراتنا، تخترق أجواءنا دون أن تضبطها أجهزة الرصد المتطورة ، تخطف أناسًا من بين ظهرانينا ، تجرى عليهم تجارب متعددة ، وتمتلك تكنولوجيا قطعت أشواطًا بعيدة فى التطور والرقى . فهل كان من المعقول أن يعترف المسئولون فى الاتحاد السوفيتى للناس بهذه الحقائق بكل برود ، ويتركوا هذه الكائنات الغريبة تنتزع منهم نشوة النصر الذى حققوه فى مجال غزو الفضاء ؟

(العائد من الموت)..
رحلة انتقام وحشي تحت جلد دُب

اسم الفيلم : The Revenant ، المخرج : أليخاندرو جونزاليس إناريتو ، الأبطال : ليوناردو دى كابريو (هيو جلاس) ، توم هاردى (جون فيتزجيرالد) ، دومنال جليسون (الكابتن أندرو هنرى) ، إنتاج : نيو ريجينسى بيكتشرز ، أيان واى ، أنونيمس كونتنت ، مدة عرض الفيلم : ١٥٦ دقيقة .

* * *

أصر المخرج أليخاندرو جونزاليس إناريتو على تمام تصوير فيلمه الجديد The Revenant فى سهول ووديان وجبال حقيقية غير مزيفة ، جونزاليس مخرج فيلم (الرجل الطائر) ويؤمن بأن إتقان العمل مسألة حتمية ، لهذا ينتقل إلى غابات شاسعة لنقل صورة الغرب الأمريكى فى عشرينيات القرن التاسع عشر، طبقا هو التطور الطبيعى لمناظر فيلم (الرقص مع الذئاب) ، زمن رعاة البقر الخالد فى روايات الجيب الأمريكية وقصص حمى الذهب وصالون الغوانى والحانوتى اللص إلخ ، لكن الفيلم يمعن فى الخصوصية ويركز على حلم آخر بالفراء وقتها هو صيد الدببة والإتجار فى الفراء الدسم السميك الثمين .

هذه هى حكاية (هيو جلاس) ـ يقوم بالدور ليوناردو ديكابريو العظيم عاثر الحظ ، والقصة كتبها مايكل بونكى عام ٢٠٠٢ ، جلاس صائد حيوانات لدى شركة أمريكية تخصصت فى صنع الفراء وبيعه ، وهو يقود مجموعة من الرجال عبر

نهر المسيسيبى لاكتشاف بقاع جديدة للصيد فى الغابات على طول الشاطئ (هذه الأفلام ومن قبلها روايات الويسترن الصلبة حققت هدفًا قوميًا كبيرًا فى التعريف بحياة الأمريكان الأوائل والآباء المؤسسين وتاريخ الشعب) .. على أن رواية بونكي لم تكن أول مصدر يحكي القصّة . ففى عام ١٩٣٩ نشر مشروع الكُتاب الفيدرالى الأمريكى كتابًا بعنوان (طريق أوريجون) ، يحكى تاريخ الغرب الأمريكى فى تلك الفترة التى دارت فيها أحداث قصّة هيو جلاس ، الذى وصفته مجلة TIME فى عرضها للكتاب (فى ١٩ إبريل ١٩٣٩) بأنه (أكثر رجل غامض فى تاريخ الولايات المتّحدة) .. فى عام ١٨٢٣ انضمّ جلاس إلى فريق يقوده أندرو هنرى يقطع رحلة طويلة فى اتجاه مجرى نهر ميزورى ونهر جراند (الذى يقع فى ولاية ساوث داكوتا حاليًا) ، وخلال تلك الرحلة تعرّض جلاس للافتراس من دبّة شهباء . وقبل أن يستطيع جلاس التراجع أو إطلاق النار ، انقضّت عليه الدبّة وأطبقت عليه وقضمت قطعة كبيرة من لحمه ألقتها إلى صغارها . صرخ جلاس مناديًا على رفاقه ، لكن قبل أن يتمكّنوا من قتل الدبّة كان الرجل قد نُزِف تمامًا وتحول إلى مسخ بشرى من رأسه إلى أخمص قدميه ! الدُّب الأبيض فى الواقع من أكثر الحيوانات ضراوة وخطورة فى العالم على الإطلاق ، وهو ما أثبته بعض المقامرين من سان فرانسسكو منذ سنوات ، عندما نظّموا قتالاً بين دبّ أبيض ولمز مفترس ، انتهى بمصرع النمر خلال لوانٍ معدودة . لم يمت جلاس ، لكن رفاقه لم يتوقّعوا أنه سيظلّ حيًا لفترة طويلة ، بما أنهم لا يستطيعون حمله معهم وهو مصاب هكذا ، كما أن الشتاء كان يدنو بسرعة

وهم لا يقدرون على المغامرة بالبقاء معه حتى يموت . عرض رجال المجموعة على اثنين منهم ٨٠ دولارًا (وهو مبلغ فاحش في ذلك الحين يعادل أكثر من ٣٠٠٠ دولار بمقاييس اليوم) للبقاء مع جلاس ودفنه دفنةً لائقة بعد موته . لكن جلاس تمسك بالحياة. وبعد مرور خمسة أيام تركه الرجلان وقد أصابهما الخوف من أن يموتا بدورهما إذا بقيا لفترة أطول . قبل رحيلهما جرّداه من جميع متعلّقاته ، معدته وسكينه وحجر الصوّان (المستخدم لإشعال النار)، وغير ذلك من ضروريات السفر في البراري . تلك الأشياء أعطياها لهنري وقالا له إن جلاس قد انتقل إلى الرفيق الأعلى .

طبعًا في الفيلم يظهر السكان الأصليون وتحدث مواجهة للبعثة . لكن هيو هو من يهمنا ، إنه يبتعد عن جماعته ويضل الطريق ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام دب شرس عملاق ! لابد وأن ينتصر البطل ، يقتل الدب ويُصاب بجراح بالغة في الوجه والصدر ويفقد القدرة على الحركة والكلام ، وهنا يقع المخرج ومدير التصوير في خطأ راكور طريف: عندما يسقط مضرجًا في دمائه وينظر إلى صفحة السماء يرى القمر في ربعه الأول ، وبعد ليلتين نرى الهلال شديد النحافة وهذا تسلسل غير طبيعي لدورة القمر . يجده أصحابه ويلحق بهم ابنه من زوجته الهندية التي نعرف أنها قتلت غيلة على يد الأمريكان ، وهنا الجزء من التاريخ لا يزيفه أرباب الفنون والكتابة هناك ، لا الإبادة الجماعية بالبارود ولا توريد البطاطين الملوثة بالجدري للسكان الأصليين . أفراد البعثة تنقل جلاس إلى حيث يجب أن يعتنوا به طبيًا ، لكن حالته تسوء ويشرف على

الموت . من ثم يكلف الرجل الكبير الذي يلعب دور زعيم البعثة اثنين من أفرادها هما (فيتزجيرالد) ـ الممثل توم هاردى ـ و(جيم بلديجر) ـ الممثل ويل بولتر ـ للمكوث مع جلاس بعض الوقت لقاء بعض المال حتى يموت في هدوء ويدفناه ، بينما يفر الزعيم ومعه البعثة من بطش السكان الأصليين القادمين للانتقام .

تتسارع وتيرة الجنون ، فيتزجيرالد يقتل ابن جلاس بدافع الكراهية ويدفن والده وهو حى ، ويهرب مع جيم تحت التهديد بالقتل إذا فتح فاه أو لم يستمع لأوامره . صورة بائسة لشقاء الإنسان الذي ينجو من براثن حيوان مفترس لكنه يقع في حبائل أخيه الإنسان . لكن هيوجرس يكتب له عمر جديد ، ينبض من رقاد الموت ويتغلب على جروحه ويستر جسده بجلد دب ميت ، يحتمى من درجة حرارة تحت الصفر بكثير ، لكن هذا التجميد هو ما ساعد على بقاء حيًا ربما ، حتى يقابل بالصدفة زعيم إحدى قبائل الهنود الحمر الذي يبحث عن ابنته التي اختطفتها بعثة فرنسية (كالعادة فإن سادة أوربا في إحدى الحقب التاريخية لم يكن لديهم هم سوى الاستيلاء على الشعوب واستعباد أهلها ثم يدّعون من ألوانهم الداكنة !) ويساعده الرجل فيداوى جراحه بالأعشاب والسحر وما إلى هذا الكلام حتى يتعافى جلاس ويصمم على العودة والانتقام . وبالطبع عليه أولًا رد الجميل وإعادة الفتاة المخطوفة ، فتطارده خيول البعثة الفرنسية وعلى صهوتها الجنود حتى يسقط بجواده في بئر عميق . وهنا مشهد بشع لهيو وهو ينتزع أحشاء الجواد الميت (طبعًا نرى المشهد من الجانب الآخر للجثة مراعاة لمشاعرنا) ليحتمى في جوف جثته من البرد .

هذا المشهد بعد الصراع مع الدم الذى استغرق على الشاشة خمس دقائق كاملة ، ثم ارتداء فرو الدب ، يجعلك تفكر فى مدى جرأتنا ونحن نفخر بآدميتنا؟ هل نحن بشر حقًا أم نحن إلى الحيوان أقرب ؟ هل نرتد إلى أصلنا الحيوانى فنحن وحوش تحت جلد نظيف مغسول لا أكثر ؟ وبعبارة تليق بعشاق السينما هنا نستعير مقولة المخرج البولندى أندريه فايدا : «سيتقدم العمر بعالمنا الأوربى ، لكنه سيكون شابًا ، وسيتعلم البرابرة الأشداء لغتنا ، ويخرمون بعاقبنا وثقافتنا ، وبسببهم يستحق عملنا العناء » وفيلم (العائد من الموت) يرد على الانتقادات التى واجهتها مدارس الجديدة لافتقارها إلى الابتكار والجماليات الشكلية واتباعها طريقًا مباشرًا للتعبير . ومشاهدو الفيلم من علماء الاجتماع سوف يضيفون إلى دراستهم القوى والميول ، المحركات الأولية للنفس الإنسانية ، إذ سيها الأخصائيون عن دراسة ميل آخر ، تجاهله أيضًا الأخلاقيون الذين سبقوهم ، مع أنه موجود كشعور أولى ، بدائى ، أصلى ، تم إغفلناه جميعًا فى ذروة غرورنا العقلى ، وزهونا بما أنجزناه فى السلم حيًا وفى الحرب أحيانًا ، سمحنا لوجوده أن بلغت من أمام نظرنا لنقص اعتقادنا فقط ـ إيماننا ـ سواء بالوحى أو باستحضار التاريخ ، والحديث مع النفس . هذه الفكرة لم تخطر لنا أبدًا لسبب واحد هو أنها من تافلة البحث . وما شعرنا قط بالحاجة إلى التحقق من هذا الاندفاع ، هذا الميل . لم نكن قادرين على أن نتصور ضرورته ، وكنا عاجزين عن إدراك مفهوم هذا المحرك الأول الخام . وحتى حينما يدخل فينا بالقوة ، لن نستطيع أن نفهم أى دور يلعبه فى نظام

النزعة الإنسانية ، فى كل عصر وبين كل قوم - وهكذا جاء الفن ا.. فنحن نكاد نتحرك فى الواقع مع الخطوط المرسومة فى الصور التى نراها ، أقول صور لأن الأدب والسينما والمسرح قد اتخذ لنفسه عدة طرائق منها . فالإيقاع المكسور من الصورة الجمالية يكسر فيض إدراكنا الحسى وتدفق شعورنا كما يكسر استجابتنا الدفعية الحركية . والخط الفنى السينمائى السلس المتماوج يفك التوتر وييسر إدراكنا وردود أفعالنا التى لا تستبين لنا تماما كما أنه يجلب لنا السرور والبهجة ، كما يشرح (أروين أدمان) فى كتابه عن الفنون والإنسان: كما أننا فى السينما باخرة الصورة ، المتعمقة فى المشاهد الطبيعية نعيش فى القصة والموضوع ، مهما كان خطه شديد البساطة مثل فيلم العائد ، نفس حياة شخصياتها المتخيلة . هكذا فى فن الصورة الكاملة ربما أمكن القول بأننا نعيش حياة الخطوط المرسومة فى اللوحة أو المحفورة على الرخام أو العلونة على الشاشة الكبيرة فى الظلام . الفيلم قصة للطبيعة ورغبة الإنسان فى أن يعيش وأن يظل إنسانا .

* * *

الثعلب

وُلد (توماس ديفنز) لوالدين فقيرين فى قرية أكثر فقرًا ، وبالتالى كانت كل الفرص معدومة لحياة هانئة ظل يحلم بها طويلاً .. ومما زاد الأمر سوءًا ان (توماس) كانت له روح قلقة مغامرة لا تسعها ولايته أركانساس بأكملها ، وعلى العزم منذ فترة مبكرة جدًا من عمره على أن يتملك الثراء الفاحش والأرصدة الرهيبة في البنوك وصفا من السيارات الفاخرة بالرغم من أن أباه وأهل قريته لا يعرفون المحيط إلا من الصور !

مظهر(توماس) جذاب عمومًا ، فشعره البنى الفاتح المائل للون الأشقر يعادل مشكلة قصر قامته. أضف إلى ذلك لباقته في الحديث وهى موهبة فطرية عنده إذ إنه لم ينل من التعليم سوى النذر اليسير .. فعندما رحل عن قريته لم يكن قد أكمل دراسته الابتدائية .. ولم يكن فى جيبه مليمًا لكنه رحل إلى لوس أنجلوس بطريقة الأوتوستوب .. وبدأ حياته هناك مناديًا للسيارات فى محل انتظار يتبع أحد المطاعم المشهورة وهو (سان سيت ستريب) أفخم مطاعم المدينة ..

أياه طموحه أن الراتب الضئيل الذى يحصل عليه ليس هو مبلغ آماله من هذا المكان .. بل فرصة للقاء علية القوم .. وقد كان .. لقد جذبت ملامحه الوسيمة انتباه ثرى معروف .. هذا الرجل قدم له عرضًا لا يمكن أن يتخيله شاب من قريته .. ربما موافقًا لطموحه .. نعم .. هذا الثرى ألقى إليه ببطاقته وقال :

– « اسمع يا بنى .. بمثل وجهك الجميل هذا لا يصح أبدًا أن تعمل مناديًا للسيارات .. إنك تستطيع أن تكون أحد كواكب هوليوود !! »

لمعت عينا (ديفنز) دهشة وطمعًا وطموحًا وسار وراء الثرى ونجم السعد الذي ألحقه بأحد معاهد التمثيل .. لكن لخيبة أمله اكتشف ضعف مواهبه في هذا المجال .. حاول التمثيل في بعض المسرحيات من الدرجة الثانية لكنه كان محدود الموهبة جدًا وبالطبع لم يصل إلى السينما .. لكن ذات المنحنى القدري يقابله في طريقه .. فما كان عمله بالتمثيل إلا سببًا ليتعرف على فاتنة الثراء طويلة الساقين .. سنها كبير وتسحب وراءها شابًا يافعًا لابد وأنها تنفق عليه مقابل شبابه .. وبدأ (توماس) يتحرى الأمر ..

عرف أن هذه السيدة هي (نورما كارتر ويلسن) .. محبة للفنون .. تزور دور العرض كثيرًا وهدفها للمسرح .. تجاوزت الخمسين من العمر .. ترملت منذ فترة وورثت ثروة هائلة ولعبتها الشبان .. وهذا الذي يتدلى من حقيبتها هو آخر زوج لها واسمه (ويليام ويلسون) ..

استقال (توماس) من خشبة المسرح على الفور وقرر أن يكمل التمثيل على مسرح الحياة .. وأن تكون السيدة الثرية هي البطلة أمامه ! راح يتقرب إليها والحسبة بسيطة ومعروفة : مالها أمام شبابي وجمالي !

وعرف منها أنها تعتمد في مواردها إلى جانب ما تركه أزواجها على دار الأزياء والتجميل في سانت كينسنت ودار نشر رأس مالها مليونًا ونصف من الدولارات .. داري (توماس) وضاعته خلف وجهه الوسيم واستطاع أن يقنعها بسهولة أن تعهد إليه بإدارة دار النشر ؛ لأنه ـ كما أخبرها ـ خبير بأمور الطباعة والنشر ؛ والحقيقة أنه يفك الخط !

وقعت الأرملة العجوز تحت تأثير الشاب الجذاب الذي سيعاونها بمنتهى الخجل .. وبدأ يدير .. وبدأ يختلس .. وبدأ ينهب .. وبدأت الموارد تنضب ..

وانهارت الدار وأفلست ! وخسرت السيدة مبالغ طائلة .. لكنه لم يكتف وفق طموحه السابق بتركه ..

في هذه الأثناء من أواخر الستينيات تم إقصاء (موبس تشومبي) من الكونغو تماما وإبعاده عن الحكم نهائيًا رغم محاولاته المستميتة لاستعادته .. وحدث أنه أثناء رحلته الجوية فوق البحر الأبيض المتوسط تعرضت الطائرة لهجوم مسلح وأجبرت على الهبوط في الجزائر وتم اعتقاله هناك ..

طالبت حكومة (جوزيف موبوتو) بالكونغو تسليم (تشومبي) للمحاكمة .. لكنه بالطبع لم يسمح الرئيس الجزائري (هواري بومدين) بذلك وأمر باستمرار حبسه في فيلا منعزلة بينما كانت زوجة (تشومبي) تتوسل للأمم المتحدة أن تقف إلى جوار زوجها في محنته .. وإذ هي تعتبر الردهات الفاخرة والمكاتب الأنيقة لمحامي نيويورك ، تقدم منها شاب جميل الوجه ، أنيق الزي ، عريض الابتسامة يقول بثقة :

ـ « وما الذي تستطيعه الأمم المتحدة أو محكمة العدل الدولية نفسها ـ الصوت الوحيد المسموع يا سيدتي هو صوت القوة ! »

ترددت السيدة في الرد .. فهي لم تفهم منطق الشاب تماما .. ومن ناحية أخرى أسرتها ثقته واعتداده بنفسه .. وابتسمت وهي تهز رأسها تطلب التوضيح .. أجلسها وواصل حديثه :

ـ « ضعي العالم أمام الأمر الواقع ! »

ـ « هه ؟ ماذا تعني ؟ »

ـ « العين بالعين والسن بالسن .. لقد اختطفوا زوجك وهاهم يتبادلون التصرف في مصيره .. استأجري أنت أيضًا من يقوم بخطف زوجك من الجزائر

ونقله إلى جنيف .. بدلاً من تبديد أموالك على محامي مشأنق يقول كلامًا فارغًا في قاعات المحاكم ! »

بوغتت زوجة (تشوميى) بالفكرة .. فالاقتراح غريب .. ومثير ..

ـ « ولكن .. ولكن كيف أفعل ذلك .. لا دراية لي .. »

قاطعها بسرعة وحسم :

ـ « لا داعي للخبرة ها هنا .. مليون دولار كفيل بحسم الأمر كله .. »

وألمحت السيدة إلى أن المبلغ المذكور ليس بالمعضلة وأنها على استعداد لدفعه إذا ضمن لها نجاح العملية .. وفكرة العهيمة نفسها أوحت لـ (ديفنز) باستذكار اسم كودي يتحرك به هو (الثعلب) ! ..

ثم قبض منها مائة ألف دولار عربون للعهيمة .. قبلها على مضض على أساس أن العهيمة تتكلف الكثير .. لكنه كان يعلم الأرصدة الحقيقية تحت يد هذه السيدة في بنوك سويسرا وكان طموحه بالاستحواذ على كل هذه الثروة الشاسعة يلهمه الصبر والحذر !

انطلق (ديفنز) إلى الجزائر بصحبة شاب يدعى (تروت) .. كلا منهما في حلة غامضة توحي بالخطورة وتحت إبطه مسدسًا .. وفور وصوله اتصل بها يخبرها أن الموضوع معقد وأن الرفاق هنا بحاجة إلى مائة ألف دولار أخرى تحول على بنك (طنجة) .. بالطبع لم تكن هناك أية عمليات من أي نوع .. بل إن (ديفنز) نفسه لم يحتمل جو (الجزائر) وتسلل عائدًا إلى (الولايات المتحدة) حيث عقد صداقة مع اللعوب (نورما) التي أقنعها أن تتخلص من دار النشر التي تعمل بها وأن تستثمر العائد في مستشفى خاص أو منتجع صحي ـ كما كانت الفكرة في هذا الوقت ـ ولما كانت الفكرة ليست بالبعيدة عن خيال (نورما)

التي امتلكت من قبل دارًا للنقاهة . فقد اقتنعت بوجهة نظره سريعًا وباطلع تولى هو إدارة المشروع ككل .

منحته توكيلًا عامًا وبسرعة باع دار النشر وآلات الطباعة وبدأ في شراء أراضي وعقارات مجهولة في (ماليبو) وأقنعها أنه يبني دارًا للاستشفاء في (بيرلادينو) ..

لكن أحد محامي (نورما) بدأ يقلق .. وبالتالي بدأ يتجسس على تعاملات (ديفنز) وسرعان ما عاد يهرول يخبرها بأن الأراضي التي يشتريها في (ماليبو) كتبها باسم أحد .. وأن دار الاستشفاء التي زارتها يملكها أحد أصدقائه والذي رشاه بمبلغ معين ليلعب أمامها دور مدير الدار !

لكن مرآة الحب عمياء أخفت الحقيقة عن (نورما) عندما واجهت (ديفنز) الذي ابتسم في براءة مؤكدًا أن المحامي يشي بحقارة وحقد ، بل وطالبها بتمويل إضافي للدار !.. وبالفعل منحته (نورما) نصف مليون دولار ليدفع التعديلات اللازمة على الدار التي لا تملكها ..!

شعر (ديفنز) بالفخر وبأن الفترة التي قضاها في معهد التمثيل لم تذهب في الهواء، فتحمس لإعادة النشاط مع زوجة (تشومبي) .. اتصل بها وأخبرها أنه يعود الآن من الجزائر ولم يعد سوى أمل واحد لاستعادة تشومبي وهو خطف مسئول جزائري مهم واحتجازه كرهينة ومقايضته بتشومبي ..

والتقى بها في اليوم التالي ومعه صديق قديم من أصل فرنسي وعاش في كندا وكان قد أقنعه بالحصول على مبلغ ٣٥ ألف دولار ليمثل دور شخص جزائري يتحدث الفرنسية .. وحصل من الزوجة المخدوعة على مبلغ مائة وخمسين ألف دولار ! ثم انطلقا إلى لوس أنجلوس استعدادًا للسفر إلى الجزائر .. لكن

الصديق الفرنسي وجد نفسه في طريقه إلى (مونتريال) . وأفهمه (ديفنز) أن ثمة عصابة دولية تنتظر في كندا لمعاونتهما هناك ..

وهناك هاتف (لورما) يخبرها بأنه قد أعد العدة للحصول على قرض يساوي مليونين من الدولارات لكن الأمر يستلزم وجودها .

* * *

التقى بها في مونتريال ومعه طاقم من الرجال في غاية من الأناقة يمثلون دور رجال مال وأعمال وكان الاتفاق أن تتنازل له عن دار الاستشفاء التي تملكها بشكل صوري على الأقل حتى يمنحه ذلك الصلاحية للتعامل مع هؤلاء الرجال مقابل ورقة منه تضمن لها حقوقها .

* * *

قابل (ديفنز) صديقه الفرنسي ـ الكندي في هجرته بعد مغادرة (لورما) :

ـ « إليك هذه الصفقة ؟ »

ـ « ماذا لديك ؟ »

ـ « مائة ألف دولار مقابل رصاصة تضعها في رأس (لورما) ! »

ـ « ماذا ؟.. »

ـ « كما سمعت . »

ـ « وقصة (تشومبي) والزوجة التي تنتظر في (نيويورك) ؟ »

ـ « دعك منها الآن يا أحمق ! »

ـ « الحقيقة أنني قد أجاريك في عمليات نصب كما تحب ، لكن لست على الإطلاق مستعداً لقتل شخص ما »

هنا ضحك (ديفنز) وربت على كتف صديقه بعودة :

ـ « لا عليك يا عزيزي ! »

بعدها انطلقوا إلى الجزائر لقضاء وقت لطيف .. ولسبب ما شعر الصديق الفرنسي بآلام حادة في معدته بعد تناوله أحد المشروبات ، وتأكد من وفاته العاجلة ..

وتأكد من القاتل !

لكن الأعمار بيد الله حقًا ..

تم إنقاذه بمعجزة بعيدًا عن عين (ديفنز) وسرعان ما أخذ من حقيبة هذا الأخير مبلغ ألف وستمائة دولار واختفى !!

* * *

ابتلع (ديفنز) المقلب وسافر مع (نورما) إلى (سويسرا) ونزلا بفندق (الثور) في (زيورخ) ثم انتقلا إلى (جنيف) الجميلة كشهر عسل غير تقليدي .. بعدها عاد (ديفنز) وحده إلى الولايات المتحدة وأعلن أن (نورما) تقضي بعض الوقت مع بعض الأقارب وسوف تعود قريبًا ..

لكنها لم تعد!

* * *

باع (ديفنز) كل ممتلكات (نورما) بمقتضى التوكيل العام مقابل مليونين من الدولارات زائد الأموال السائلة التي وصلت إلى خمسة ملايين .. وابتاع أحدث من سيارات المرسيدس الرياضية .. وقصرًا ويختًا ومنزلًا يطل على المحيط !

دق جرس الهاتف في وقت متأخر في منزل (ديفنز) :

ـ « ألو .. من معي؟ »

ـ « نسيت صوت صديقك الفرنسي العزيز ؟ »

ـ « اللعنة ! ماذا تريد ؟ »

ـ « إن أتكلم ! »

واشترى(ديفدز) سكوته بمبلغ سبعة آلاف دولار !

تقدم

(وليام ويلسون) زوج (نورما) ببلاغ للشرطة يفيد باختفائها ..

قام المحقق باستجواب (ديفنز) الذى أنكر أية علاقة له بالأمر وكرر حكاية اشتراكها مع بعض المعارف فى (جنيف) وعدّد بعض الأسماء .. من ثم أوفدت الشرطة اثنان من رجالها هما المقدم (تروت) والمقدم (بورنيت) للبحث عن المفقودة ..

راجع الرجلان سجلات الفنادق التى نزلت فيها (نورما) من مونتريال إلى لوكارنو مرورًا بمدريد وطنجة وجنيف وزيورخ وعلما أنهما استأجرا سيارة ليموزين فاخرة صغيرة للانتقال من لوكارنو إلى جنيف مما أثار دهشتهما ، فهى وسيلة غريبة للسفر فى هذا الطريق المهجور .. وعندما بلغا جنيف لم يكن هناك أى ذكر لاسم (نورما) ولا (ديفنز) فى سجلات جميع الفنادق ..

لعلم رجلى الشرطة أوراقهما ونتيجة التحرى : الصديق الفرنسى هو الوحيد الذى يمكنه كشف السر فهو رفيقهما من بداية السفر ! وتم القبض عليه .. وبالتعاون مع الأنتربول عثر البوليس الأمريكى على صندوق لم يتسلمه صاحبه منذ وقت طويل وبفتح الصندوق وجد به معطف فرو ثمين وبعض المجوهرات والملابس الرجالى .. وكلها ملوثة .. بالدم !

ألقى القبض على (ديفنز) فى الحال ..

ومن سخرية الظروف أنه كان قد رشح نفسه فى مجلس الكونجرس عن ولاية اوس انجلس لتوه .. وتم القبض عليه أمام مريديه ومؤيديه بتهمة

السرقة والنصب والقتل والاحتيال والاختطاف والتزوير والتدليس ..

هز(ديفنز) كتفيه استهانة وابتسم للصحافة والرأى العام :

ـ « إنها مؤامرة يا سادة أؤكد لكم . أفعال الخصوم ساذجة ! كل ذلك لإبعادى عن منافستهم فى الانتخابات ! ولكن .. أين جسم الجريمة ؟.. أظهروا الجثة يا حمقى ! »

وكان لدى الادعاء الأمريكى ملابس داخلية نسائية وجورب واحد من النايلون ملوثة بالدم وممزقة بفعل سكين حاد .. وافترض أن الجثة مزقت إلى قطع صغيرة وألقيت كل قطعة فى مكان ما بين لوكارنو وجنيف .. متفرقة كجثة أوزويس فى الأساطير الفرعونية !

ودافع (ديفنز) عن نفسه ومعه محاميه الأريب :

ـ « حسب قولكم .. لقد تمت الجريمة فى سويسرا .. فلماذا تجرى المحاكمة فى الولايات المتحدة ؟ »

وأجاب ممثل الادعاء بأن :

ـ « قانون كاليفورنيا يبيح محاكمة أى شخص عن جريمة ارتكبها فى أى مكان فى العالم إذا كانت ثمة ملابسات لأمور قام بها فى أمريكا لها علاقة بالجريمة المقصودة ! »

ـ « وكيف هذا ؟ »

ـ « لقد مهد السيد (ديفنز) لجريمة القتل فى كاليفورنيا .. على الأقل فقد قطع التذاكر فى لوس أنجلس ، نفس المكان الذى تمت فيه عمليات الاحتيال على القتيلة ولم تكن جريمة القتل سوى لإتمام صفقات النصب والسرقة ! »

(والواقع أن المرة الأولى التى يطبق فيها مثل هذا القانون كانت فى ١٨٩٨ عندما حوكمت امرأة من سكان سان فرانسيسكو أرسلت طردًا عبارة عن علبة حلويات مسمومة لسيدة أخرى فى دولة أجنبية فماتت فى الحال !)

وهنا جاءت ورقة الدفاع : أين الأدلة ؟.. لا يوجد حتى دليل على أن(نورما) ماتت .. أو حتى مريضة .. ناهيك عن التسمم !

لكن الحظ العاثر ألقى بشهادة راقصة شابة اسمها (كورلين دافينز) : أن (بينز) قد هبطت عليه ثروة من السماء دون مبرر واضح . وقدمت للمحكمة بعض المجوهرات التى أهداها لها أيام صداقتهما .. هذه المجوهرات التى تعرف عليها زوج القتيلة فى الحال !

وهنا جاء دور (فورجيت) ـ الصديق الفرنسى ـ الكندى ـ بالقصة كاملة وتكلمت المحاكمة بتقرير الطب الشرعى أن الدماء الموجودة لها نفس فصيلة (نورما) وجاء قرار هيئة المحلفين بعد مداولة أسبوع كامل أن (ديفنز) : مذنب من الدرجة الأولى ..

وهنا (ديفنز) جمهور المحكمة بتصفيق حاد يكفيه ردًا على الحكم !

وبمناجاة أخرى (وأخيرة) قبل أن يقرر القاضى (مالكولم لوكاس) الحكم بالإعدام أو بسجنه مدى الحياة . أن أخبرت إدارة السجن المحكمة أن المتهم المذكور قد قطع شريان معصمه !

* * *

من ثقب النافذة

(قصة قصيرة)

نعم ، لا زلت أذكر كل شيء ، وأتقلب في فراشي كثيرًا قبل أن أنام ، حتى إذا فشلت في إبعاد تلك الذكرى عن عقلي رفعت الغطاء على رأسي وأغمضت عيني ، ولكن هيهات ، أرى كل شيء بوضوح ، كأنه قد حدث بالأمس ، أشم كل حركة وأسمع كل صوت . وبالرغم من هذه الأيام الحاملة التي تتعاقب يوما بعد يوم دون أن يحدث فيها ما يلفت الانتباه ، لا زال الأرق يقلق ساعات نومي ويملأ هواء المكان بكهرباء التوتر ، حتى القمر الأصفر المكتنز المعلق بين رقائق السحب ، بخار الليل البارد ، والريح التي تندفع بعنف خارج الدار كاصفة في دروب طريقها كل شيء ، حتى عقلانيتي ، كل هؤلاء فشلوا في أن أنسى ولو للحظة .

كان المطر يتهمر منذ الصباح ، وكانت الأيام البهيجة المشمسة تبدو كأطياف غير مؤثرة أو نوعًا من الذكرى ، كان كل شيء في البيت منسقًا بشكل مستمر أما التغيير فلا يحدث إلا في الخارج ، يصفو الجو حينًا وتزمجر العاصفة أحيانًا الخطر دائمًا في الخارج ، مع الوحل والبشر والمطر يدق على زجاج نافذتي فكأنه ينقر على أليافي العصبية ذاتها . هل هو نفس المطر الذي كان ينقر على زجاج نافذتي في بيتنا القديم في السويس ؟

كنت في حجرتي ، ولم يكن زجاج نافذتي هو زجاج نافذة بالمعنى المفهوم ، أصابه شرخ قديم وعدة كسور وثقب لن يلتئم أبدًا مهما حاولت سده بالأوراق وعلاجه الوحيد كان أن أتركه كما هو ثم أغلق على نفسي باب

الحجرة ، هكذا لن يدخلها تيار من الهواء البارد يبدد كمية الدفء التي أقنعت نفسي بها ، كان هذا يناسبني على أية حال ، إذا تناسيت أمر العاصفة التي تزأر بالخارج والبرد الذي يفتت العظام بالداخل ، وكنت قد انتهيت بالأمس من رواية «عن الرجال والقطران» وبدأت اليوم فقط في رواية أخرى لسومرست موم «حد الموسى» الغلاف أصفر مهترئ يصور رجل خائف يضع في دائرة ، يحمل حقيبة ويراق وينظر خلفه إلى اللاشيء ، واحدة أخرى من تلك الروايات عتيقة الشكل والتاريخ والتي تكومت على مكتبي تحت النافذة ، فبدت ككومة من قطران مبللة تهتز أذنابها مع الريح التي تدخل من ثقب النافذة ، وكان «لاري داريل» ـ في قصة «موم» الآن ـ يبدأ رحلته في البحث عن مبدأ يؤمن به ، عندما فتحت أمي باب الحجرة ـ وباب حجرتي يصر كالأنين ـ فدخل صاروخ من الهواء يلفح جانب وجهي ، وأطلت هي برأسها من فرجة الباب ، الواقع أنني قد سمعت وقع أقدامها قبل أن تفتحه ، لكني لم أفكر في أنها قادمة إلى هنا ، بل إنني كنت أعرف أنها تنام في هذا الوقت فظننت أنني أتوهم ..

ـ « لماذا لم تطفئ ضوء غرفتك ما دمت مستمرًا في القراءة ؟ »

استبدت الدهشة بـ «لاري» فأغلق كتابه وحاول النهوض .. كلا لا تنهض ، ماذا تقرأ ؟ مهمومًا يرد : كتاب ، ولم يكن في ابتسامته مجهولة المغزى إساءة بعينه .. وطوى الكتاب بحيث لم تتيسر لي رؤية عنوانه !.

ـ « اندمجت قليلًا في القراءة فلم أشعر بمرور الوقت » .

لعله يغشى ذاته ، وقد يكون غير مؤمن بما يراه وبما يدور في خلده !.

ـ « هل أشعل لك المصباح ؟ »

(إنه يترك في نفسي دائمًا هذا الانطباع ، إنني أراه كمن يسير أثناء نومه أو كمن يواجه شيئًا لا يدري كنهه ..)

ـ « لا داعي لذلك » .

(ألا يمكن أن نقوم بما هو من شأنه أن يعفيه من هذه الآلام ؟)

ـ « حسنًا .. كما تشاء » .

وأغلقت أمي الباب خلفها ، ليصر ـ مرة أخرى ـ كالأنين ..

توقف اندفاع الهواء البارد على جانب وجهي ، وغرقت الحجرة في دفء نسبي وصمت تام إلا من صوت عواء الريح بالخارج .

قطرات المطر تنقر على زجاج النافذة بلا انقطاع ثم تتجمع في خطوط وتحتشد لتدخل الثقب في نهاية الشرخ ، وتسيل على الإطار الخشبي الداخلي الذي اعتراه كذراع عجوز مصاب بالشقرينا ، ويسير خيط الماء قليلًا على الجدار ثم يموت قبل أن يصل إلى أرض الحجرة ..

وللحظة لاح في الحجرة ضوء طيفي وسمعت صوت خدش على النافذة ، واعتصرت قبضة الخوف الباردة قلبي ، وأحسست بالشعيرات في مؤخرة عنقي تنتصب كالإبر (وأتى لي أن أعرف هذا؟ قد يكون أحيانًا لأتفه الأشياء أعمق الأثر) لم أر ضوء البرق لكني سمعت رعدًا يدوي كالانفجار ، نظرت إلى الظلام الدامس بالخارج فسرت قشعريرة في كل جسدي ، كيف توقعت أن أكمل القراءة في هذا الظلام ؟ قمت من مكاني وثمة إصبع بارد من الرعب يعبث في حلقي ، رعب أولي لا مبرر لذاته (هذا بالطبع إذا رأيت الريح والمطر وصوت الرعد دون ضوء البرق أسبابًا غير كافية) .

قبل أن أقرر ما يجب عمله جاءنى صوت الارتطام على النافذة .

ثم الأنين ..

التفت إلى الباب بحركة حادة ، فوجدته مغلقًا كما هو ، وبحركة أخرى أكثر حدة التفت إلى النافذة .

بثت نسمة باردة ثلجية فى وجهى وبللت عينى ، والارتطام صار الآن احتكاكًا ، كأن قزمًا بالغ الضالة يحاول تحطيم النافذة بكتفه ، العالم أسود بالخارج لا يمكن أن ترى فى حدوده أى شىء لكن على ضوء مريض يأتى من بداية الشارع ، خيل إلى وكأن الليل يحاول دفع نفسه دفعًا ليدخل حجرتى ، حقًا هناك تكتيلًا غريبًا من القتامة بصدد نافذتى ، كأن طائر الرعب الأسود يحاول اقتحام الثقب الضيق بها !

شىء ثقيل للغاية تماسك ضده نافذتى ، لكن الوجود الكئيب كان يحشر رأسه فى ثقب النافذة ، الريح تعوى وتعوى وأنا أموت رعبًا ، أبلع ريقى المر أتحسس فخذى ، فأعرف أن هذا ليس حلمًا .

* * *

ما الذى جعلنى لا أخشى نور الحجرة ؟

كنت أخشى أن تكون أوهامى صادقة، خفت أن يملأ الضوء الحجرة فأجد نفسى مخلوقًا مريعًا يفوق ما أراه فى أبشع كوابيس ، أو أن يكون خلفى ، فأرى كفه الهائلة المشعرة تسد فمى بينما مخالب كفه الأخرى تنتزع أمعائى ، خفت أن أجد نفسى فى المرآة مسخًا أو ذئبًا أو أن لا أجد صورتى فى المرآة أو أن أرى وجهى الهلامى ، خفت أن أضع أصابعى على زر الإضاءة فتقبض على معصمى شيطان هيكل عظمى ..

خفت أن أضغط على زر الإضاءة فلا يخرج النور من المصباح .. .

عبرت سيارة الشارع، فخمر ضوء كشافاتها الحجرة للحظة ، وكانت هذه فرصتي لكي أرى ما هنالك عند النافذة ..

لا شيء .. !

* * *

وساد الظلام الحجرة مرة أخرى في اللحظة التالية ، وفي الوقت نفسه هدأت العاصفة نوعًا ما ، ماذا إذًا ؟ هل جننت ؟ هل كانت هذه بعض الهلاوس المريضة ؟ حسنًا ، من لا تنتابه مثل تلك الخواطر في جو كهذا ؟ ولكني سمعت صوت الخدش على النافذة ، وكانت حقيقة أنني (سمعت شيئًا) ـ أضعف قليلاً من حقيقة أني (لم أر شيئًا) . هذا الواقع الذي شجعني على أن اقترب من النافذة في وجل ، وألصق الزجاج البارد بأنامل ترتجف ..

لا شيء هنالك ، لا شيء على الإطلاق .

قررت أن أعد أنا الآخر قليلاً كما هدأت الريح بالخارج ، وللعجب أنني لم أعد أرغب في إضاءة الحجرة ـ هل لا زلت خائفًا من أن أرى اللا شيء في حجرتي ؟ لا أدري لا أعرف ، لكنني جلست على المقعد الصغير عند المكتب ، كأنني زائر غريب أراه على حجرتي ، لمعت بطرف عيني «حد الموسى» فاختصر بداخلي الإحساس به بالوحدة مع شعور غريب آخر لم ألفه من قبل ، كأني في حلم ، أسبح فيه في الظلام ، وارتجف في الضباب ، وأنني سوف أمشي على السقف لأفق من هذا الكابوس فأجدني معلقًا في الفراغ ، رعب من نوع جديد هو ، رعب يحاكي الإحساس بالعدم والتوقع المبهم لحضور شخص ما بين ساعة وأخرى من الليل

أو الليل ، وبأنك سوف ترى أحدهم ، فلا يحدث شيئًا على الإطلاق ، للمرة الأولى أكتشف وحدتى التى كانت تحاصرنى منذ البداية ، جثم على أنفاسى فجأة الشعور بأننى لست على ما يرام وبأننى لن ألبث أن أقع مريضًا ، شعرت بأنى أتضاءل كثيرًا فى الحجم ، وبأن كومة الروايات على المكتب تفقد شكل حدودها الخارجية وتمتزج فى كتلة واحدة صفراء تتماوج .

« هذه الروايات سوف تقودك للجنون » هكذا قالت لى أمى يومًا ، وسخرت من هذه العبارة وقتها تصير خوفًا حقيقيًا الآن . حاولت النهوض ، وجهى يعتلى المرآة من تحت لأعلى ، بدت عيناى فى وجهى المستقع وكأنهما على وشك بلع وجهى الشاحب وجبهتى البارزة ـ شعرت كما لو أننى أسمع دقات قلبى فى هذه اللحظة بالذات ، شعرت بأنفاس تزداد ثقلًا ، وبدبيب أسود يمشى بحذر حزين فى روحى كلها ، أتحلل ببطء فى أعماق الصفحات التى امتلأت بسواد الحروف حتى كاد يطغى على ظلام الحجرة ، مزيج شنيع من النفور والتقزز والخوف ، كأننى أسير على ..

على حد الموسى !!

ظلام بلا عاصفة الآن .. ، ولكن الأمطار مستمرة تصطدم بزجاج النافذة لتثابر عليها كما تثابر خواطرى من حولى لكن تنزلق لأسفل فى خطوط لعينة ، وأزلت قصة «موم» ملقاة على حافة الفراش كحيوان صغير ميت ، لطالما اعتقدت أن مجموعة رواياتى هى كائنات حية لا يعرف الآخرون أنها كذلك ، أنا فقط ، أعلم دائمًا أن ما يحدث بين صفحاتها لا يزال حيًا يمارس تأثيره على الموجودات من حولى ، شعرت فى هذه اللحظة بامتعاض لا حد له

وبأنني أرتجف من الأعماق ، وسرت بداخلي موجة حارة كأنها مغلفة بالجليد
دارت في الدنيا من حولي ، وبأمطار مثلجة تسقط على أمعائي .

استندت براحتي يدي على المكتب ، تقلصت أصابعي قابضة بينها على
الأوراق المبعثرة لكومة الروايات ، عشيان لا حد له .

سوف أقذف ما بجوفي في اللحظة التالية و ..

وهنا حدث أعجب ما يمكن أن يحدث .. جاء القيء من الخارج بدلاً من أن
يأتي من الداخل ، هذا مستحيل الوصف !!

احتشد الظلام في الخارج في قوة طاغية لا تقاوم ، واتفجر في هيئة كيان
هائل لا يمكن تحديد ملامحه ، اتخذ شكل قذيفة سوداء عنيفة اندفعت من
ثقب النافذة واخترقت صدري ، أو بالأحرى اخترقت جسدي بالكامل وأطاحت
به ، وجدتني في لحظة أصارع طاقة جهنمية لا قبل لي بها ، وفي لحظات كالدهر
مضت غرق الكون كله في تلك الغوة الغامضة المظلمة ، وكان أن سقطت
مرتطمًا بساق المكتب فصار الظلام وكل شيء آخر دقائق سوداء متماوجة ..

ثم غبت عن الوجود تمامًا .

كنت أغرق ..

أغوص في ماء أسود راكد ملأ الحجرة حتى نصفها ، والظلام ـ لا أراه ـ
يتدفق من ثقب النافذة ، يطير في فراغ الحجرة كقطن خفيف داكن اللون ،
ثم إنه ينفصل عن بعضه كحشرات سوداء لامعة تزحف حيث رقدت على أرض
الحجرة بلا حراك ..

(إنها العقيدة القائمة على الرأى بأنه لا بداية لهذا الكون ولا نهاية ، بل يمر منذ الأزل بمراحل نمو من التوازن إلى الانهيار ، ومن بعد الانهيار إلى التحلل ، أطوار بدأت من قديم الأزل إلى الأبدية والخلود ..)

لم أشعر بصلابة الأرضية ولا بقسوتها على عظامى لأننى كنت أذوب فى قلب الليل النابض الملوث بدماء الرعب السوداء ، خواطر قديمة وحديثة تتنازع على فيما بينها ..

(لم امتدت الأطياف التى لم أستطع أن أتبين شيئاً عن حقيقة أمرها ، لشدة بعدها عنى ، وبعد قليل ، أخذت هذه الأطياف فى الاختفاء وتحولت من دائرة الضوء إلى دائرة الظلام التى ابتلعتها ، وقد يقال بأننى قد غفوت ، وأن هذه الأطياف لم تكون سوى مجموعة من الصور التى استقرت فى أعماق وجدانى غير الواعى ، وقد تكون هذه الأطياف هى صور متلاحقة من ماضى حياتى تلخصتها روحى على مر الأجيال ..)

هل جننت ؟ . كلا ، هذا كابوس .. بالتأكيد كابوس .

* * *

كم مر على من الوقت وأنا على هذا النحو ؟ لا أدرى .

كنت أفق من الكابوس ، لكنى لازلت تحت وطأة الصداع المؤلم الذى بدأ هو الآخر فى الذوبان ببطء ، كمن يشق طريقة إلى عالم الوجود بين جذوع الجدار عملاقة فى غابة سوداء كثيفة ماضيًا نحو فتحة من الضوء لا يمكن إلا الوصول إليها ..

رفعت رأسى لأعلى ، ببطء وكان هواء الحجرة يهمس فى أذنى عبارات مبهمة على عجل لا أفقه منها شيئاً. حاولت الوقوف معتمداً على يدى وركبتى، حمداً لله ، كان كل هذا مجرد حلم ردىء ..

ها هى تفاصيل حجرتى الصغيرة ، الفراش والمكتب ومجموعة الروايات ، وها هى الليلة الممطرة قد انتهت ، وملأ ضوء النهار الدنيا ، ومن ثقب النافذة اخترق الحجرة عامود من نور الشمس ، عامود مائل امتد من النافذة وغمر الروايات التى ابتل بعضها من ماء المطر الذى تسلل من ثقب النافذة ، وجزء من المكتب ، حتى سقط أخيراً على الفراش فوق حد الموس تحديداً ..

وبينما كانت آخر سفن الظلام تغادر رأسى ، وجدتنى أستند إلى مكتبى فى ما يشبه الإعياء ، لكنى كنت راضياً ، لانتهاء الليلة السابقة على الأقل ، ولغير ما سبب واضح رحت أتتبع رحلة عامود النور فى اتجاه عكسى ..

من القصة على الفراش إلى المكتب إلى منبعه عند النافذة ، وهناك ..

هناك على حواف ثقب النافذة حلقة من اللون الأحمر القاتم ، تتجمع حوله ثم تسيل فى خيط سميك لزج لأسفل ليلمس حافة المكتب ، خيطاً ثقيلاً من الدماء ..

دماء تنزف ..

من ثقب النافذة .

* * *

جهنم جهنم !

من الوساوس القديمة للإنسان الأول عن وجود عالم آخر غير عالمنا الذى نحيا فيه ، نشأت فكرته عن جهنم الرهيبة حيث تتعذب كل روح مخطئة وتلقى جزاءها ، و المادة التي يتكون منها هذا الجحيم هى بالطبع المادة التى تمثل خلاصة الأحقاد والأخطاء على الأرض : النار .

وفكرة وجود جهنم قديمة قدم الإنسان نفسه وبدأت مع اكتمال وعيه بتناقضات الأخلاق والطباع والتصرفات التي تحكم التعاملات بين المخلوقات العاقلة ، ومع إدراكه لعجزه أمام تجبر من هو أقوى منه . وكان طبيعيًا أن تكون جهنم فى وصفها هي الضد لكل ما تمثله الجنة من نعيم وبهجة وسعادة مستديمة ، وهى فى أبسط معانيها بعد الخلاص من جدال عما إذا كانت لها علاقة بفكرة العقاب وحسابات يوم القيامة وسلطة الإله ؛ وعما إذا كان عذابها مقيمًا أو مؤقتًا ، فهى تمثل الانعكاس الواضح لإخفاق المجموع الإنسانى فى تسوية نزاعاته الداخلية ووضع حلول مرضية لمشكلاته الاجتماعية . والحقيقة الثابتة فى أعماق الإنسان أنه ما دام لم يسبر كنه نفسه ، فسوف يظل الجحيم غامضًا أمامه ، لغزًا عسيرًا على التفسير .

فى (الفردوس المفقود) كتب ملتون يقول إن الإنسان يفكر باستمرار فى الجحيم ومنها ينتقل إلى التفكير فى الجنة ، ثم يفكر فى الجنة لينتقل منها إلى التفكير فى الجحيم من جديد ، وهكذا يظل مرتبطًا باليقين بوجود هذين

المصيرين النقيضين اللذين يمثلان قدره الخاص وأمله ومخاوفه . وفى كتاب جورج مينو ـ (تاريخ جهنم) ـ يعرض المؤلف فى تسعة فصول تطور فكرة الإنسان عن الجحيم منذ نشأته على وجه البسيطة وحتى العهود المعاصرة ، منتقلاً بين تصوراته عن جهنم من أفكاره البدائية إلى مناقشاته المعقدة الناتجة عن تراكمات مفهوم العذاب الأسطورى منذ الثقافة الدينية الأولى للحضارات الشفهية وحتى النظريات الملحدة الحديثة لمفكرى عالم اليوم .

إن فكرة جهنم عند حضارات الزولو والانكا والمايا والأزتك والمصريين القدماء الموغلة فى القدم والتى تفصل بينهم مساحات هائلة وأزمان مختلفة وتباين فيما بينها فى النمط الاجتماعى وأساليب الحياة والأجواء العامة والظروف الاقتصادية ، تحمل ملامح متشابهة إلى درجة كبيرة . ولكل من هذه الحضارات جهنمها الخاص ، لكنها فى النهاية تتفق فى مفهوم واحد تقريبًا عن مكان شنيع تحدث فيه الأهوال فى عالم تحت الأرض يقود إليه طريق مظلم كئيب تتعلق فيه الأشباح . هذا العالم هو مصير المخطئين والعصاة والمذنبين فى حق أنفسهم وذويهم ؛ فيحكم عليهم بالتشرد والنفى إلى هذا العالم السفلى المقبض ، وفى المجتمعات المتدينة ينضم إلى قائمة المحكوم عليهم بجهنم هؤلاء التاركين لفروضهم و للممارسات الشعائرية الخاصة بمجتمعهم ، فلدى الديانات الشرقية الرئيسية مثل الآشورية والسومرية والهندوسية والفرعونية فكرة شبه عامة عن الجحيم المؤقت الخاص بأولئك المقصرين فى أداء طقوسهم الخاصة بالدين .

وربما يكون أول ظهور للجحيم فى عالم الأدب فى ملحمتى الإلياذة والأوديسا لهوميروس ، ثم بدأ نقاشها بشكل أكثر عمقًا فى فلسفات أرسطو

وسقراط وفيثاغورث وكان هناك شبه إجماع على أن مثل هذا المصير اللعين لا وجود له من الأصل لأنه يرتبط بوجود الآلهة التى تعتبر بدورها فكرة عبثية غير منطقية !

أثناء تربع السيطرة اليونانية الرومانية على عرش العالم فى فترة ما قبل المسيح انتشرت فكرة الجحيم بمفاهيم ثلاثة : جهنم الأرضية الممثلة فى عذاب الإنسان على سطح الأرض . وجهنم الفلسفية التى يرى فيها المفكرون انعكاسًا للألم الإنسانى وهى تمثل النقيض ليوتوبيا أفلاطون . وجهنم التى تقترب من مفهومنا المعاصر التى خلقتها القوة العليا . ومع ظهور عهد الأديان يمكن للحديث عن جهنم أن يأخذ منحنى منطقى بعض الشىء . ويلاحظ أن العهد القديم لم يتحدث كثيرًا عنها وربما لم يرد ذكرها فيه على الإطلاق ، أما فى العهد الجديد فقد بدأ الكلام عنها يتضح نوعًا ؛ ولكن بشكل غير مشبع أيضًا تم اقتناصه من التقاليد الرؤيوية ومن فكرة جهنم الأرضية الرومانية ومن ذاكرة سقوط أورشليم .

لعله الأدق هو اعتماد (رسالة الرسل) المؤلفة بين عامى ١٤٠و١٦٠، فى مصر أو آسيا الصغرى والتى تصر على وجود مواجهة مباشرة بين المسيح الشيطان ، وفى عصر آباء الكنيسة كان ثمة مفهومان : جهنم شعبية تعتمد على الرؤى وجهنم اللاهوتيين التى ظلت محل تفكير وبحث . مع ظهور فكرة التطهير وتخليص الذنوب بالنار وذلك لتقوية سلطة الكنيسة الراعوية الترهيبية التى أركنت سياسات الكنيسة المعاصرة .

شهد القرن التاسع عشر نشوء طفرات فكرية عديدة أنكر بعضها جهنم المسيحية ، ورأى بعض الشعراء والأدباء في جهنم عالمًا ساحرًا ملهمًا : يمكنك قراءة ديوان أزهار الشر لشارلز بودلير وكتابات كيركيجارد ونظريات نيتشه وبالطبع ، الكوميديا الإلهية لدانتي الليجيري التي تذكرنا برسالة الغفران لأبي العلاء المعري . وفي النهاية جهنم كما يراها الإسلام والتي تعتمد أساسًا على كلمات الكتاب الكريم (القرآن) التي يصفها في أكثر من موضع ويعتبرها النقيض التام للفردوس ونعيمه ، وهي جزاء الآثمين والعصاة . وهي خالدة وأهلها خالدون ، صدقت كلمات الله سبحانه وتعالى .

* * *

أوتشى بوتشى !

مترجمة عن قصة بوب شو

تعالى رنين الجرس الصغير ، ممزقًا جدار الصمت فوق رأس (هلوين) ، وظل الرنين مستمرًا للحظة وهو يُغلق الباب خلفه ببطء ، ليجد نفسه فى حجرة بالطابق السفلى ، فى المنتصف منضدة طويلة مصنوعة من الخشب الأسود وراءها رأى بابًا أسدلت عليه ستائر من الخرز وأرفف تحمل كتبًا ودفاتر من العهد البائد . وتساءل (هلوين) بينه وبين نفسه : «لا يبدو هذا المكان فاتحة خير كبداية للمجد والبقاء ، ولكن .. لعله من الأفضل أن أحافظ على المظهر العادى المتقشف ـ خاصة فى هذا المكان من البلدة ـ ما دمت لا أرغب فى اجتذاب انتباه القوم » وراح ينقر على المنضدة بأطراف أصابعه بحماس ، وعندئذ اهتزت ستائر الخرز وظهر خلفها كهل قصير ، أنيق ، له عينان عسليتان تلمعان فى وجه فسيح . رسم على وجهه ابتسامة ود وأراح كفيه على المنضدة ثم انحنى باحترام ، وقال بإنجليزية ركيكة ـ تشير إلى إنها ليست لغة صاحبها وفى الوقت ذاته لا تحمل لهجة مميزة لأى جنسية أخرى : «عمت مساءً يا سيدى » .

سأله (هلوين) : « هل أنت هو السيد « زوريك » ؟ »

عبرت على شفتى الرجل شبح ابتسامة مريرة وهو يقول : « نعم يا سيدى .. للأسف ! »

« اسمى (هلوين) صديق مقرب للسيد (جورج لوريمر) .. إننى أحمل منه إجازة تركية ، لقد عملنا معًا منذ ستة أشهر » .

عقد (زوريك) حاجبيه مفكرًا : « (لوريمر) ؟ ! .. آه .. نعم .. أذكر بالطبع .. لقد ديرت له أموره في مكان بديع بين الحسناوات وثمار جوز الهند » .

ثم أطلق ضحكة خافتة وأردف : « هل يبدو هذا سخيفًا .. لا عليك » .

ثم سأل : « هل هو سعيد ؟ »

ـ « إنه سعيد للغاية » .

ـ « أنك ترغب إذن في إجراء صفقة مماثلة ؟ »

بلع (هلوين) ريقه ـ إذ تجاوز مرحلة البداية ـ وغمغم مرتبكًا :

ـ « مبدئيًا ! »

تلاشت ابتسامة (زوريك) نوعًا ما ولاح الاهتمام المهني في عينيه وقال :

ـ « أشك في إمكانية التعامل معك » .

احتقن وجه (هلوين) وهتف :

ـ « مستحيل ، كنت أظن أنك ستستقبلني بالآمال العظيمة وتفرش لي الأرض وعودًا بزاقة ، فأنا نفسي على المحك ، لقد كنت راغبًا دومًا في التعامل مع (جورج) .. وأنا لا أقل عنه شيئًا » .

هز (زوريك) رأسه وقال :

ـ « السيد (موريمر) شاب ، وأمامه الحياة متسعة الأفق ، كما أن لديه الرغبة في حياة صالحة ، بالرغم من أنه لو ترك نفسه حتى نهاية المطاف مطلقًا رغباته كلها لاكتسب رصيدًا نفسيًا هائلًا » .

ـ « لقد شعر سيدي بضرورة أن نقيم صفقة مع السيد (لوريمر) ، ولكن وضعك مختلف يا سيد (هلوين) » .

هتف (هلوين) منفعلًا :

ـ « إن ما تقوله لا يروق لى ، إن حياتى لم تكن سيئة على الإطلاق ، فما يدريك أننى لن أكتسب نفس هذا الرصيد الروحى .. كما تطلق عليه ؟ »

وكف عن الكلام وهو يراقب (زوريك) وهو يسحب دفترًا من أحد الرفوف ويفتحه .. ثم قال وقد استقرت سبابته اليمنى فوق فقرة بعينها :

ـ « (تورمان ستانلى هلوين) .. السن ثلاثة وخمسون عامًا .. مشكلة حادة فى القلب والأوعية الدموية .. ولم يخل الكبد من هذه المشكلات .. هل ترغب فى معرفة عدد السنوات الباقية فى عمرك بالتحديد ؟ »

صرخ (هلوين) وهو يتراجع بجسده للوراء :

ـ « كلا .. كلا .. لا أتحمل معرفة هذا ! »

ولكن (زوريك) قال فى بساطة :

ـ « أربع سنوات إلا أحد عشر يومًا ! »

هتف (هلوين) بصوت متهدج :

ـ « هذا فظيع !! »

فقال (زوريك) ببرود :

ـ « وما الذى تنتظره يا رجل ، ماذا تظنك فاعلًا لى إن لم يذل قصارى جهدى للحصول على أفضل الشروط فى هذه الصفقة ؟ »

اقترب (هلبوين) من المنضدة وقد تخاذلت قدماه فصارتا كالهلام :

ـ « صفقة ؟ هل قلت صفقة ؟! »

نظر إليه (زوريك) بتمعن شديد ، ومن خلفه وثبت على المنضدة قطة سوداء لم تحدث ضجيجًا .. ثم قال :

ـ « أما زلت ترغب فى التعامل معنا ؟ »

ـ « أما وقد بقيت فى حياتى أربع سنوات إلا أيام .. هاك اقتراحى .. سأبيعك نفسى فى المقابل » .

أسرع (زوريك) يقول :

ـ « ليس بمثل هذه السرعة .. ويجب أن أخبرك قبل أن تتابع .. لا يمكنك الحصول على مقابل مادى .. لا أوراق نقدية أو ذهب أو مجوهرات ولا تحف ثمينة ؟

صاح (هلوين) :

ـ « كل هذا الهراء لا يهمنى . ولكن ـ فقط من باب الفضول ـ لماذا لا أستطيع الحصول عليها ؟ »

هز (زوريك) كتفيه قائلًا :

ـ « هناك مشكلات فى السيولة .. وثمة شىء آخر لا يمكنك الحصول عليه وهو طلب حصولك على وقت إضافى ، لن يمكنك طلب إطالة حياتك .. الأربع سنوات الباقية هى كل ما لديك » .

أومأ (هلوين) برأسه موافقًا :

ـ « لست ساذجًا على هذا النحو .. يمكننى قضاء هذه الأربع سنوات بسعادة وكأنها أربعة قرون .. إن حياتى كانت على مستوى مادى ممتاز يحسدنى الكثيرون عليه .. بيت فخم فى أرقى أحياء المدينة .. مركز اجتماعى محترم .. مال وفير .. أما أكثر شىء تاقت نفسى إليه هو .. »

رفع (زوريك) القطة السوداء إلى صدره وقال :

ـ « ما هو هذا الشىء يا سيد (هلوين) ؟ »

أخذ (هلوين) نفسًا عميقًا وأجاب :

ـ « أريد النساء عاجزات عن مقاومتي .. أعني عاجزات حقًا .. أريدهن عاجزات عن كف أيديهم عني » .

سقط (زوريك) القطة على الأرض وقال :

ـ « هذا كل شيء ؟.. لماذا لم تقل لنا هذا منذ البداية وتوفر علينا كل هذا العناء » .

قال في لهفة :

ـ « أتعني أنك ستمنحني إياه ؟ »

قال (زوريك) في ثقة :

ـ « بالطبع .. إنني أقيم رغبتك .. النساء عاجزات عن مقاومتك .. لك هذا بعد توقيع العقود » .

ثم ابتسم وقال في تهكم :

ـ « الشكليات مهمة جدًا في هذه الأيام كما تعلم ! »

بدأت الشكوك تساور (هلوين) .. أن الأمور تسير بسلاسة ويسر غير طبيعيين .. لابد من خدعة ما :

ـ « لقد وافقت على طلبي بسرعة ! »

رد (زوريك) برقة وهو يخرج رزمة من الأوراق من تحت المنضدة :

ـ « سوف أطلعك على سر صغير .. أنك ثالث زبون قابلته اليوم يرغب في أن تقاومه النساء » .

تغضب وجه (هلوين) بالحمرة وقال :

ـ « أهذا هو ما يطلبه كل الناس ؟ »

ـ « زبائننا الذكور فقط، هل تحب أن ترى هذه النماذج .. »

قطع (هلوين) في ارتباك :

ـ « إننى على يقين من أن كل شىء سيكون على ما يرام .. لقد أخبرنى السيد (لوريمر) أنه راضٍ تمامًا عن الصفقة ، قال إنكم تقومون بتنفيذ التزاماتكم حرفيًا » .

ابتسم (زوريك) قائلًا :

ـ « يسرنى أن يكون هذا هو رأيه فى عملنا .. أرجوان توقع هنا من فضلك »

نظر (هلوين) إلى الأوراق منزعجًا :

ـ « لا داعى للتوقيع بالدم ، أليس كذلك ؟.. من الممكن أن يغشى علىّ » .

ضحك (زوريك) وسحب من جيبه قلمًا فضيًا :

ـ « حسنًا ، لا بأس بالحبر .. يمكنك استخدام قلمى .. والآن .. وقع هنا من فضلك .. وهنا .. وعلى النسخة الوردية .. وعلى نسخة الكومبيوتر .. حسنًا .. ! »

ثم اختفى القلم والعقد وصافح (زوريك) (هلوين) بابتسامة عامرة بالدفء والإخلاص ، وثبت القطة إلى المنضدة وبدأت فى ذلك الهرير المنتظم الرائع ، ثم قرد (زوريك) كفيه كأنه يعلن مفاجأة حفل وأعلن :

ـ « والآن .. ما عليك سوى العد إلى عشرة ! »

فبدأ (هلوين) وقد قرر ألا يضيع ثانية واحدة أخرى من سنواته الأربع :

ـ « واحد .. »

فجأة ..

أصبح يرى الأشياء وكأنها عبر قطع من الكريستال الملون .. لم ينتابه أى ذعر .. كانت التجربة مسلية تمامًا وبدت له أسنان (زوريك) دائرة بيضاء مصنفة .. وتابع :

ـ « اثنان .. »

بدأت قطع الكريستال في الدوران .. فاستسلم (هلوين) لدوار لطيف بهيج وتأمل متعتمًا :

ـ « ولكن ما الداعي لكل هذا .. »

وغلبه النعاس .. وهمس :

ـ « ثلاثة .. »

ثم لفه ظلام دافئ حنون ..

أيقظته فجأة أصوات متفرقة.. وجد نفسه ممددًا على ظهره ، عاجزًا عن رؤية أي شيء .. سوى بقع من الألوان لا معنى لها .. وانتابه شعور عجيب أنه معلق في الهواء ..

وعلى حين غرة .. رأى شكلًا بيضاويًا ، وردي اللون ، مبهم الملامح ، يهبط فوق رأسه ..

طرفت عيناه وهو يرى الشيء يقترب منهما.. ثم اتضح له أنه وجه ذو عينين زرقاوين ذابلتين وأنف دقيقة وفم ممتلئ مزين بأحمر الشفاه ، عليه ابتسامة رقيقة.. وسمع صوتًا يهمس ملاطفًا:

ـ « لولشي بولشي .. دا دا دا .. »

نفضت قدماه الصغيرة الطفولية ، وراح يركل الهواء بقدميه الصغيرتين ملتويًا رافضًا ، ورمى خفخيشته الخضراء اللامعة خارج نافذة العربة .. وبدا الصراخ ..

العين الثالثة

هل تؤمن بالتفاهم من أول نظرة ؟ عندما يطلب منك أحد أصحابك أن تخمن ما بكفه المغلق ، هل تقول الإجابة الصحيحة ؟ هل تعتمد على الحدس في حياتك ؟ هل تتخذ قراراتك دون أن يكون هناك سبب واضح ؟ هل تستطيع أن تتوقع ما بداخل علبة هدايا دون أن تفتحها ؟ هل تستطيع أن تتنبأ بشيء قبل حدوثه ؟ هل تحس متى سوف تلتقي بتوأم روحك ؟

بعضنا يمتلك حدسًا خاصًا يُمكّنهم من الشعور بالأمور قبل حدوثها وتوقع أشياء تحدث بالفعل ، وتنقبض بداخلهم أجزاء ما عند الشروع في فعل معين، وبالفعل يتحقق ما توقعوه ! ويؤمن الكثير منا بامتلاك هؤلاء الأشخاص لعين ثالثة تمكنهم من كشف هذه الأمور . وبعضنا يطلق على هذه الخاصية الفريدة : الحاسة السادسة . فما هي ؟!

إذا ارتدينا معطف العلماء وحاولنا جلب الحقيقة تشريحيًا فسوف نجد في جعبتنا دراسة كشفت من المحفوظات الأحفورية والأنواع الحالية عن وجود تكوين مخي شديد الحساسية للضوء يمثل عينًا ثالثة خلافًا للعينين الحقيقيتين للفقاريات ، وهي عبارة عن تبرعم ينشأ عن المخ عند سقف الدماغ الأوسط - إما أن يكون مغطى بجدار الجمجمة أولًا ويبقى حساسًا للضوء مباشرة في غير الثدييات أو على نحو غير مباشر في الثدييات ويطبق عليه الجسم الصنوبري . ويلاحظ أن حجمه يكون كبيرًا عند الأطفال والحيوانات الأصغر ، ويبدأ بالتكلس والتقهقر عند الإنسان عندما يدخل مرحلة الثلاثينيات من العمر ، حيث يتكون حينئذ من مدخرات صغيرة لكربونات وفوسفات الكالسيوم والماغنسيوم فيما يسمى بـ «الرمل الصنوبري» ويمكن مشاهدته بأشعة x .

المشير فعلاً هو ما جاء في بحث نشرته مجلة «الأم والطفل» الإنجليزية من أن الجنين لديه تلك الحاسة السادسة ، فهو يتأثر بالتغيرات المزاجية التي تعاصبها تغيرات كيميائية في جسد الأم أثناء الحمل .

كما يتأثر بما يحدث لها عند الشعور بالحزن أو الغضب مثل سرعة ضربات قلبها وسرعة تنفسها . ويتأثر أيضًا بمشاعرها ؛ فعندما تكون سعيدة ينساب إلى جسده الصغير هرمون الإندروفين المعروف بهرمون السعادة ليشعر هو الآخر بالرضا .

إن د. جوزيف مجدلاني في سلسلة علوم الأيزوتيريك يرى أن الإنسان يتكون من نوعين أساسيين من الأجسام، أوليما الجسم المادي المكون من مادة كثيفة مرئية، والثاني هو الجسم الباطن غير المرئي المكون من ذبذبات لا يمكن رؤيتها إلا بعد أن يتفتح المرء على البواطن في داخله فيراها بالبصيرة ! ويتكون هذا الجسم الباطن من : الجسم الأثيري ، الجسم الكوكبي وهو المشاعر ، الجسم العقلي وهو للفكر والذكاء ، جسم المعرفة وهو المحبة ، جسم الإرادة، شعاع الروح وهو جسم الحكمة . وتلك الأجسام الباطنية هي أجهزة الوعي الكامنة في باطن الإنسان والتي تعمل من خلالها الحواس والطاقات الباطنية فتمتد ذبذباتها من الكيان لتلامس الأشخاص والأشياء الأخرى فتلتقط الصور التي يترجمها الدماغ فيتحقق الحدس أو توارد الأفكار والبصيرة الباطنية .

لكشف الكاتبة «بلافاتسكي» في كتابها «العقيدة السرية» عن حقيقة الغدة النخامية التي يمكن تنشيطها بممارسة بعض الرياضات العامة مثل اليوجا والتأمل. وترى أيضًا أن ثمة اتصال بينها وبين الجسم النخامي طوال الحياة

الجسمانية ، فالبصير روحيًا والمتأمل يستطيع في استغراقه أن يلمح هالة نورانية مذهبة حول كل من هاتين الغدتين، وفي هاتين الهالتين تتولد اهتزازات هائلة النخامة الغدة التي تعرضها الغدة الصنوبرية على النشاط .

وفي هذا إيذان بالفتاح «العين الثالثة» ! كذلك تخبرنا بلافاتسكي في كتابها أن الجسم النخامي هو ركيزة الذهن أي الحاسة السادسة، فيما أن الغدة الصنوبرية هي ركيزة الفهم أو العقل الأرفع ، أي الحاسة السابعة ، أو أداة الكشف العقلي أو الروحي ، أي أن الحاسة السادسة توقظ الحاسة السابعة فيستعيد الإنسان استعمال ملكاته الروحية النائمة منذ أمد بعيد ، وتؤمن له العين الثالثة ليرى بها ما هو آت وكذلك رؤية أحداث تجرى في أماكن بعيدة.

نترك العلم ونفتح باب الأساطير. في عصور الإنسان الأولى وُجدت مخلوقات رباعية الأذرع أحادية الجنس لها رأس واحد وثلاثة أعين وكان بوسعها أن ترى أمامها وخلفها وكانوا يتمتعون بملكات عجيبة جسمانيًا ومعنويًا، فكانوا يعرفون أسرار السماء والأرض وكل شيء ويقرءون المستقبل في النجوم فيما يبدو! وبعد انفصال الجنسين غرق البشر في دوامة الماديات وأظلمت الطاقة الروحانية للتبصُّر، وبدأت العين الثالثة تفقد قدرتها الشهيرة فتحجَّرت وانسحبت عميقًا في الرأس وهي الآن مدفونة تحت الشعر. فمن يتمكن من الانسحاب من ماديات الحياة وتبقى نفسه طاهرة تتضخم العين عنده وتتسع ويُبصر ما هو خفي بعينه الثالثة.

ويعتقد البعض أن الحكماء هم امتداد لهذه الذرية من العبرة بقيت على الأرض لمساعدة البشر، بينما يظن العالم «مارك ليفي لوبلون» بشدة أن عقولنا ما زالت تعمل تمامًا كما كانت عليه الحال في العصور السابقة .

الرسول محمد ﷺ يسرد على أصحابه أحداث غزوة مؤتة التى دارت رحاها
ى مكان يبعد عنهم آلاف الكيلومترات ! وسيدنا موسى قبل أن يُقابل الخضر
كان على علم بأنه سيقابله فى المكان ذاته، بينما يعرف «ابن القيم» فى كتابه
«مدارج السالكين» ما يمتلكه غير الأنبياء من الوحى بأنه التحديث وقد عرف
من اولئك الذين أوحى إليهم عمر بن الخطاب . وهذا ما تحدث عنه رسولنا
الكريم فى حديث رواه أبو هريرة حيث قال رسول الله ﷺ : «إنه كان فيمن
مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان فى أمتى هذه منهم أحد فإنه
عمر بن الخطاب» . وورد فى كتاب الله الكريم ما يشير إلى أن الله أوحى
إلى أم النبى موسى فى سورة القصص الآية السابعة «وأوحينا إلى أم موسى أن
أرضعيه» .

أما ما يتمتع به المؤمنون على خلاف من وردوا فى الكتاب والسنة فهو نوع
من الفراسة أى الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية والتى ميز الله بها
المؤمن. وهذه الفراسة صنفها الكاتب «إبراهيم الحازمى» فى كتاب له تحت
عنوان « فراسة المؤمن» إلى ثلاثة أنواع تتمثل فى :

١ـ الفراسة الإيمانية : وسببها نور يقذفه الله فى قلب عبده يفرق به بين
الحق والباطل والصادق والكاذب .

٢ـ الفراسة الرياضية : وهى تعتمد على تجرد النفس من العوائق وتكون
مشتركة بين المؤمن والكافر وتلك هى التى يمتلكها عامة الناس ويطلقون عليها
الفطنة الحادة.

٣ـ الفراسة الخلقية : تعنى الاستدلال بالخَلق على الخُلق ويمكن اكتسابها
بالخبرة والمران .

أما العالم برجون فيؤمن بوجود ملكة أخرى للمعرفة غير العقل الا وهى التجربة الوجدانية والتى أطلق عليها الحدس والذى يتباين فى مجموعة من المعانى سردها على النحو التالى :

الحدس الحسى : وهو الإدراك المباشر عن طريق الحواس الإنسانية مثل إدراك الشيء .

والحدس التجريبى : وهو الإدراك المباشر الناشئ عن الممارسة المستمرة .

والحدس العقلى : الإدراك المباشر دون براهين للمعانى العقلية المجردة التى لا يمكن إجراء تجارب عملية عليها مثل إدراك الزمان والمكان .

وأخيرًا الحدس التنبؤى : ويحدث أحيانًا فى الاكتشافات العلمية وهو ناتج لمعة تطرأ على ذهن العالم بعد طول التجارب .

وكان الصوفية أكثر من استخدم الحدس فى الوصول للمعرفة حيث يرون أن المعرفة العقلية إذا ما قورنت بالمعرفة الحسية نراها أقل قدرة ورسوخًا على الاستنتاج فالحدس عند الصوفية هو نور يقذفه الله فى قلب الصوفى . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

* * *

أغنية الأضواء

(قصة قصيرة)

في مساء هذا العام، كانت الأمور تتوتر بشدة بين والدي (منها)، وفي حجرتها سمعت أن الجدال قد انتهى مع صفق الباب بشدة معلنًا رحيل الأب. قامت مسرعة إلى النافذة، وأزاحت الستار قليلًا إلى جانب واحد واختبأت خلفه لكي لا يراها وهو يخرج إلى الشارع، كانت تعرف أنه سوف يرفع رأسه لأعلى.

إن الضوء المميت لشمس توقصير الغائبة يلمع في دموع عينيها، ولا يزال وجهها متورمان من أثر بكاء الأمس. آذى الضوء عيناها فأغلقتهما للحظة حتى تحتهما من جديد كان والدها قد اختفى.

السماء العظيمة مشحونة بالمطر، لكنها كانت أضعف من المساء فسقطت عليها القطرات العارقة مباشرة من قلبها الذي بلغ سن الرابعة عشر أمس الأول، ومع الروح الطفلة خرجت مناجاة للسماء البيضاء، إن ما تشعر به الآن هو أقصى بالذنب والرغبة والخوف والألم، كل هذه المشاعر دفعة واحدة، وكلها مختلطة بشكل عجيب، لعل الأول هو أكثرها عمقًا وتبريرًا لذاته، لكنه لم يكن بنفس الوضوح الذي شعرت به في المرات التي عاقبتها فيها أمها بسبب الجدال أو عندما كانت تصرخ في وجهها لأنها نسيت أن تجدل شعر أختها الصغيرة، أو عندما كانت تشعر بالخجل عند تأنيب أمها ويضيق صدرها بينما تحاول أن تقص عليها ما حدث لها اليوم في المدرسة، إنه إحساس يختلف، ولكنه يبدأ مع العبارة المبتورة التي سمعتها في شجار الأمس:

ـ « من أجل البنتين » .

اخترقت هذه العبارة العمود الأساسي الذى يسندها من الداخل ، بالرغم من أنها لم تجد لها مغزى محدد ، أم لعلها رفضت أن تجد لها معنى لأنه سوف يكون اتهامًا لا تحتمله ا.. بالأمس كان الخلاف الحاد .. (من أجل البنتين) .. الآن يرحل أبوها أمام عينيها (من أجل البنتين) .. وهى كبرى البنتين ، فلا تزال (مارينا) فى التاسعة من عمرها ، ومرارًا كانت أمها تقول :

ـ « إنك الأخت الكبرى ، أنت بمثابة أمها ، إذا أخطأت (مارينا) ، فسوف أعاقبك أنت » .

أما المشاعر الثلاث الأخرى فلم تدر إلى أى مدى تمتد جذورها بالداخل ، ربما لأن الإحساس بها كان ظاهرا على السطح فى شكل يمكنها أن تحدد موضعه، الرغبة فى عودة أبوها وفى أن يكون كل ما حدث مجرد حلم ، هذه الرغبة تشعر بها كالمغص الحاد فى منطقة البطن ، بينما كان الألم يسرى عبر عمودها الفقرى ويسيل إلى الركبتين ، أما الخوف ..

الخوف كان غريبًا لا يمكن وصفه، كان كذراع بيضاء كهذه السماء ، ذراع ثلجية كالصلب ، بارد كالثلج ، قوية كصوت أمها ، ذراع طويلة بلا أصابع ، بل مخالب بيضاء أيضًا ، هذه الذراع تدخل فمها وتمتد عبر حلقها الجاف كالتراب ، الناعم كالجليد ، لتعتصر قلبها فى قبضة من المخالب . هذه القبضة المخلبية تحاول إخراج قلبها من مكانه عبر حلقها ا..

من خلقها صوت (مارينا) وهى تعبث ببعض فيونكات الشعر ، أسدلت الستار ، واستدارت فى اتجاه الغرفة والدموع لا زالت تملأ عينيها ..

يكرّ للحزن الذي لم يجعلها تصرخ عندما رأت ذلك الشيء !

* * *

لمحة واحدة رأته فيها .. وفي اللحظة التالية اختفى ..

* * *

(مارينا) تجلس على الفراش بقميص النوم الأبيض وفي يدها بعض الشرائط الملونة بينما شعرها المبلول لم يجف بعد، ومن خلفها . كان الشيء المعلق يملأ المكان ، كتفاه عريضان من الحائط إلى الحائط، جسده هو كمثل من السحاب الأبيض كالمعلق في أجنحة السماء وأغلقت عنه الستار الآن ، الرأس مستطيل مغطي بشعر ناعم مفرود . أبيض تمامًا . العينان عديمتا اللون .. أو ليس كظليهما لون . كلا ، كان لها لون الدم . أزرق . أزرق يميل إلى القرمزي، كل البنفسجي . الجسد يتحرك بالكامل ، ليس في أي مكان ، بل في مكانه هو ، كشلال ، يجري من أعلى لأسفل ويتناثر من على الأجناب ، أبيض كالماء الرقيق المتكاثف . من الرأس يصعد لهب أبيض . ومن العينين يسيل الدم .. ثم أحواني يجري على الصدر ويشق طريقه إلى منطقة البطن ليتشكل في الثدي .. واحدة فوق الأخرى . والدم الغامق يسيل باتحاد من على الجانبين . الاحمرار ليغذي الدائرتين ولا يحيد عن مجالهما . الشيء مربع الشيء هو الرعب ذاته . لم تكن له مخالب لكنها شعرت بوجود المخالب . لم يكن له نيب . لكنها رأته يفتح فمه ويكشف عن أنيابه . وبالأنياب والمخالب يتلوى الجسد بجسد (مارينا) أكثر من الخلف . كأنه سوف يبتلعها في جوفه الأبيض الطويل - قبل أن تفهم معنى هذا ، اختفى ..

قبل أن تصرخ ، اختفى ..

عبرت الحجرة بسرعة البرق الذى سوف يسطع فى السماء بعد قليل ورفعت جسد أختها الصغيرة من على الفراش واحتضنتها ، دفنت شعرها الميت بين دفئها وكتفها فشعرت برطوبته وبغرزة رأسها الدافئة على عنقها ، والجسد الضئيل بين ذراعيها مستسلمًا بالرغم من أنها لم تفهم ، لكن الطفلة الصغيرة كانت قد بدأت تلاحظ أن والديها يتصرفان بغرابة فى الأيام السابقة ـ على الأقل أكثر من ذى قبل ـ فلماذا لا تنضم أختها الكبرى إلى حفل المخابيل ؟..

لقد رأت أمها من قبل تتحدث إلى نفسها فى المرآة وتضحك على نكات قالها شخص غير موجود ، وعندما رأتها حاولت أن تضربها ، لكنها بدلا من هذا راحت تصرخ فى وجه (مها) لأنها قد سمحت لها بأن تتلصص على من هم أكبر منها ، وقالت لها شقيقتها فى سرية تامة أن أمهما تعانى من بعض الإرهاق الذى يلازمها منذ طفولتها عندما رأت أخوها يموت أمام عينيها ، ولقى أبوها حتفه بعد أيام وظلت تعتقد أن أمها هى السبب، هكذا عرفت (مها) الحكاية من والدها ، لكن تفاصيلها عرفتها بالكامل من عمتها .

فى حضن أختها فكرت (مارينا) أن أمها هى ملاك حقيقى ، لا تصرخ فى وجهها أبدًا ، تلقى باللائمة على (مها) عندما تخطئ هى ، بالرغم من أنها لم تحتضنها أبدا كما تفعل (مها) الآن ، ولكن الدفء الذى يتسرب إلى جسدها النحيل من صدر أختها وذراعيها لابد أنه هو نفس الدفء الذى كان من الممكن أن تشعر به فى أية لحظة لو احتضنتها أمها ، لكن أمها أقوى منهم جميعًا ، إنها لا تبكى كما تفعل (مها) ولا تشرد طويلًا كما يفعل والدها ، بل إن أصابع أمها

كبر لونه وهى تقبض على كفها الصغير ، الخاطرة الأولى كانت أن هذا مؤلم وغير عادل ، لكن ما بقى لها بعد هو إعجابها بشخصيتها ، قوة حقيقية وصلابة . وفى هذه اللحظة بالتحديد سبق ما تشعر منها ؛ فشعرت وكأن أخيها ليست إلا غريب تصادف أن يقلب لها صفحة اليقين، وفى حضنها جاءها الاستعداد لأن تعرف أشياء أخرى .

* * *

لحظة شعرت به .. فى اللحظة التالية اختفى ..

* * *

من أين جاء هذا الضوء الأبيض ؟

غير الحجرة ، لكن (مها) لم تتحرك ، كان وهمًا ؟ سمعت دوى الرعد الآن ، فهل كان البرق ؟ ولكن الستار مسدل على النافذة الوحيدة ، لكنها شعرت به ظاهرًا - شعرت بلمسته ، ناعمة ومؤلمة فى آن ، ناعمة كالحرير ومؤلمة كنبات الشوك ، ومعه تأثير ممتع بالخوف والأمان معًا كما تداعب الأمواج الباردة جسد من هو على وشك أن يغرق حالًا ، كأن جسمها النحيل الصغير ينهض لهجوم حاد لظاهرة الأنفلونزا الصينية - عضلات مشدودة ، ووخزات فى العظم والعصاب تئن - إنها ترتجف .. لكن أمواج الخوف لا تسحبها نحو أغوار اللحظة الآن ، بل تدفعها إلى شاطئ أمين .. هو حضن شقيقتها .

* * *

شعرت بشفتى (مها) وهما تقبلان شعرها المبلول فسرت فى جسدها رعشة دافئة ، طفلة بسنوات عمرها التسعة تجد الخوف رمزًا رومانتيكيًا مثل إصرار

أختها على أن يسكنوا فى منزل له شرفة تطل على القمر ، ومثل كفها الرقيق وهى تدهن شعرها بزيت الزيتون ، ومثل طعم الـ (هافانا) الذى لم تعد لها ترتديه لكنها لا زالت تحتفظ به على سبيل الذكرى ، ومثل نعومة حركات قطها (كيك) وهو يغير من جلسته فى حجرها .

* * *

الخوف ، الخوف ، الخوف .

* * *

إنه هو ذلك الكيان الأبيض المدهش الذى ظهر فى لحظة واختفى فى لحظة ، والذى خرج من دخان القلق الدائر هنا ليدفعها فى حضن أختها ، فتحية لهذا الخوف الذى منحها كل هذا الدفء والأمان .

كم من الوقت ظلت (مارينا) بين ذراعى شقيقتها ؟ لم تعرف أيًا منهما ربما دقائق ، وربما ساعات ، لقد أظلمت الحجرة مما رجح الاحتمال الثانى لكن الواقع أنه عندما رفعت (مها) أختها إلى صدرها لتحميها من .. منه ! وبينما ظلت هذه الأخيرة تقف على ركبتيها على الفراش ترتجف بين كفى (مها) ، لم يستغرق هذا أكثر من ثلاث دقائق فقط .

هل كان ما رأته (مها) حقيقيًا ؟ إنه لم يستمر لأكثر من ثانية فظنت أنها تهذى ..

هل ما شعرت به (مارينا) حقيقى ؟ ربما .. على أية حال فقد ظلت (مارينا) ملازمة للفراش طيلة الأيام الخمس التالية لهذه الليلة ، ارتفعت حرارتها ، ونسبة

(مها) كل شيء عن الشيء الذى رأته يهاجم أختها (أو هكذا تخيلت وقتها) لأن الأمور قد ازدادت عمقًا بمرض (مارينا) ، خاصة بسبب أمها التى ظلت تلعن والدها لتركهم فى ظروف كهذه ..

وإلى جوار فراش (مارينا) جلست (مها) بين جلد شقيقتها الساخن والدواء المر والأقراص البيضاء والمنديل المبتل ، وسط كل هذا أمضت (مها) الوقت ، بين تأمل سحب الشتاء خلف النافذة المغلقة وبين محاولة أن تجد شيئًا من المتعة فى الصفحات الأولى لـ(آنا كارنينا) ، الزوجة تكشف خيانة زوجها مع خادمة فرنسية ، لم تجد ما يدفعها لمواصلة القراءة ولكن عندما قرأت على لسان الأمير (ستيفا) : أنها لن تصفح عنى .. إن الذنب كله ذنبى أنا ! ، خطر ببالها أن أمها سوف تنهرها الآن عن مواصلة القراءة ، وأيضًا فكرت أنه سوف يكون رائعًا لو أن هذا الزوج الخائن ـ الشجاع ـ كان أبوها ، لكنها نحت هذا الخاطر بسرعة عن عقلها ، وكذلك نحت الرواية المملة وعثرت أصابعها على رواية مترجمة لـ (إيرام ستوكر) هى (مصر الثعبان) ، عرفت أنها لن تمل بسرعة ، وكانت البداية شائقة ، بالرغم من أنها لم تكن مثيرة للهلع كما فى (كونت دراكولا) التى قرأتها بعد أن شاهدت الفيلم ، الحقيقة أنها تقريبًا شاهدت عدة أفلام به عنها ، كلها بالأبيض والأسود وتقريبًا حفظت ملامح كل من قاموا بدور على الدماء الرهيب ـ طبعًا عندما يتألقون ويتبادلون المجاملات مع ضيوف العشاء وليس عندما يروق لهم احتساء مشروب أحمر اللون ، ففى هذه الحالة يعز الأنياب وتصبح الشفاه فى لون الدم ـ سوداء اللون على الشاشة ، لكنها بالأبيض كأحمر شفاه غالى كالذى تستعمله غانيات باريس ، كما راق لها أن تتأمل وهى تتأمل المرأة التى حاول الرسام أن يجعلها مثيرة لكنه فشل ، على

غلاف (سافو) ـ والثاب الأبيض دائما يلمع قبل أن ينغرز فى رقاب الحسناوات. لا تسقط قطرة دم واحدة ، لكن أحمر الشفاه أعطاها الإيحاء بأن الدم يسيل من رقبة الفتاة أو من فم الكونت النهم . كل مصاصى الدماء سواء، لكنهم بين السادة لكل منهم وجه مختلف حسب من يؤدى الدور ، (كريستوفر لى) (ريجى نالدر) ، (فرانك لاندیلا) ، (فرانسيس ليدبربر) ، (بيلا لوجوسى) ، حفظ أدق تفاصيل ملامحهم والاختلافات الشخصية فى حركاتهم ، بالرغم من أنه لم تعرف اسم أى منهم ، وجدت أنه لمن المثير للإعجاب حقًا أن ترى إمكان الرجل أن يبدو وسيمًا مهذبًا بادى الرقى ، يتكلم بهدوء الأرستقراطيين ويتصرف بأخلاق الجنتلمان، بينما هو قادر على أن يحكم قبضته على مملكة الليل وأن يجعل من رجال العلم تابعين ، وأن يفتن الفتيات البريئات معدومات الحيلة .

* * *

يأخذها الخيال فتتمنى لو كان لوالدها كل خصال الكونت الرهيب ، وفى منطقة أبعد تجد أنه لا بأس أن تكون هى نفسها ضحية مصاص الدماء الجميل الغامض، وقادها (ممر التعبان) إلى (مقبرة الفئران) ووجدت متعة لا توصف فى هذه النوعية من القصص التى وجدتها فى أغراض خالها الذى سافر إلى الخارج، كانت بينها كتب غليظة الحجم نوعًا، (شجرة الجازورينا)، (أشياء تتداعى)، (أن تملك وأن لا تملك)، (يد الله الأكيدة) وغيرها . وقد أحبت أن تقرأ كل هذه الكتب يومًا لكنها كانت سريعًا ما تمل عند الصفحة الخامسة فى أى منها ولم تفهم ـ بأعوام عمرها الستة عشر ـ المقصود من بعض تراكيب الأحداث ، ولم تجد الإمتاع الذى منحته لها قصص أخرى أقل عددًا فى الصفحات ـ مثل قصص

(بوكر) و(آرثر كونان دويل) ـ في هذه القصص مغامرة تبدأ وتنتهي .. وهناك المزيد من الرعب ! ممتع أن يرتجف جسدها وهي تقلب الصفحات التي ترى فيها يدي (أرابيلا) تتحول إلى دودة بيضاء هائلة على سطح البرج أمام عيني السكينة الهشة (ميمي) ، فكانت هي نفسها (ميمي) الساذجة ..

* * *

فهل كانت الدودة البيضاء العملاقة هي فقط يدي (أرابيلا)؟!.

* * *

من فوق روايتها ألقت نظرة على وجه (مارينا) الشاحب .. هل ما تشعر به؟ وهي تقرأ هذا الآن هو حقًا تجربة جديدة عليها ؟.. هل تتعرف على الخوف للمرة الأولى ؟.. هل كان ما رأته منذ أيام هو مجرد حلم ردىء تراه في يقظتها؟.. مجرد خيال متعب ليس إلا ؟

إنها لا تعرف إجابة أي من هذه الأسئلة .. كل ما تعرفه هو أنها تقرأ ـ فقط ـ لتستعيد ذكرى الخوف الذي لم تفسر وجوده .. تحاول أن ترى الشيء مرة أخرى بين صفحات القصص .

* * *

وفي الليلة التالية لعرض شقيقتها رأت (ميا) الشيء مرة أخرى ..

* * *

كانت ـ كاليوم السابق ـ مع أختها الراقدة على الفراش طوال اليوم . أعطتها فرصة جيدة لتقرأ . أو لعلها وجدت القراءة نفسها فرصة لتهرب من

المزاج السيئ لأمها ، إنها تطلب منها أشياء كثيرة مرهقة لا تريد معظمها في الحقيقة ثم تنفجر في وجهها صارخة بلا داع ، لكي يعم على الأرض السلام كانت تغلق الباب عليها وعلى (مارينا) وتغوص في المقعد (الفوتيل) المجاور للفراش وتقلب بين الروايات بحثًا عن واحدة لم تقرأها . اكتشفت أنها في هذا اليوم قد انتهت من جزء كبير من قصة (ستوكر) ـ (قحت غروب الشمس) ولكنها دون سبب واضح قررت أن تبدأ (أنا كرانينا) من جديد ، كأنها تبحث عن حالة تناسب الجو المحيط بها ، وهذه المرة شعرت بأنها تفهم ما يحدث ، بدءًا من (إن العائلات السعيدة كلها تتشابه أسباب سعادتها ، أما العائلات التعيسة فإن تعاسة كل منها سببًا خاصًا يختلف عن أسباب تعاسة غيرها) وحتى حل موعد الحفلة الراقصة الكبرى ، (كورسانكي) الوسيم يدعو (كيتي) إلى الرقصة الرباعية الأولى ، وعندما أحاط خصرها الرقيق ، وضعت (مها) شريط الأسبرين الفارغ بين الصفحات لتحديد موقعها من الكتاب قبل أن تنهض ذاهبة إلى الحمام لكي .. لكي تغسل وجهها .

بالرغم من أنها قد اعتادت على أن تترك أمها الصالة مظلمة ، فقد انقبض قلب (مها) عندما فتحت بابا الحجرة لتواجه الجو المعتم إلا من الضوء الأزرق المتموج المصاحب لأصوات من زمن مضى تراه أمها الآن من خلال فيلم عربي قديم على شاشة التلفاز في حجرة المعيشة مفتوحة الباب في نهاية الصالة .

قبض الوجوم قلبها ، كأن هذا الظلام هو ـ وحده ـ خطية العالم الكبرى التي لن يغفرها إلا الله ، لابد أن الدنيا قد أظلمت على هذا النحو عندما قرر (هيرودس) أن يقتل الأطفال خوفًا على عرشه .

إلحق أقول لكم أن ركبتى (مها) فى هذه اللحظة كانتا عبارة عن نوع من الهلام الذى لم يمكث طويلًا فى الثلاجة ، وبدا لها أن باب الحمام فى الناحية الأخرى من الصالة هو باب جهنم أو الباب الذى سوف تفتحه على نفسها لن تنساه حتى لو عاشت ثمانين عامًا .

وهناك ترتجفان كأنهما تتقدمان على حافة سفينة بينما هى لا تجيد السباحة ، وتظل الفتاة بانتظارها خلف باب الحمام ، كأن أعضاء مجلس (السنهدريم) سوف يصدرون عليها حكمًا ظالمًا الآن .

والآن فقد تذكرت ـ رغم أنها لم تنس قط ـ الكائن الشنيع الشكل الذى لمحت وجوده خلف شقيقتها من قبل .. فها هى تتقدم الآن لتفتح باب الحمام الشيء إلا لتراه واقفًا بطول المكان مستعدًا لالتهامها (وربما لفعل ما هو أسوأ).

وبدا لها (الطريق) الأسطورى إلى الحمام فى هذه اللحظات (التى مرت بطيئًا وكأنه جسر التنهدات الذى كانوا يسوقون عليه المحكوم عليهم بالإعدام ليمنحهم مدى الحياة من قصر (دوجيه) إلى جسر (فينيسيا) القديم .

ويقف الكائن الرهيب الذى يشبه تمثالًا هائل الحجم الآن بانتظارها خلف باب الحمام .. (مافيش حاجة تقدر تبعدنا عن بعض) ، الأصوات تأتيها من البعيد البعيد حيث يحتضن (شكرى سرحان) كتفى (فاتن حمامة) ، لكن هذا لم يمنعها من أن تسمع صوت فحيح الشيء خلف الباب .

فكرت فى أن تعود أدراجها إلى حجرتها ، نعم ، سوف تعود وتجلس على الفور المريح بجوار سرير (مارينا) ثم تقنع نفسها بأنها ليست فى حاجة إلى

دخول الحمام الآن (ربما ولا فى هذه الليلة) ثم تستكمل قراءة (أنا كارلينا) من حيث توقفت . نعم . ربما كان هذا لن يبعث على الراحة . لكنه بالتأكيد أكثر أمانًا . .

لكنها يجب ألا تصدق فى وجود عالم الغيلان والعفاريت وما إلى هذه الأمور . كما أنها فعلًا فى حاجة إلى دخول الحمام الآن . والإرخاء والضغط النفسى والجلوس لساعات فى جو الحجرة البارد والوسادة التى وضعتها على معدتها وهى تقرأ . كل هؤلاء يؤكدون أن نداء الطبيعة يجب أن يلبى ا بالرغم من خوفها تتقدم كالمخدرة . أكثر وهنًا من أن تنهض عنها المخاوف . أكثر ضعفًا من أن تتخذ قرارًا بالرجعة .

بعد لحظات سوف تحدث المأساة . . سوف يظهر الشىء ليفتح فمه الذى يشبه مقبرة ليبتلعها . . سوف . .

* * *

عن مارى الدموية وتناسخ الأرواح

(رافى شنكار) طفل هندى بدأ يحكى لدكتور(إيان ستيفنسون) أستاذ الطب النفسى بجامعة فيرجينيا الأمريكية ذكريات غريبة حدثت له وهو فى الثامنة من عمره مثل لعبة غير مفهومة القواعد ، وفيل مصنوع من الخشب ، وكرة من المطاط فى مكان ما ، وبالإضافة لذلك أنه قد قتل من قبل ! وعندما حاول أن يتأكد دكتور(إيان) من هذه الذكريات بالذات ، أكد الطفل أنه مات مذبوحًا ! ليس هذا فقط لقد وصف قاتليه بمنتهى الدقة وألقى القبض عليهما لم اعترف أحدهما بتنفيذ الجريمة . أما الألعاب التى ذكرها الطفل فيؤكد الوالدان أنها كانت له بالفعل، ولكن موضوع الذبح من الرقبة فغريب عليهما بعض الشىء .. الواقع لم يكن غريبًا تمامًا فهو منذ ولادته توجد علامة غريبة حول عنقه . علق هذا الكلام عام ١٩٦٤ من خلال عشرين حالة درسها (د. إيان) فى دراسته عن تناسخ الأرواح ، وبغض النظر عن المناقشات الدينية أو العقائدية الخاصة بالموضوع ، فيه به من الغموض ما يكفى ليستحق البحث والتحرى .. وقصة (مارى الثورية) التى يعرفها الكثيرون ليست بغريبة تمامًا .. لا تعرفها حقًا ؟ حسن ، سنحكيها باختصار ..

عاشت (باسكال لافارج) حياة عادية جدًا لدرجة الملل حتى مارس عام ١٩٨٨ عندما اكتشفت قدرتها على الاستبصار ورؤية الحياة الماضية ، وهكذا تتحول باسكال العشيقة الجوية فى يوم وليلة إلى عرافة ، ربما هو تراكم قراءاتها المستمرة فى علم النفس والدروس الروحانية التى كانت تحضرها بشكل منتظم عن الوسيط (ريمون ريان).. وفى الثامن من الشهر المذكور أخذت (باسكال)

خطوة للأمام فضمت إليها عددًا من المضيفين والمضيفات(جان بول لينيه) و(آن ماري لوبلان) ـ صديقتها الحميمة ـ و(الويزا جامبارتيو) ، ووافق الجميع رغبة في خوض تجربة جديدة ولو بدافع الفضول .

التف الأصدقاء الأربعة حول منضدة صغيرة وأمسك كل واحد بيد جاره ليكون هناك نوع من الاتصال ، وأغمض كلٌ منهم عينيه وغاب بأفكاره عن كل شيء ثم غابت الأفكار ذاتها في حالة من صفاء الذهن وسرعان ما تخلى الجميع عن إمساك الأيدي وبدت (باسكال) في حالة تركيز بالغ ثم بدأت تحكي أشياء وتفاصيل راح زملاؤها يدونونها بسرعة . قالت (باسكال) بصوت جديد عليها : « إن هذا الجو يعود بي إلى أيام الثورة الفرنسية ، عام ١٨٤٨ تحديدًا ، وفي شارع اسمه بوريه أو بوديه . إنه شارع مرصوف ومبلط بالحجر في اتجاه متصاعد وبه بوابة خشبية تمر بها العربات . وخلف هذه البوابة توجد ثلاث بنايات صغيرة تشكل في مظهرها نصف دائرة . وعلى مسافة قريبة يوجد محل لا يزيد ارتفاعه عن ٨٠ سنتيمترا وفوقه نبدو نوافذ من زجاج تفصلها قوائم خشبية لها لون بني مكتوب عليها حروف ورموز باللون الأسود » .

راقت التفاصيل لكل من (جان بول لينيه) و(آن ماري) و(الويزا) فعاشوا الحلم رؤيتها للألوان والأسماء والنقوش على قوائم النوافذ الخشبية وأبدوا استعدادًا بعض الكلمات التي لم ترد عليها . وتابعت بلهجة أكثر حدة : « مهلًا ! إنهم يحاولون اغتيال رجل يبدو على مظهره الوقار ويحمل في يده أوراق هامة هذا الرجل رئيس تحرير صحيفة هامة فيما يبدو ، ويمارس دورًا خطيرًا في سياسة الحكومة الفرنسية » ثم وصفت اقتراب سيدة من المحل سالف الذكر

ترى بعينيها حادث اغتيال الرجل وسرقة الأوراق التى كان يحملها . إنها تندفع نحوهم تحاول منع الجريمة ، وترى فى يدها علم فرنسا ، وتعرف أنها تورية إن اسمها (مارى) ، تعقص شعرها بطريقة عملية ، وتعرف أشخاصًا نافذين فى الحكومة من بينهم (مارى فرانسوا) .. أم هى (مارى فرانسيس) . الاسم لا يضع تمامًا فى رأسها .

إذن فهذه المرأة تقوم بدور العميل المزدوج فى هذا الوقت .

بعد هذه الزيارة العقلية الخاطفة لحياة مارى تعود (باسكال) إلى المحل حيث ترى هناك كتابًا أحمر ذو غلاف سميك مكتوبًا عليه اسم (مارى) . وهنا توقفت (باسكال) عن القص . وقالت (أن مارى) : « يوجد بالفعل شارع فى باريس اسمه (بوريه) » .

توقفت الحكاية عند هذه النقطة ، وقرر الأصدقاء الأربعة التحقق من القصة . وبالفعل وجدوا شارع بوريه فى الحى التاسع عشر بباريس . وهو كما وصفه (باسكال) تمامًا . الرصيف والبلاط والمحل المعروف .

دخلوا المحل ووجدوا أطنانًا من الكتب القديمة . وبعد عدة ساعات من البحث والتنقيب عثروا على الكتاب الأحمر وعليه اسم العائلة (مارى) وداخل الكتاب لوحة توضيحية لامرأة تحمل علم فرنسا وتنطلق فى الشارع فى أيام الثورة الفرنسية . فكيف رأت (باسكال) هذه التفاصيل الدقيقة فى الحلم !

بدأت (باسكال) الكتاب وتصفحته جيدًا وهو بحوزتها ، ووجدت صورة تطابق أوصافها لرئيس التحرير الذى تعرض لمحاولة الاغتيال واسمه (الوبلان) والذى كان بالفعل رئيسًا لتحرير صحيفة ما . ويورد الكتاب قصة الرجل الذى كان

عائدًا ذات ليلة من الصحيفة ليتعرض لمحاولة اغتيال ، وعثر عليه قتيلًا غارقًا في دمائه بالقرب من منزله .

المشهد عينه الذى راته (باسكال) بالتفصيل في جلسة تحضير الأرواح . وبعد المزيد من البحث عرفوا أن الرجل كان صديقًا مقربًا من لوبلان الذى وجد هو الآخر مدفونًا فى مقابر الأب لاشيز .

اتجه الأصدقاء الأربعة لزيارة المقبرة ، ولفت نظر باسكال هناك منظر شاهد قبر رمادى مهيب وقد نقش عليه خمسة أسطر . بينما تابع الأصدقاء بحثهم عن المقبرة . وفجأة دار رأس (آن مارى) وشقّه صداع رهيب ، فاندهش الجميع وشعروا بالهلع ، عدا باسكال التى بدا عليها أنها قد فهمت السر . وأشارت لهم ليروا السماء المكتوبة على شاهد القبر : (لوبلان ـ مارى)

إذن فقد كانت مارى عشيقة لوبلان ودفنت معه فى نفس المقبرة . هنا توجس الجميع خيفة وشعروا أن هذه المصادفات بين الرؤية الغامضة والماضى والحقائق المخيفة التى تتضح شيئًا فشيئًا أكثر مما يمكن احتماله .

أما الصديقة المرتابة (آن مارى) فقد هاجرت إلى الولايات المتحدة بعد أن صارت حياتها سلسلة من الوساوس التى لا تنتهى !

* * *

لهب بارد

(قصة قصيرة)

بزغ الفجر فى السماء أصفر باردًا .

لكن هنا فى منطقة الشيلات ببورتوفيق خنقت عاصفة ترابية سماء فبراير، ودفعت الريح بعنف إلى الشارع الرئيسى فاستسلمت لها أشجار الزينة على جانب الطريق ، وكسوة السيارات القليلة التى وقفت منفردة أمام أبواب الفيلات والبيوت ذات الطابق الواحد معلنة عجزها بلا مقاومة .

كان (رشدان) : حارس المنطقة ، قد احتجز فى كوخه ذى السقف الصفيحى والجدران الخشبية على بعد سبعة أمتار من أقرب فيللا إليه ، وقد تجمدت دقيقه العتيقة غير المعمرة .

إنه ينتظر العاصفة هنا ويتسلى بالعبث فى مفتاح المذياع المربوط بأسلاك مطاطى انتزعه من سروال قديم ليثبت به البطاريتين الجافتين من الخلف للوراق، والأصوات تأتى منه متقطعة مختنقة ، وفى الخارج تعوى الريح وتتحول إلى صراخ . فينظر (رشدان) فى توتر ثم يعود إلى المحاولات الفرقاء مع مذياعه .

إنها الريح رغم كل شىء !

لكن الريح لا تخدش الأبواب .. ولا تترك ظلالاً مستطيلة على الأرض !!

يظهر من مكانه ، رجلاً ضخم البنيان ، بدينًا ، يرتدى كنزة صوفية زرقاء حال

لونها وزى رجال الأمن الرسمى ولفافة تبغ تتدلى من ركن فمه ، ووجهه الذى يحمل قسمات أهل الريف تضيئه الانعكاسات البرتقالية من مصباح الكيروسين المعلق من السوق . يعود الخدش من جديد . لا أحد يربى الكلاب هنا ! فما هذا ؟

ثمة كلابة معدنية باردة من الخوف تقبض على قلبه ، كان هذا موسمًا سيئًا فى السويس هذا العام .

قبل أن يقرر ما يجب عمله حيال هذا الصوت ، يستطيل الظل أكثر أمام باب كوخه . هناك صوت ارتطام كأنما شىء ثقيل يشكل يضرب الجدار خلف ظهره .. يتراجع .. يضرب الجدار من جديد .. يرتجف الجدار الخشبى خلفه حيث ألصق بوستر مهترئ الأطراف لفريد الأطرش ونهب نسمة باردة ثلجية من السقف الصفيحى .

يتجمد (رشدان) فى مكانه غير فاهم ما معنى هذا .

الظل الذى يكسو الأرض أمام كوخه ، والضرب على الجدار الذى بدأ يصدم ظهره ! يحاول العبث فى جيوبه بحثًا عن خرطوش البندقية وأن يدعم اللوح الخشبى وراءه فى الوقت نفسه ، لكن قبل أن يمد يده إلى المقعد الذى يجلس عليه ، ضرب الشىء المجهول الجدار بقوة غير معقولة ، مهشمًا إياه من أعلاه إلى أسفله . يتماسك الجدار لحظة .. يهتز رأسيًا .. يدخل الشق الناتج فيه رأس أبيض عملاق وعيناه الصفراوان تتوهجان بين جبين أزرق ووجنتان كالعجين الأزرق ..

هل كان هذا أكبر كلب رآه (رشدان) فى حياته ؟

هل كان هذا أكبر وحش رآه (رشدان) في حياته ؟

ويزمجر فيما يشبه كلام البشر إلى درجة مرعبة !

يتهاوى الجدار أخيرًا ، يتحطم ، يستسلم .

وفي لحظة أصبح الشيء المريع بالداخل .

في ركن الكوخ كانت هناك علبة الخرطوش بين أدوات أخرى .. التقطها (رشدان) وأمسكها .. علبة من الكرتون البني ، مدعمة بإطار معدني أسود مكتوب عليه أرقام كثيرة وكلمات إنجليزية .. يمزق الورق المغلوي بأسنانه ، بينما الثاني يشق طريقة بالداخل ويعوي .. عيناه الصفراوان تتوهجان صوب الرجل العاجز في الركن .. أبيض كأنه مخلوق الجليد .. وكأنه عاصفة ثلجية تدخل من الباب الذي تهشم في منتصفه .. يثب وهو يعوي ، بينما (رشدان) ينتزع الطلقات الحمراء كلها من العلبة .. تعوي الرياح وتعوي .. يبدأ الصراخ .. فالشيء جارح .. يوخز مخالبه في بدن الرجل ويهم بعض عنقه .. الكائن الضخم يملأ الكوخ ويتكاثف بالداخل كالدخان السميك .. (رشدان) يفقد السيطرة على جهازه العصبي .. يزحف إلى بندقيته التي سقطت .. يعمر طرفها المعدني البارد ويبدأ في سحبها بين أصابعه .. الأنياب كالشفرات الحادة تجرح عنقه .. اللعنة !.. أي مخلوق هذا ؟

يقبض على طرف ماسورة البندقية رغم الألم والرعب .. تستقيم في يده .. يمد يده الأخرى الخراطيش مضمومة إلى صدره فيما بينه وبين الغول الذي يهاجمه من حيث لا يدري .. يضرب بكعب البندقية مصباح الكيروسين الذي يتدلى من أعلى .. يتهشم ويسقط فوقهما ، يبلل الكيروسين صدره إذ ينسلل

عبر ملابسه الصوفية .. وتفعم أنفه الرائحة العطرية المميزة للسائل الجاهز للاشتعال .. الفتيل الملتهب يلحم الشعلة في قماشة الثوب فوق صدره .. الأنياب تنغرس في جانب عنقه .. والنار تولد فوق قلبه مباشرة .. نصل إلى علبة الفرطوش ..

الأنياب كالإبر ..

رائحة الوقود ..

اللهب الحارق ..

و ..

ينفجر كل شيء ، ويبتلعه قلب الوردة الجهنمي ..

في الخارج ظل عويل الريح مهتاجا منتشيا لا ينقطع .. كل شيء هو الشتاء الأسود والليل القاتم .. سواد مدلهم لا تضيئه سوى شعلة ضخمة كانت منذ دقائق كوخ الحراسة الذي ينعم فيه (رشدان) بحياته ، على الأقل ..

* * *

من هنا وهناك

في مركز الأبحاث التابع لجامعة (أوهايو) قام فريق من الباحثين بصنع جهاز له القدرة على إعطاء معلومات دقيقة عن ارتفاع درجة الحرارة وزيادة نبضات القلب وارتفاع ضغط الدم وكل هذا عن طريق خط التليفون ، وذلك حتى يتمكن المرضى الذين يعانون من مشاكل في القلب والأوعية الدموية من الإطمئنان على أحوالهم الصحية دون الحاجة إلى الذهاب إلى الطبيب المختص مرتين في الأسبوع كما هي العادة . وكل هذا يتم عن طريق جهاز صغير في حجم علبة الكبريت يتم وضعه في الجزء الأعلى من خلايا الصدر ، ويمر جهاز أو حساس عبر الوريد ليستقر في البطين الأيمن للقلب وعند الضرورة أو محاولة الاستفسار يعطي المريض إشارة معينة للجهاز عن طريق عصا ممغنطة أطلق عليها مصممو الجهاز اسم العصا السحرية) وبذلك يعطي للجهاز إشارة البدء ، فيبدأ هذا الأخير على نقل المعلومات الحيوية التي حصل عليها من قلب المريض عبر رقم (03) الذي يرسل هذه المعلومات من خلال الهاتف إلى جهاز الكومبيوتر في مكتب عيادة الطبيب المعالج . وهكذا فإن الأطباء يتمكنون بسرعة من التدخل في الحالات الطارئة ، ليس هذا فقط بل التمكن من منع حدوث مضاعفات غير مرغوب في حدوثها ، لأن الجهاز الجديد قادر على اكتشاف التغييرات الجديدة على المريض قبل أن يشعر بها هو نفسه ، ويؤكد المختصون متطوعًا أن الجهاز يعمل بكفاءة تامة دون التعرض لأية أعراض جانبية ، وأعلن مبتكرو الجهاز أنه سوف يتم استخدامه على نطاق واسع خلال الأعوام الأكثر .

قام (بيدرو موناجاس) خبير الإلكترونيات بتجربة بالغة الطرافة إذ درس ولمدة عام الاختلافات الطفيفة بين صرخات الأطفال ! وبعد عامين آخرين ابتكر الجهاز الذى أطلق عليه (واى كراى) ـ (Why Cry ?) ـ معناها (لماذا يبكون؟) وهو جهاز صغير فى حجم كف اليد، يقوم بقياس ذبذبات بكاء الطفل الرضيع وقياس درجة قوته وخلال خمسة وعشرون ثانية تظهر على شاشة الجهاز إحدى خمس صور وضعها (بيدرو) كاحتمالات بكاء الطفل وهى : الانزعاج أو الضغط أو عدم الراحة أو الجوع أو النوم . وهنا كل ما عليك هو أن تضع الجهاز أمام طفلك الذى يصرخ ليقيس شدة بكاءه ويقدم لك السبب بنسبة صحة تصل إلى (٧٨٪) بعدها تقلب الجهاز لتقرأ على ظهره النصائح التى يقدمها لك (بيدرو) لكل مشكلة من المشكلات الخمس . الجهاز بدأ تداوله بين الآباء والأمهات بالفعل ، ويخشى خبراء سيكولوجية الطفل من أن يحل هذا الجهاز محل الأم أو الأب فى حياة الطفل !!.

اكتشف عدد من العلماء بجامعة (ميريلاند) جينًا خاصًا موجودًا فى اللون الأسود والكائنات الحية سوداء اللون ، وبدراسة هذا الجين أثبتوا أن الشعر الأسود أو الفرو الأسود يقى من كمية كبيرة من الأمراض وتم استخراج هذا الجين من الأرانب السوداء وبدأ المحاولات فى استخدامه كعلاج لبعض الحالات المرضية، الأمر الغريب هو اكتشافهم أن جين الفرو الأسود فى الفأر الأمريكى يستطيع مقاومة مرض الإيدز نفسه ، وقد أثبت العلماء فعالية هذا الجين فى القضاء على فيروس الإيدز !!

أجرى الباحثون في (هامبورج) عدداً من التجارب على قائدي السفن الذين اعتادوا معاقرة الخمور ، وقاموا باختبارات للدم للكشف عن الكحول ووجدوا أن مدمني الخمور يقعون في أخطاء كبيرة للإشارات العائمة المعلولة ومن ثم وقوع العديد من الحوادث بين السفن ، وأكد الباحثون أن تناول الكحوليات يسبب عمى الألوان وذلك نتيجة تأثير الكحول على الأعصاب وإتلاف خلايا المخ !

لقد اعتدنا على أن يخرج علينا خبراء تربية الأطفال بأبحاث عديدة تؤكد خطورة إدمان الأطفال لألعاب(الفيديو جيم) معللين أنها السبب الرئيس في زيادة نسبة العنف الموجودة لديهم ، لكن الغريب أن يكون لدى الباحثين في جمعية البحث العلمي على الأطفال بجامعة (روشستر) الأمريكية بنيويورك رأيا مختلفاً ، إذ أعلنوا مؤخرًا أن ألعاب الفيديو جيم تنمي عملية الإدراك البصري لدى الطفل بشكل كبير وتقوم بدور مهم في إحداث تغيير جذري فيما يتعلق بلحظة الانتباه البصري لدى الطفل ، لاحظ كيف يتحرك الطفل بجسمه وهو يتابع بعينه الأحداث السريعة على شاشة الفيديو جيم ، وهو يراقب الكواكب السفن الفضائية المهاجمة مثلاً بينما عقله يعمل للتفاعل مع اللعبة من خلال أطراف أصابعه ومجموع قبضته، وأكد الباحثون أنهم قد أجروا أربع تجارب أثبتوا من خلالها أن الأطفال الذين يمارسون ألعاب الفيديو باستمرار يمكنهم إدراك معلومات مرئية وبيانات معقدة ـ بالنسبة لسنهم ـ أكبر من الذين لا يمارسونها!

تقرير خطير وضعه جهاز الصحة العامة بالولايات المتحدة الأمريكية، يشير إلى أن (٢٦٪) من الأمريكيين يعانون من البدانة المفرطة ، ومعظمهم

يتعرض لأخطار مرض السمنة مثل مشكلات القلب والربو، ويُرجع خبراء التغذية الأمريكيون السر فى بدانة الشعب الأمريكى إلى كمية الأطعمة غير الصحية التى يتناولونها والتى تحتوى على كمية كبيرة من الدهون والكربوهيدرات (المشويات وسكريات) ونسبة اللحوم العالية فى وجباتهم وقلة تناولهم للخضر والفاكهة وممارسة التمرينات الرياضية !

و(نيوزيلندا) تقدم تقريرًا مهمًا تحذر فيه من إهمال الأمهات لتغذيتهن الصحيحة فى فترة ما قبل الحمل وخلال الأيام الأولى للحمل وأكدت أن ضعف تغذية الأم الحامل قد يكون سببًا قويًا فى الولادة لأطفال مبتسرين (قبل الميعاد) ، وكان السبب فى إجراء هذه الدراسة هو ملاحظة زيادة ظاهرة (نجاح الأطفال المبتسرين فى أنحاء مختلفة من العالم (وخصوصًا فى الولايات المتحدة الأمريكية) بسبب اهتمام بعض السيدات برشاقتهن عن طريق تبنى حمية خاصة تصل إلى الرجيم القاسى أحيانًا !!

واقعة طريفة من نوعها حدثت عندما أعلنت السفارة الأمريكية فى لبنان عن رغبتها فى إذاعة فيلم تسجيلى قصير عن التليفزيون الرسمى بلبنان ، وهذا الفيلم الهدف منه ـ كما أعلنت السفارة ـ هو محاولة إثبات اندماج العرب والمسلمين الذين يقيمون فى الولايات المتحدة مع المجتمع الأمريكى ، ولكن قوبلت هذه الدعوة بالرفض من جميع الجهات المسئولة (بالإضافة إلى القنوات الخاصة) حتى إن قناة المستقبل التى يملكها رئيس الوزراء اللبنانى (رفيق الحريرى) والتى وافقت على الأمر بصفة مبدئية ، أعلنت هى الأخرى رفضها الآن !!

تقدم (دانيال ليبسكيند) بمشروع فاز به فى المسابقة التى أعلنتها إدارة نيويورك وهو عبارة عن تشييد مجموعة من المبانى التى تتكون من سبعين بناءً وإضافة رأس برج مذنب يصل طوله إلى(٥٤٠ مترًا) فى مكان مركز التجارة العالمى الذى تم تدميره فى ١١ سبتمبر ، وفى وسط هذه المجموعة والتى أطلق عليها (حديقة الأبطال) توجد كتلة من الصلب تمثل أعلى مبنى على وجه الأرض وقد وافق على هذا المشروع عمدة نيويورك (مايكل جلومبرج) ومحافظ الولاية (جورج باتاكى) . ومن المتوقع أخذ آراء أقارب الضحايا الذين لقوا حتفهم فى حادث تفجير مركز التجارة العالمى ، وذلك بغرض إجراء التعديلات اللازمة على البرج ، وطبقًا للتقديرات المبدئية فإن هذا المشروع سوف تبلغ تكلفته الثلاثة وثلاثين مليون دولارًا !!

بعد أن أطلقت محطة الفضاء الأمريكية (ناسا) صاروخها الأخير والذى حمل على متنه إنسانًا آليًا لجمع عينات مختلفة من تربة سطح كوكب المريخ ، أثبتت دراسة أجراها باحثون أمريكيون نظرية معروفة تؤكد أنه توجد أشكال بدائية للحياة على سطح الكوكب الأحمر الغامض وذلك بعد أن أعلنت (ناسا) وجود (كريستالات) على سطح المريخ جاءت ضمن العينات التى أحضرها (الروبوت) ، هذه الكريستالات لها صفات كريستالات البكتريا العائلة التى توجد على سطح الأرض ، كما تطابقها شكلاً لدرجة مذهلة !!

يمكنك أن تجالس (دافيد هارت) وأن تداعبه وتلاعبه وتتحدث إليه طويلاً دون أن تكتشف أنه كفيف ، كل ذلك من خلال غلاف رفيق معتم من البلاستيك يحميه من الناس والميكروبات ، ذلك : لأن (دافيد) مصاب بعاهة نادرة منذ مولده ، إذ إن أطرافه

العصبية شديدة العصبية للمس ، فيصاب بالآم شديدة لو لمسته أي يد مهما بلغت رقتها ونعومتها ، كما أن مناعة (دافيد) للأمراض لا وجود لها بالمرة ، ولا يحتمل زيارة أي ميكروب له ولذلك فهو يعيش بأسلوب خاص ، فيتلقى دروسه عن طريق دائرة تليفزيونية مغلقة ، ويستقبل زملاء الدراسة عن طريق الهاتف ويحاول أن يعيش حياة طبيعية قدر الإمكان ولكن ، بدون لمس !!.

قام البحار الإنجليزى (إيريك بيترز) بعبور مسافة طويلة من المحيط الأطلنطى داخل برميل طوله (١٩٧سم) فى رحلة استغرقت ٤٦ يومًا ، بدأت من جزر كناريا فى شمال غرب إفريقيا ، إلى جزر جراديلوب فى شمال أمريكا اللاتينية ، أما الطعام الذى كان يتناوله يوميًا فهو عبارة عن ٢٢٥ جرام من زيت الزيتون و٢٢٥ جرام من اللوز ونصف لتر ماء ... وبقى أن تعلم أن وزن البرميل كان ٥٠ كيلو جرامًا .

أثناء رحلة صيد (هارودل باترسون) عام١٩٣٦ أصيب برصاصة فى وجهه ورفض الطبيب المعالج استخراجها بحجة أن خروجها قد يسبب من المخاطر ما يفوق وجودها ، رغم أنها صنعت فجوة صغيرة أسفل الرأس ولأنها لم تكن تسبب أى ألم فقد تركها الطبيب فى رأس (هارون) وتجاهل أمرها تمامًا .. فى عام١٩٦٠ انتابت (هارولد) نوبة سعال حادة فقذفت بالرصاصة خارج فمه !!

توجد فى (فرانكفورت) ساعة صممها مهندس ألمانى شهير ، كان فيها باب صغير يفتح فيخرج منه فارس على صهوة جواده يعلن عن عدد الساعات بطلقات صدس فى يده ، ويعلق مصممها على ذلك قائلًا : (إن هذه هى أفضل طريقة لقتل الوقت) ..!!

ثلاث قصص

مترجمة عن خ. ل. بورخيس

«مرآة الحبر»

يقولون إن أكثر حكّام السودان قسوة في التاريخ هو «يعقوب المريض»، والذي ترك بلاده فريسة لجامعي الضرائب المصريين. هذا الرجل مات في إحدى غرف قصره في الرابع عشر من قمر برمهات عام ١٨٤٢. وثمة من يؤكد أن «عبد الرحمن المسعودي» هو الذي قتله مستخدمًا في سبيل ذلك السم أو الحجر. وربما هو قد مات ميتة طبيعية على الرغم من ذلك كله. إذ كان اسمه (المريض)، وقد قابل القبطان (ريتشارد ف. بيرتون) هذا العرّاف في عام ١٨٥٣ سارِدًا الحكاية التي أوردها كما يلي:

«كان صحيحاً أنه نتيجة المؤامرات المدبّرة بأمر أخي (إبراهيم) بالتعاون مع الحيوة عديمي النفع في بلاط الرؤساء السود بكردفان، والذين قادوه نحو الضلال، أن قاسيت الأسر بقلعة (يعقوب المريض)، وقد قتل أخي على ظهر الحلة حمراء الدم. إلا أنني ألقيت بنفسي بقوة وحرارة على قدمي المريض الحنا، وأخبرته بأنني عرّافًا، ولو أنه أنقذ حياتي، فإن باستطاعتي أن أريه الكثير من العجب ومظاهر تفوق ما يمكن أن يراه في المصباح السحري. فطلب الطاغية البرهان الفوري. طلبت قلمًا ودواة، ومقصًا وورقة من النوع الفيني وقصب وبعض الشحم الحي في طبق. بعض بذور الكسبرة قليلٍ من الحناء واللبان. قطّعت الورقة ستة شرائط. على الخمسة الأوائل الحت تعاليم ورقس. وعلى الأخيرة كتبت هذه الآية من القرآن الكريم:

و لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ». ثم إننى سحبت قالبًا سحريًا إلى كف اليعقوب اليمنى . وطلبت منه أن يجوفها. وفى المنتصف تمامًا صببت بقعة حبر . سألته إن كان يرى نفسه واضحة منعكسة فيها وأجاب بأن نعم . أخبرته أن يثبت هكذا ولا يرفع رأسه . سكبت بذر الكسبرة والجاوى واللبان فى الطبق. وعلى الفحم المتقد أحرقت الرقى ثم أعلنت له أن يسقى الصورة التى يجب أن يراها . نظر إلىّ لحظة وهو يفكر ثم أنه قال : « جواد ... جواد برى ... من تلك الجياد البديعة التى ترعى على حدود الصحراء » . ثم نظر إلى نقطة الحبر . رأى العشب الأخضر المستوى الرائع. بعد لحظات رأى الجواد يتسحب . مقتربًا بخطوات رشيقة كالنمر ، بعلامة بياض شاهق على وجهه . وعندها طلب منى قطيع جياد من نفس النوع الأصيل . وعلى الأفق البعيد تبدت أمامه غيمة من غبار . ثم جاء القطيع . لحظتها فقط عرفت أننى قد نجوت بحياتى ومنذ ذلك الوقت وللأمام. عندما يبزغ الخيط الأول للفجر ، يدخل جنديان إلى زنزانتى ويذهبان بى إلى حجرة نوم المريض حيث الحبر المعلق والطبق المجهز والبخور ، وطلب منى أن يرينى وأريته . كل ما يمكن رؤيته فى هذه الدنيا . إن هذا الرجل ، والذى لا زلت أكرهه ، وجد فى راحته كل ما يراه البشر ، الموتى منهم والأحياء : مدن ، أجواء ، ممالك الأرض مقسومة عليها، الكنوز المخفية فى باطن كهوفها ، سفن تجوب البحار ، أدوات الحرب المتقدمة ، آلات موسيقية ، معدات للجراحة الدقيقة ، فتيات حسناوات ، مجرات ونجوم ، الألوان التى استخدمها الأثمون ليدهنوا بها صورتهم القبيحة . معادن ونباتات بأسرارها العلاجية وخواصها التى لم تكتشف بعد وظلت تسكنها: ملائكة نورانيون ، لا غذاء لهم ولا شراب إلا

تسبح بحمد الله ومجده: هبات وعطايا منحت في الهيئات العلمية ، أزلام
لطير ، والملوك المدفونون في قلب الأهرامات ، الثور الذي يحمل الدنيا في
رنه ، والسمكة التي تسبح تحته : فلاة الله الواسعة وأشياء وصفها مستحيل
ثم لطرق التي تضاء بمصابيح الغاز ، والحوت الذي يموت إذا سمع صرخة
م إنسان . وذات مرة طلب مني أن أريه تلك المدينة التي اسمها أوروبا . فجعلته
ير الشوارع الرئيسية بها ، ورأى في نهر البشر العظيم ـ حيث كليهم ينشج
السواد ومعظمهم يضع العوينات على وجهه ـ رجلًا ذا قناع حنا منذ البدء
نع ـ بملابس سودانية أحيانًا وفي حُلّة نظامية أحيانًا أخرى ، لكنه دائمًا
والعجاب على وجهه ـ منذ ظهر وحتى الآن وهو يلازم كل الصور التي تراها .
م يختفِ عن الحضور أبدًا ، ولم تجسر على تحديد علامته . إن الصور
ي مرآة الحبر كانت في البداية تبقى ثابتة بجمود أو زائلة كالزئبق . لكنها
الآن صارت مركّبة وأكثر تعقيدًا . تتشكل لتكوين ما أطلبه منها دونما إبطاء
حتى تراها الطاغية في منتهى النقاء . وبالتالي كان عنف المشاهد المتتالية
يجعلنا في حالة من الإرهاق الروحي الشديد . فكل ما كنا نراه هو التعذيب
بالطوربان وتنفيذ الأحكام بالإعدام وعمليات البتر ومسرّات الجلادين ومباهج
الفاة بمحاكم التفتيش . وهكذا ، حتى جاءنا فجر الرابع عشر من قمر برمهات ،
الموافق نقطة الحبر في راحة الطاغية . وأحرقت التعاويذ فوق دخان الجاوي
بالبخور . ما من مخلوق سوانا نحن الاثنين . أمرني العريض أن أريه عقابًا قانونيًا
قبل الاستئناف ، في جسده ذلك اليوم شهوة لمشهد إجراء إعدام . جعلته
أحد القوم الذين تجمعوا لرؤية الحدث العظيم، فارعي الطبول وجلد العجل
المذبور ، يظهر الجلاد ناشرًا سيف العدالة باهر المنظر ، أخبرني (يعقوب)

باسمه : « ذاك هو (أبو فير) الذى أعدم أخوك (إبراهيم) . والذى سوف يحتم على قدرك عندما أوهب العلم باستحضار هذه الصور كلها دون مساعدتك » .

سألنى أن أحضر المجرم فى الواجهة ، وحين تم له مطلبه . رأى أن الذى سينفذ فيه حكم الإعدام المدان . هو ذلك الرجل الغامض ، فأسقط فى يد الطاغية وشحب وجهه .

أعطانى الأمر بكشف الحجاب قبل تنفيذ ما اقتضته أحكام العدالة ، عندها رميت بنفسى تحت قدميه صارخًا : « يا ملك الملوك وسيد الزمان ، هذا الشبح لا شبيه له بين الآخرين ، إننا لا نعرف اسمه أو اسم أى من آبائه ولا حتى اسم المدينة التى ولد فيها . وإننى لا أجسر على العبث بالصورة ، أخاف أن أتعرض لخطيئة تفيدنى بالوصف » .

ضحك العريض وأقسم أن يتحمل هو مغبة ذلك وأن يأخذ الذنب على عاتقه لو أنه كان هناك ذنب من الأصل ـ أقسم على السيف وعلى القرآن بهذا .

عندئذ طلبت من المحكوم عليه أن يتجرد ، وأن يوثق إلى جلدة العجل ، وأن يزيح القناع عن وجهه وتم تنفيذ هذه الأوامر ...

وأخيرًا ، اصطدمتا عينا يعقوب بالوجه ـ كان وجهه !

فأعمى الرعب والجنون كيانه ، كانت يدى ثابتة ويده ترتعش ، لمرته أن يواصل مشاهدة الاحتفال بموته ....

والحق يقال ، لقد سحرته المرآة لدرجة لا توصف حتى إنه لم يحاول أن يحيد ببصره أو يسكب الحبر ، وعند رؤيته السيف ينهال على رأسه المذنب خرج من حلقه عواء لم يحاول أن يجعله مثيرًا للشفقة ... ثم إنه سقط على الأرض كالحجر ، ميتًا .

* * *

« قـــرض »

أنا حطاب ... اسمى لا يهم .

الكوخ الذى ولدت به وأموت فيه عما قريب ربما يكون على حدود الغابة ..

يقولون إن الغابة تمتد أبعد من البحر الذى يطوق الأرض كلها ... من ثم ما يجرى على كوخى يجرى على بقية الأكواخ العشبية الأخرى ...

لا أعرف إن كنت رأيت البحر أو جانب الغابة الآخر ...

عندما كنا أطفالاً جعلنى أخى الأكبر أقسم ما بيننا أن نقطع الغابة كلها حتى لا تبقى ولا شجرة واحدة .

هان أخى ...

إلا أن ما أفتش عنه الآن ـ وسوف أستمر فى البحث عنه ـ هو شىء آخر !

عند حافة الغرب يجرى جدولاً أعرف كيف أصطاد فيه بيدى ...

فى الغابة توجد ذئاب ...

الذئاب لا ترعبنى ...

فأنى حقيقة معى باستمرار !

عن عمرى ... لا تسأل ...

لقد كبرت بما يكفى ، لكن عينى فقدتا الإبصار ..

فى القرية ، لم تعد لدى أى مغامرة ، لأننى حفظت أغلب الطريق ... واشتهرت فى البخيل ... ولكن ... كم من الكنوز يمكن لحطاب مثلى أن يجدها !

ولكى أتفادى الثلوج ، أغلق باب بيتى بإحكام بواسطة صخرة ...

فى أمسية ما مرت علىّ ، سمعت خطوات مكدودة تقترب ...

دقه على الباب ...

فتحت ...

دخل غريب ..

عجوزًا وطويلًا كان ... ملتفًا فى حرام رث ... على وجهه ندبة .. يبدو على سنينه أنها منحته السطوة أكثر من الوهن ...

لاحظت أنه غير قادر على الحركة دون الحاجة إلى العكاز ...

تبادلنا عدة كلمات لا أذكر منها حرفًا ...

فى النهاية قال :

ـ « لا مبيت لدى .. أنام حيث أكون ... ترحلت فى طول وعرض بلاد السكسون » .

هذه الكلمات امتحنت عمره ...

سمعت عن بلاد السكسون من والدى ...

هذه البلاد التى يسميها الناس اليوم إنجلترا ...

أطعمته خبزًا وسمكًا ، ولم ننبس ببنت شفة أثناء الطعام ...

بدأ المطر فى الهطول ...

وفى المكان الذى مات فيه أخى على الأرض وضعت له حشية وبعض الجلود ...

وعندما هبط الليل نمنا .

وحين تركنا الكوخ كان أول خيط للفجر قد ظهر ...

كف المطر وتغطت الأرض بثلج سقط أخيرًا .

سقط عكازه وطلب مني أن ألتقطه ..

سألته :

ـ « ولماذا يجب أن أطيعك ؟ »

رد :

ـ « لأنني ملك ! »

إنه مجنون حتمًا ؛ هذا ما اعتقدته وأنا ألتقط له العكاز وأناوله إياه ..

والآن تحدث بصوت مختلف :

ـ « اسمي (إسيدن) من شعب الأردن »

قلت :

ـ « أنا لا أعبد أودن ، بل المسيح » .

تابع :

ـ « أنا ملك السكسون ، جلبت لشعبي النصر بعد معركة حامية الوطيس ، لكني في الساعة المحتومة خسرت مملكتي ! »

نظرت إلى وجهه وهو يقول :

ـ « رحلت عبر ممرات المنفى .. لكني لا زلت الملك ... لأنه لا يزال لدي الرجل » .

ثم صمت لحظة واردف :

www.riwaya.ga

ـ « هل تحب أن تراه ؟ »

فتح راحة يده النحيلة ... لم يكن فيها أي شيء .. وقتها فقط تذكرت أن يده كانت مغلقة دائمًا -

نظر إلى محنقًا وقال :

ـ « يمكنك أن تلمسه .. »

بشك لا آخر له لمست بطرف إصبعي راحته -

أحسست بشيء بارد ورأيت وميض !..

أغلقت اليد بإحكام ...

لم أقل أي شيء

مضى الرجل بنفاذة صبر يقول :

ـ « إنه قرص أودن ... له جانب واحد ... في العالم كله ليس هناك من شيء آخر له جانب واحد ... »

ثم قال بلهجة مختلفة :

ـ « وما دام القرص معي فأنا الملك ! »

سألته :

ـ « هل هو من الذهب ؟ »

أجاب :

ـ « لا أعرف . إنه قرص أودن وله جانب واحد فقط » .

عندها ، وهناك ، شعرت بجشع لا يقاوم في امتلاك القرص -

لو كان عندى لأمكننى استبداله بقالب من ذهب وأصبح ملكًا .

قلت للمتشرد الذى أصبحت أبغضه الآن :

ـ « فى كوفى دفنت صندوقًا من العملات ... كلها من الذهب وتلمع كفلوس ... لو أعطيتنى قرص أودن . شاليا ذلك الصندوق » .

قال محنقًا :

ـ « لا أريد .. »

هتفت :

ـ « إذن اغرب عن وجهى » .

أدار ظهره لى ...

ضربة واحدة بالفأس على رقبته من الخلف كانت أكثر من كافية ليلقى ربه ...

وبينما كان يسقط انقضت يده ...

رأيت الوميض فى الهواء ...

كأن همست أن أحدد المكان بفأسى ..

سحبت الجثة إلى جدول الماء ...

وهناك رميت به ...

وفى رحلة العودة إلى الكوخ رحت أفتش عن القرص ...

لم أجده ...

كان ذلك منذ سنين ...

ولا أزال أفتش

* * *

« مسألة »

لنفرض مثلاً أن أحد سكان (توليدو) قد عثر بالصدفة على ورقة مكتوبة بخط عربى ، وعندما يبحثها علماء النفس يجزمون أنها مكتوبة بخط سيدى (أحمد بن على) الذى منه أقتبس (سيرفانتس) دون كيشوت .

ونقرأ المكتوب : أن البطل كما هى الحكاية ـ يجول عبر ربوع ألبانيا ، معه السيف والرمح ، يتحدى كل من يقابله ولأى سبب . وعند نهاية إحدى معاركه التى لا تحصى ولا تعد ، يكتشف أنه قد قتل رجلاً .

عند هذا الحد تنتهى القصاصة وينتهى النص ... وعلينا أن نخمن كيف تصرّف دون كيشوت .

وحسبما أرى فإن هناك احتمالات ثلاثة للحل :

الأول: حل سلبى ... لا شىء على الإطلاق ...

أعنى لا شىء على وجه الخصوص ...

فالقتل فى عالم دون (كيشوت) الهلامى ليس أقل شيوعًا من السحر .

ومسألة أن يقتل رجلاً لن تثير ريبة شخص يقاتل ـ أو يعتقد واهمًا ـ أنه يقاتل الشياطين وأهل السحر .

والثانى : حل مثير للدموع .

لم ينجح دون (كيشوت) فى نسيان أنه كان ظلاً لـ (ألونزو كينشيانو) ، قارئ الحكايات الخرافية . عندما رأى الموت أدرك أن حلمًا يدفعه لأن يحترف بجريمة قابيل ، فاستيقظ من توف الجنون ... ربما للأبد .

الثالث : أجدر بالتصديق .

بعد قتله الرجل ، لم يتمكن دون كيشوت من الاعتراف بأن هذه الخطيئة م
هي إلا هذيان سخونة المرض، وحقيقة التأثر تفرض عليه الصداقة مع السيب
والصدق . وبهذا لا يحيد دون كيشوت عن جنونه .

ويبقى حل آخر ، بعيد عن عالم أسبانيا ، وعالم الغرب بالكامل . يتطلب
وقتا مستحيلا ، أكثر سوادًا وتعقيدًا ، وأشد إملالاً : أن دون كيشوت الذي لم
يعد دون كيشوت بل ملكًا من أراضي الهندستان ، يعرف بالفطرة ، حالما يقف
أمام عدوه ـ جثة عدوه ـ أن القتل والميلاد ، طقسان سحريان لهما قدسية
خاصة ، وأنهما يتجاوزان الشرط البشري .

لقد عرف بأن الرجل الميت ، وسمه الملوث بالدم في يده ... وكل حياته
السابقة ... والأرباب العمالقة ، والكون ..

وهم !

لقد مات (ميلا نكتون) أخبرتني الملائكة إنهم قد أمروه مضللين بدائر مثل
التي عاش بها في الدنيا ...

هذه الأمور تحدث للمستجدين على الخلود فور وصولهم على أية حال ؛ إذ
يكونون جاهلين بموتهم ، ويعتقدون إنهم لا زالوا في دنياهم أحياء ..

كل الأشياء في حجرته تشبه التي كانت قبلاً ...

نفس المكتب كامل الأدراج ، أرفف بالكتب التي عليها ...

وبمجرد أن يستيقظ (ميلانكتون) في مستقره الجديد يجلس إلى مكتبه
ويستغرق في أدبيات العمل الذي انشغل به لأيام عديدة؛ كان يكتب عن

البرد بالإخلاص مجردًا ... ولا كلمة عن المحبة ... هذا الحذف كانت تلحظه الملائكة فما كان منهم إلا أن أرسلوا إليه من يسأله فأجاب «إني أثبت رغم كل شيء !» قالها في تصميم « لأنه لا شيء في المحبة يؤنس للروح ، وكي تجني الخلاص يكفي الإخلاص » .

بتصميم وثقة قالها غير عالم أنه من الأموات وأنه من المقدور لهم أن يرقدوا خارج السماء ، وإذ جاء رده إلى الملائكة تركته على عجل .

بعد مضي أسابيع قليلة بدأ الأثاث يبهت في حجرته ثم يختفي ، حتى لم يتبق له في النهاية سوى مقعد بمسند ، الورق والمحبرة على المنضدة. تساقط الجير من على جدران حجرته وتبدت الأرضية كالزجاج المصنفر وازدادت ملابسه خشونة .

أدهشته هذه التحولات لكن لم يكف عن الكتابة عن الإخلاص ذاكرًا المحبة...

وظل ثابتًا على مبدأه حتى نقلوه إلى إصلاحية تحت الأرض حيث قابل هناك لاهوتيين مثله ...

بعد أيام من الحبس بدأ يشك (ميلا نكتون) في تعاليمه ، من أجل ذلك سمحوا له بالعودة إلى حجرته السالفة ...

كان الآن يرتدي جلدًا يفرو ... لم يفهم لكنه حاول أن يقنع نفسه أن ما يحدث له لا يزيد عن هلوسات حادة فعاد من جديد يفرط في تمجيد الإخلاص مستهترًا بالمحبة ...

ذات مساء ، شعر (ميلا نكتون) باليرد ...

بدا يتفقد المنزل فاكتشف أن الحجرات الأخرى لا تماثل حجرته فى داره القديمة بالدنيا ...

فى حجرة منها عثر على أدوات لم يعرف أى شىء عن طريقة استعمالها ...

حجرة أخرى تضاءلت حتى إنه لم يستطع تبيان مدخلها ...

الحجرة الثالثة بقيت على حالتها لم تتغير ...

لكنها انفتحت نوافذها وأبوابها على ركام رملى ممتد ...

أحد الحجرات الخلفية احتشد فيها أناس يسجدون له ويرددون أنه ما من أفرنى حصيف مثله ظهر فى الوجود ...

أطرته الإطراء ...

لكنه لاحظ أن بعض مريديه كانوا ممحوى الأوجه والبعض الآخر موتى ، تلاشت النهاية أن مقتهم من أعماقه وساور قلبه الارتياب فيهم ...، وعقد العزم فى هذه اللحظة على أن يكتب شيئًا يخص المحبة ...

أما العقبة الوحيدة أمامه كانت أن ما يكتبه اليوم ليس مقدرًا له أن يرى ما بعده ...

والسبب كان أن الصفحات تكتب بدون اقتناع ...

زار حديثو العهد بالموت جاءوه فشعر بالعار من مثواه الجديد ولكى يطمئنهم بأنه يسكن السماء استأجر ساحرًا هادى بهىّ وعندما يذهب الزائرون - أطلقها أحيانًا - يشحب الاحتفال ويبقى الجير المقشر ...

آخر ما سمعته عن (ميلا تكتون) ، أن الساحر وأحد الرجال ممحوى الوجوه قد اختفيا بعيدًا إلى ظل الرمال حيث يقوم الآن بخدمة الأرواح .

طقوس شامانية

بعد فترة من الزمان (تطول أو تقصر) ، يعود الميت مرة أخرى ليقض مضاجع الأحياء . هكذا كانت التصرفات الغريبة في أماكن مثل جبال الهيمالايا وبين قبائل الليبو والشربا تعزى جميعًا إلى عالم خاص ، عالم مجهول شديد الغموض .

الميت العائد حسبما يؤمن القوم في شعب الليبو ، هو الإنسان عندما يموت ميتته الطبيعية فإن الشامان (الذي يؤدي شعائر الدفن) يذهب في صحبة هذا الميت إلى العالم الآخر ، ويعتقد أهل الليبو أن هذا العالم يقع إلى الغرب من عالمهم إلى جانب الشمس والقمر ، وبالرغم من هذا فإن ضوءهما لا يخفي هذا العالم ، بل إن ضوءهما يسطع خافتًا إلى جواره .. وفي نهاية رحلته يصل الشامان بالميت إلى منطقة البحيرات ، ليغرقه في بحر الدموع ، الذي يمتد وراءه أول حد لقرية الموت . وهناك يناديء على الأسلاف البادية ظلالهم على الضفة الأخرى ، ويطلب منهم أن يعتنوا به .. وفي هذه الأثناء ، تتعلق به بعض الأرواح ، وتصاحبه إلى عالم الأحياء .. عالمنا .

على أية حال فإن هذه الطقوس ليست سرية تمامًا بالنسبة للأحياء هناك ، إذ إن هذه الشعائر تؤدى أمام أهل القرية الذين يتجمعون في منزل الفقيد .

ويعيش كل سكان القرية في منازل صغيرة ، ويقيم حديثو الموت في مساكن تشبه مساكن الليمبو هذه الأيام ، أما الموتى منذ فترة طويلة فإنهم (بطبيعة الحال) يعيشون في منزل كبير نسبيًا . وفي المقابلات التي توالى إجراؤها مع

يخ القبيلة هناك وأشهرهم تارابيه الذى ادعى أنه قد بلغ قرية الموتى هذه
ن عالم الأحياء ، وإمعانًا فى تصديق ما يقول يروى الحلم بتفاصيله الدقيقة ،
يقول : « إن الموتى هناك يلبسون عمامة ورداء من القماش زاهى اللون، أما
لفيل فسوداء اللون تمامًا !! » وبالطبع، فإن هذه الأقوال تضاربت إلى حد
ير فى كل شىء .

فلماذا يعود هؤلاء الموتى لتنغيص حياة الأحياء ؟

لعل تفسير هذا يمكن فى كون بعض هؤلاء الموتى لا يستطيعون بلوغ قرية
الموتى هذه إطلاقًا وإنما يبقى معلقًا فى رحلة الـ «ما بعد» الذى لا يستطيعون
استكمالها إلى قرية الموتى.. فى «ليبانج» ظهرت إحدى الحالات، وذلك عند
ناس أهل الدار قطة داخل الدار التى أغلقت فى ليلة التيجد على جثمان
الجدة المتوفاة، هذه القطة راحت تتمسح فى الجسد المسجى ، فعلة هذه
القطة لمست الجسد المتوفى ، مما جعل هذه الجدة لا تصل أبدًا إلى مرحلة
الملاف . ونادرًا ما تحدث مثل هذه الحالات، فقد جرت العادة أن الميت يصل
لى استيفاء فى قرية الموتى، وذلك بفضل الأحياء الذين يوفون بالعهد دائمًا .

الشامانى فى زعم البدائيين هو كالعراف أو الطبيب ، إلا أن الفارق هنا
ى دور الشامانى يبدأ بعد أن يموت المريض أو الشخص المعنى بالعناية ،
اختفاء الشعائرى ليس هو النشاط الوحيد الذى يمارسه الشامانى ، فهو يتاجر
تعلمه فى التطبيب ليكسب قوته كأى فرد فى المجتمع ، وفى الحقيقة فإن
طبيعة التقاليد هناك تتطلب ألا يطمح الشامانى فى الربحية طالما أن روحه
الطبيعة تطالبه بأن يكون زاهدًا ، أما بالنسبة لمركز الشامانى الاجتماعى فقد
اختلف على مرور الزمن خصوصًا بعد اعتناق الإسلام .

والشاماتى مثل العديد من المهن يمكن أن يكون رجلاً أو امرأة ، فالشامانيون فى شعوب الأوزبك والنادجيك يغلب عليهم أن يكونوا من النساء ، وبالنسبة للقوقازيين ، والتركمان ، والقرغيز ، والكاركلباك ، والأوجر فيغلب عليهم أن يكونوا رجالاً ، ومرة أخرى فإن دخول الإسلام ـ الذى حد من انتشار النشاط الاجتماعى للشامانية هو الذى أدى إلى أن يقتصر النشاط الشامانى تقريبًا إلى محيط المرأة .

أما الأدوات التى يستخدمها الشامانى ، فإنه يرتدى ثيابًا بيضاء غالبًا (على الأقل أثناء تأدية الشعائر) وبعض الشامانيين الرجال يحبون ارتداء أزياء النساء (وهذه العادة كانت منتشرة فى واحة خوارزم ووادى فيرجانا) ، ويمكن تفسير عادة التخنث فى الثياب هذه (والتى يعود تاريخها إلى الفترة السقيتية) بالمعتقد القديم الذى كان سائدًا فى آسيا الوسطى بأن الروح الحارسة للشامانى كانت أنثى فى الأصل ، لهذا فإنها تحب أن ترى نفسها وهى محتواة فى الشامانى (فى المظهر الخارجى على الأقل) ، هذه الفكرة يعارضها باحثون مثل «بوجوراس» و«ستراتبرج» الذى يعتقد بوجود علاقة جنسية بين الشامانى وروحه الحارسة . والشامانى يحتاج فى عمله إلى آلة موسيقية ، إنها آلة تشبه الطبلة، تخترق جلدها فتحات صغيرة لاستقبال الأرواح التى يستدعيها الشامانى أثناء أداء الشعيرة. ويستخدم الشامانى أداة تشبه السوط يستخدمها فى طرد الأرواح التى سبب أذى للمكابدين، أما العصا والخيرزانة التى كان يستخدمها الشامانى من قبل فلم يعد يستخدمها إلا الدراويش .

ومع شعائر معينة يستخدم الشامانى مرآة ، ودلو ممتلئ بالماء، كما أنه يستخدم فى بعض الأحيان ـ كنتيجة لتأثير الإسلام ـ المسابح وكتب الصلوات

التى لا تقرأ ، بل ولعلها لا تفتح من الأصل فى أغلب الأحوال) .

والشامان يقيم مذبحًا صغيرًا يحتفظ فيه بأدواته والأطعمة التى يقدمها إلى الأرواح ، ولذلك يحجز منطقة شديدة الخصوصية فى حالة طهارة شعائرية وذلك لتستخدمها الأرواح التى يعتقدون إنها ترتبط بمصير عائلة الشامان .

وعمليات الرصد البحثية تجد أن لجلسة تحضير الأرواح الشامانى معنى خاصًا بالنسبة للمشاركين فيها ، لأنها تمثل رحلة الشامانى إلى العوالم الأخرى بحثًا عن روح المكابد ، أو زيارة روح يتوقعون منها المساعدة ، أو فى البحث عن روح شريرة والمحاولة فى التخلص منها .

والمعلومات المتاحة الآن تؤكد وجود حاجات اجتماعية معينة كانت السبب فى ظهور الشامانية ، وليس على خصائص نفسية معينة لعدد محدود من الأفراد ، واختيار المرشحين محدود بصفات معينة مثل أن يعرف كيف ومتى وكيف يدق على الطبل وأن يملك كامل السيطرة على جسده ، وأن يتسم بالحساسية وخفة اليد وثقة زائدة بقدراته الخاصة وأن يكون متأكدًا من سيطرة الروح الحارسة له قبل أن يضع هذه القدرات موضع الاستخدام .

والشامانى يبدأ مهمته بالسقوط فى غيبوبة هى أقرب إلى حالات الهياج ، وبات الشيوع يعتقدون أنها تطور طبيعى ومنطقى من إملاء الروح الحارسة، ثم بما انتهالته الشامانية وهى مزيج عجيب من الموسيقى والشعر والمقامات، الرغم الأدبيك أن موهبة الشامانى الفنانية هى من تأثير الأرواح ، وأن منشد الشعر الملحمى «ماناس» هو الذى يعلمه هذا الفن فى الأحلام .

ولا ينبغي النظر إلى النجاح غير العادي للشامانية المدنية على أنه أمر محدود بدوره الطبي كما يقول الباحث «جان بيبرشوميل» ، فمن الواضح أن الشامانية قد أصبحت الآن جزءًا من الحياة السياسية لمعظم دول أمريكا اللاتينية . فالعديد من المرشحين للوظائف الهامة يتقدمون ويفوزون بها (جزئيًا على الأقل) على أساس أنهم على علاقة (حقيقية أو غير حقيقية) بالشامانى المعروفين .

ففى مايو ١٩٩٦ دعى البرتو فوجيموري رئيس بيرو شخصيًا إلى ليما المعالج البرازيلى الشهير العلاج «فوجيموري» من كسر كان مؤلمًا للغاية ، وقد امتلأ ستاد ليما الكبير بعشرات الآلاف من المرضى الذين جاءوا للعلاج بجانب رئيسهم، وعلى الرغم من أن معجزات البرازيلى كانت محيطة إلا أن خزائنه كانت تحوى معجزات أخرى : إذ إن تمثالين من تماثيل العذراء في ميناء كالو بالقرب من ليما، بدأ في البكاء وبعدها كان آلاف المؤمنين المحيطين من صانع المعجزات البرازيلى قد اندفعوا ليتجمعوا أمام التمثالين الباكيين ، وكان من بينهم الرئيس فوجيموري ، وقد اعترف فيما بعد بأنه طلب من العذراء المساعدة في إعطاء الأمل للشعب .

وإن أكثر الكلمات شيوعًا في الاستخدام لتسمية الشامانية قد اشتقت في الأصل من المصطلح التركي (كام kam) ، حيث تدين أشكال الشامانية في وسط آسيا في ما يتعلق بتجانسها النسبي إلى تقليد عام مشترك وإلى تأثيرات الديانة الإسلامية ، التي تتميز في اتجاهين واضحين يتوافقان مع مجموعتين عرقيتين تسكنان هذه المنطقة، المجموعة الأولى تتحدث التركية ، والأخرى تتكلم الإيرانية .

والواجبات التى يشترك فيها كافة الشامانيين فى منطقة وسط آسيا هى تشخيص أسباب المرض وعلاجها ، البحث عن الأشخاص المفقودين ، الكشف عن الأشياء المسروقة ، وهذه الواجبات التى يقومون بها قد تقلصت إلى حد كبير عندما بدأ العرافون والمعالجون يحلون محلهم ، والانتشار الشعبى هنا ليس بالضرورة فى صالح الشامانى ، لأن العرافين والمطببين يجرون بدورهم مراسم تمثل تشبه بدورها طقوس الشامانى . ومثله فإنهم يحاولون الاتصال بالأرواح .

أما البداية البحثية الحقيقية لمحاولة إثبات أن كل هذا هو محض هراء ، فكانت عندما بدأ «تايلور» (١٨٧١) يؤكد أن الشامانى ليس إلا وارثًا لتركة من أمراض العصبية الهستيرية كالصرع ، وقد سارع كثير من الباحثين الروس (منهم خاروزين وميخائيلوفيسكى وأنوكسين وبونانين وكاجاروف وكسينوتوف بجرعة) إلى متابعة هذه الدعوى ، كما استمر البعض منهم (فينشاين وكشيف وميخائيلون وسمينشوف) فى دعم وتأييد هذا الجدال ، حتى بالرغم من أنه قد ثبت بالفعل خطؤه بعد تفنيده منذ زمن طويل .

واعتمادًا على المعلومات التى جمعت من منطقة وسط آسيا ، يعتبر حامل الأرواح الذى يتم التحرر منها من خلال الممارسات الشامانية محملاً بالعلل والأسقام ، والحقيقة أن هذا المرض يعتبر أمرًا لابد منه ، ويرى فيه الأوزبك والقرغيز عرفانًا بالجميل وعلامة على رضاء الأرواح ، وحتى وإن كان واضحًا بالنسبة للجميع أنه تم استدعاء الشامانى لكى يتأكد من التشخيص الصحيح ، ويعتقدون أن الأرواح هى التى تحمل الشامانى الصغير إلى العالم السفلى وأن سبب المرض يكمن فى كونها تخفيه هناك فى خلال أغصان شجرة الحياة وأن توفر له القوة وأن تحيطه بالرعاية والحنان بغرض إعادة خلق هذا الشخص المختار .

إنها تقطع جسمه إربا وتطهوه حتى تستطيع أن تأكل اللحم ، ثم إنها بعد ذلك تقوم بتلفيق أعضاء معينة من الجسد مع بعضها البعض وذلك قبل أن ترده إلى الحياة مرة أخرى .

ويحدثنا «رادولف» (١٨٩٣) عن شامانية من الأوزبك اسمها «أوتشيل» من منطقة «سمرقند» ، هذه المرأة كانت روحها الحارسة (حسب أقوال رجل عجوز صالح هناك) أنها كانت لرجل تقى أمرها أن تصبح شامانية حتى تنقذ البشر ، لقد جنت هذه المرأة وصار سلوكها مثيرًا للخزى والعار ، حتى بلغ بها الأمر إلى حد إلقاء ابنها من سطح الدار، حتى طفح الكيل بزوجها فقيد يديها ورجليها وحبسها في غرفتها .

ويقول القوم إن تلك المرأة التي حبسها زوجها في الدار خشية أن تستمر في ممارساتها المخبولة قد تمكنت من الفرار رغم القيود ، وذلك أن روحها الحارسة قد أطلقت سراحها عبر المدخنة ، وهذه الروح ، أتت من رجل تقى صالح في زعمهم ، فاصطحبها معه إلى الجبال المحيطة ، وهناك تولى مهمة تعليمها وتعريفها بالأزمنة الخوالي ، وعلمها الكثير من الممارسات الشامانية : « ابتهلى من أجل الحياة الحاضرة ، ومن أجل الحياة الآخرة ، ابتهلى من أجل الناس ، ابتهلى من أجل السعادة والعمر المديد ، ابتهلى من أجل الرخاء والخصوبة » .

وفي هذا ما يدل على نوع من التعليم ثم تلقينه من خلال الأحلام وهذه الأحلام لا تعلب دورًا مهمًا في الممارسات الشامانية فحسب بل أن لها دورًا هامًا جدًا في الإدراك بكافة المعارف الخاصة بالشعيرة الشامانية .

ولى الواقع ليس هناك تقليد معين لتلقى الشخص المختار تعاليمه عن طريق شاماني ذو خبرة ، فهذا الاتجاه مشكوك فى صحته ، ولكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال الإنسان الطموح من السؤال الاستفسار عما يعن له ، الحقيقة أن الأمر كله يتوقف على استعداده لاعتناق دوره ..

إلا أن معظم المعلومات الاثنوجرافية التى تشكل حيثيات الأحكام فى وضع شخصه الشاماني إنما أتت من مجتمعات تطبعت ثقافيًا أو ـ على الأقل ـ تم بعملية تحول ثقافى عديد التسارع ـ مثل منطقة سيبريا (وهى إحدى المناطق المحقق وجود الشامانية بها) كانت فى غمار مرحلة تحول ثقافى فى الوقت الذى بدأت فيه أول البحوث ، والأمر ذاته بالنسبة لأمريكا الجنوبية ، ومن هذا المنظور يمكن اعتبار الشاماني بأنه شخص هامشي ، شخصيته غير مستقرة ، يعانى من عدم القدرة على الاندماج والتوافق لهذا فهو يتزع إلى العزلة والتصوف ، ويجد فى الشامانية وواجباتها حلًا لمشكلاته الشخصية والأزمات النفسية ، إلا أنه فى بعض الأماكن فى أمريكا الجنوبية يكون للشاماني دورًا اجتماعيًا أكبر ، إذ إن استدعاءاته ليؤدى الشعائر الشامانية يتم عن طريق الجماعات وليس الأفراد ، وحتى فى أثناء تلك الشعائر التى يؤديها فإنه يتحول ليتجسد حى لكل قيم جماعته .

مثل جميع الشعائر الأخرى فإن شكل هذه التجربة ومضمونها وقيمها الرسمية والعادية تحتشد فى أنماط ثقافية ، هذه الأنماط يجب أن ينقلها الشامان المخصوم فى النهاية إلى الشاماني المبتدئ والذى سوف تحكم العوامل على قدراته فى نهاية الأمر ، وهذا التدريب على الشامانية يتطلب

قدرات غير عادية مثل الصوم والنسك والاعتزال والإمساك عن الممارسات الجنسية ، هذا بالإضافة إلى المجهود العقلى الذى قد يكون أكثر صعوبة ، حيث يجب أن يظهر الشامانى قدرًا هائلًا من البراعة الحرفية ، ولابد أن يمتلك الشامانى سعة الخيال والقدرة على الابتكار ، وأن يكون قادرًا على ارتجال التراتيل وخلق مساهمات شخصية إلى التراث الجمعى للطقوس المقدسة .

وفى حقيقة الأمر فإن اختيار الشامانى يتحكم فيه بالدرجة الأولى المجتمع الذى يكافح تحت وطأة تغييرات اجتماعية وثقافية لا ترحم ، وتصرفات الأفراد الذين يعانون من هذا التغيير ، وصنع الشامانى هنا يعتبر استجابة للقلق الاجتماعى والنفسى من جراء هذا التغيير ، وفى هذه الحالة فإن تبنى دور الشامانى (والذى يتحقق بدرجات متفاوتة من النجاح) يتم السعى وراءه وتبريره كدفاع ضد أحداث لا يمكن السيطرة عليها، كما يؤكد «ايفى ستراوس» فى نص شهير له لكى يضرب مثلًا على الدور الذى تلعبه الشامانية فى مواجهة نزعات علم النفس المرضى ، فإنه إذا كانت نسبة حدوث العصابيات والذهانيات تحت تأثير الاحتكاكات الحضارية ، تتجه إلى الارتفاع فى الجماعات التى لا تلعب فيها الشامانية أى دور ، بينما فى المجتمعات الأخرى فإن الشامانية نفسها هى التى تتطور ، وإنما بدون نمو مناظر فى المشكلات العقلية .

الذين تمكنوا من حضور بعض جلسات الشامانى ، قد استطاعوا تسجيل شىء من التراتيل التى تعتبر جوهر هذه الجلسات ، والكلام عن هذه الجلسات وما يدور فيها شرحه يطول لذلك سوف نقتصر هنا على تحديد الملامح الرئيسية لتلك الجلسات .

إن أساس هذه الجلسات كان يتجلى فى هذه الفترة التى كان يتمتع فيها
بالقدرة على تجسيد الأرواح ، كما أن تلك الجلسات المحدودة قد
بالطبع من التأثيرات المسرحية الأخرى على غرار فرع الطبول والرقص
والأسلوب السحرية بغرض تهيئة الحاضرين ، وتبدأ الأرواح فى الكلام من خلال
ويمانى وأيضًا نجرى حوارًا مع المشاهدين وتلقى بعض النبوءات بالمستقبل ،
ثم تبدأ الروح بتعريف نفسها للحضور (من خلال صوت الشامانى الرخيم)
يرفع الشامانى أثناء هذه الجلسة غطاء الرأس المعروف باسم «السيمبدى»
يشبه بـ«الطرحة» التى تغطى وجه العروس ، وهذا يعنى انفصاله عن
العالم ، وتحوله فى تلك اللحظة إلى بلورة شفافة جاهزة لاستقبال كل ما تبثه
الروح التى تتقمص جسده ، وفى نهاية الجلسة يرفع هذه الطرحة ويبدأ فى
العودة إلى حالته الطبيعية .

ولكن الملفت للنظر بشكل مثير فى خلال هذه الجلسات هو تكرار العديد
من الكلمات والتعبيرات الروسية الأصل مثل (الطبيعة السرمدية لجواز المرور بين
العوالم - الرفيق الموثوق به - آلاف من الرجال الروس ، مصدر كل الآلات الثقة فى
حركات الغرائب) الأمر الذى يفتح الباب أمام الباحثين للعديد من الاحتمالات .

على أية حال فإن الحدود التى توضع معالم المجازات والتصورات الذهنية
فى موضوع الشامانية دائمًا تميز مجالاً تثور فيه تساؤلات معينة لابد من
الإجابة عليها من خلال طريقة معرفية يصبح فيها ما يقبله العقل واقعًا فى
الحقيقة . ومن ثم فإن أنشطة الشامانى لابد أن تربط العقل بالواقع
الاجتماعى والأنثربيولوجى وأيضًا السياسى ، فهو مع انتشاره يعد موضوعًا
قانونيًا وأخلاقيًا فى نفس الوقت .

وإذا وجد أن موضوع الجنون بكافة تعبيراته الاجتماعية يمثل جزءًا متمما للتصور البشرى أو تمثيلها فى المجتمعات الشامانية على الأقل ، يمكننا وقتها أن نقوس الجنون فى التصنيفات المرضية لهذه المناطق، أى أنه عندما يتم الربط الصريح بين الجنون وبين أنثربولوجيا هذه المجتمعات فإن تطورها (كجزء من التطور العام للبشرية) سوف يتم تفسيره بمجموعة من التجليات المرتبطة بأسلوب وجود المجتمع بأكمله .

وبينما تنتظر بعض هذه المجتمعات وبعض الباحثين كذلك اليوم الذى سوف تأتى أرواح أخرى وآلهة أخرى لتغنى ترانيمها وترقص بين الناس ، وتنتظر بعد كل هذا وفى حينه التهليل والتبجيل بين الجموع ، فإن تلك الأصوات التى ألهمت الشاماتى لأزمان قد أصبحت اليوم تمتمة خافتة لا تكاد تسمع .

كما أن كافة الإيهامات التى تضاعفت كثيرًا جدًا قد وقعت فى المأزق المعروف بين الإيمان والمعرفة ، لكونها تشتمل على الادعاء بما يؤمن به الآخرون ، وتصديق ما يدعيه آخرون غيرهم، هذه الإيهامات سوف تختفى هى الأخرى بلا جدال .. هكذا يتحدث العقل، وهكذا يقول صوت مجتمعات عقد الصلح مع نفسها ومع الطبيعة منذ زمن طويل ، وأن آخر جنود الهذيان الإثنولوجى والسياسى قد دفن أحقاده منذ زمان أطول .

* * *

زائر فوق العادة

قصة العدد

أمل .. هذه هى إجابتى الوحيدة إذا سألتنى : ما الذى تحتاج إليه الآن حقًا؟ يعنا الكثير ورأينا ما هو أكثر ، ومن هذا وذاك تعلمنا كل شىء ، أو هكذا نظن فى أعوام دراستنا الأخيرة . عندما طوينا آخر صفحة فى كتاب أسباب لمرض وأنواع العلاج والعامل مع المضاعفات وبدأنا نقرأ سطورًا بلغة غامضة يرلغز الحياة و الموت مكتوبة على كل جدار وكل باب وكل زجاجة دواء فى ستشفانا العتيق . شاهدنا الروح تخرج من الجسد لتلقى بارتها كفراشة محبوسة ن قشرة جوز ثم تحررت فعرفنا أننا لم نعرف كل شىء . راقبنا لحظة الميلاد لجنين مبتل يغادر تبرقانا الرحم، وعرفنا أننا لن نعرف أى شىء . لكننا لم نكف لسؤال ولم يكف أساتذتنا عن منحنا الإجابات التى أسعفتنا قبل مرطانا .

مر العمر سريعًا ، كإبرة محقن تنزعها من وريد طفل ، احتشدت سنوات لخبرة بالرأس ، واستقرت نظرة العينين بعد حيرة البحث عن تشخيص صحيح ، لعلاج فربات القلب الذى اطمأن إلى كل وصفة كتبتها اليد الواثقة . تكدست كتبى بمراجع (ناراسكون) و(تيلر) ، واتدحمت صالة الانتظار فى عيادتى لمرضى و تلامذتى من الأطباء حديثى التخرج ممن جاءوا عرفانًا أو لطلب لمشورة . لم يعد يزعجنى أن يدق أحد الجيران باب شقتى فى وقت متأخر لأننى اعتدت السهر طويلًا أقرأ ما يصلنى كل يوم من الدوريات الطبية ثم لس فى شرفتى أتأمل النجوم وأسرارها التى لا تنتهى كألغاز الجينات المعقدة لسرة الفهم .

ورغما عني يلح علىّ في كل ليلة (وربما في كل وقت) السؤال الذي ألمحه في عيون طلابي من دارسي الطب وأطباء الامتياز ولم تنطقه ألسنتهم قط : ما الذي نحتاج إليه ؟ أخبرنا بالسلاح المناسب لنحمله معنا في معركتنا الخالدة مع المرض ، أعطنا المفتاح الذي ندخل به الحجرة الرهيبة التي ينتظرنا بها المريض وأسرته وأصدقاؤه وعلى الزوايا بين جدرانها ينسج الألم خيوطه ، وعلى أرضها بساط الفناء مفرود . وإجابتي على السؤال واحدة: الأمل هو كل ما يريده الطبيب . ربما وجم بعضكم في قنوط و غمغم : هذا فقط ؟. نعم ، هذا هو كل ما لدى لكم ، لن أرشح لكم قائمة من الكتب الضخمة لأنكم سوف تفعلون هذا وحدكم ، لن أنصحكم بأسلوب تعامل محدد مع مرضاكم فهذا سوف تكتسبونه مع الأيام ، علاجات معينة ؟ عقاقير بالاسم ؟ كلا : كل هذا تعرفونه جيدًا . ولكن تذكروا اللحظات الثقيلة التي مرت عليكم في غرفة العناية المركزة أو في مسرح العمليات الجراحية ، تذكروا العيون المعلقة لذوي المصاب وهي تبحث في ملامحكم عن الشيء الغالي الذي بدأت به كلامي ، تذكروا الأمانة المعلقة في أعناقكم وسوف تعرفون أنكم طوال هذا الوقت كنتم تعبثون بمبضع دقيق ، خطر بقدر ما هو ضروري ، سلاح ذو حدين ؛ أحدهما الأجل، والآخر هو الأمل .

ولكن دعني أقص عليك موقفًا عابرًا حدث لي في بداية حياتي العملية ، كنت قليل الخبرة والتجربة ، أحمل معي حصيلة علم دام لأعوام مضافًا إليها عشرات الملحوظات التي لم أقرأها في كتاب وإنما من حجرة الجراحة أخذتها عن حضّانات الأطفال تعلمتها ، في عنابر أمراض العظام رأيتها .

الخريج يعتقد أنه مصنوع من زجاج . كان هذا عنوان لقصة قصيرة كتبها (جرانتس) ، تصف هذه العبارة حالى وقتها، هش كقنينة من بلور حفظوا بها مئات المعلومات وآلاف الأعراض وملايين المصطلحات ، وأن أية حركة غير محسوبة أو ارتجالاً في غير موضعه سوف يجعلني أتهشم ويصبح كل ما درسته إضافة إلى أحلامي مجرد شظايا !

لكني ـ كأي خريج ـ كانت لدى ثقة هائلة فيما أعرفه وبأنني لن أعجز كثيراً أمام معظم الحالات ، وعما قريب سوف أعيد أمجاد العظيم (ويليام أوسلر) ، لكني يجب أن أتواضع الآن وأقبل الاستمرار في مستشفاي الحكومي المتواضع . بدأت أتقي الضحية مع شروق الشمس على الممرضة التي تبدأ اليوم بتسوية الفراش وإعداد أدوات الكشف وصوت أم كلثوم ينبعث من المذياع ليسعد سماع السامعين . وأرتدي معطفي الأبيض وأنتظر في عيادة متابعة حالات الأمراض الباطنة ، وهذا النوع من العيادات خصصوا له الأطباء الصغار لقلة خطورته النسبية ، ويدخل علي مريض التهاب المفاصل الروماتزمي الذي زارني من قبل مرارًا ليخبرني بالجديد في حالته ، وأتأمل أنا الانتفاخات التي انتشرت في أصابعه ، فأنصحه بارتداء ثياب بلا أزرار ، أفحص عينيه المحمرتين وأشدد عليه أن يبتاع عبوة جديدة من الدموع الصناعية ، ثم أطمئن إلى دوائه على (فعل البريدنيزون) و(الميثوتريكسات) .

وقبل أن يتركني في سلام ، يتمزق هدوء المكان بخناجر الصفارة الحلزونية لعربة الإسعاف ، وخرجنا ثلاثتنا ، بسهل المريض وحوقل وحمد الله على أنه ليس حتفًا إذا ما قورن بالكارثة التي جلبتها العربة المشئومة وهرول خارجًا

بتعثر فى الممرضة التى اربد وجهها كارهة أن تكون بداية اليوم على هذا النحو ، بينما تقدمت إلى الممر الضيق الذى سارت عليه المحفة المسحوبة على عجلات يجرها اثنان من العمال وإلى جوارها تركض ممرضة شابة تحاول أن تأخذ فكرة أولية عن حالة المصاب قبل أن تحضر الأدوات اللازمة . وهرعت إلى ركن الحق بالموكب بينما راحوا يفتحون لنا باب غرفة الإسعافات على الفور .

بدأت أدس رأسى بين المعاطف البيض أشارك فى الفحص العبدئى عندما تناهت إلى سمعى صرخات ملتاعة من الخارج حجبتها عنا الأبواب التى أغلقتها إحدى الممرضات . رأيت فى المحيطين بالفراش بعضًا من زملائى ووجوه أخرى أعرفها وطبيب أكبر سنًا . كانت المصابة امرأة فى أواخر الأربعينيات، لطّخ الدم المتجلط بعض الشعيرات البيضاء فى رأسها ، هزيلة الجسم ، شاحبة الوجه يبدو أنها قد فقدت كمية كبيرة من الدم . بقعة زرقاء داكنة أسفل جلد الفخذ الأبيض تشير إلى كسر مضاعف . ضغط دمها منخفض بشكل مرعب وكذلك درجة حرارة جسمها وسرعة تنفسها ، الاستثناء كان نبضها المتسارع بحيثما منها عينة دم للحصول على صورة كاملة وتحضير كمية جديدة تعوّض ما فقدته، يؤبؤ العين يستجيب ، حمدًا لله ، ولكن هل هو ارتجاج أم ..؟ أرسلنا فى استدعاء أخصائيو الأعصاب والعظام لتقرير ما لدينا ، وجاء الدور على أصحب المسكينة الغارقة فى اللاوعى لإجراء فحصًا على المخ .

بالخارج تعلقت بنا الوجوه الملتاعة تسأل . رجل فى الخمسينيات جاحظ العينين ، حرق القلق أطراف أعصابه وابنتان إحداهما مراهقة والأخرى طفلة وكلتاهما تبكى بحرقة، هى أسرتها فى الغالب ، هربت من نظراتهم ومن سؤال الزوج بهزة رأس مطمئنة ، وأسرعنا بالسيدة المصابة إلى حجرة الأشعة المقطعية .

إلم الجهاز الذى يرسم على الشاشة السوداء قطاعات مختلفة من مخ
مصابة سالت طبيبة الأشعة عما إذا كانت هذه المرأة الهزيلة سوف تتحمل
ي وصداع متلازمة (ما بعد الارتجاج) ، نقرت بفأرة الكمبيوتر وهى تهز رأسها
يًا ومن ركن شفتيها غمغمت بشىء من السخرية :

ـ إنه ارتجاج من الدرجة الثالثة ، لا تتفاءل كثيرًا ، كما أن هذا ليس هو
لمزال العويم الآن » .

أعرف ما الذى تعنيه . وحتى تحصيص الفيلم لعرضه على طبيب المخ
والأعصاب ، نقلنا المصابة إلى قسم العناية الفائقة وهناك نقلنا لها الدم
م الدم ، وأخيرنا الرجل الذى هدأ نوعًا عندما علم أن زوجته لم تزل على قيد
الحياة ؛ إنها تعانى من داء السكرى فتم تعليق محاليل ملحية عبر خط وريدى
بجبير كسر الساق ثم تحرير ورقة علاج .

لم تكف أى من الفتاتين عن البكاء العار الذى لا تعرف كيف تتصرف
فيه. خاصة وأن تلك الدموع الملتهبة تتفجر بغزارة من عيون تتابع كل كلمة
تخرج من بين شفتيك تقرر جديدًا فى حالة الأم الغائبة عن الإدراك ، وكأنك
على تنطق الحكم بالإعدام أو تبشرهم بالنجاة. وفى الحقيقة أنت لا تعرف
الغيب.

الضوء الأبيض فى لون الثلج وبرودته لا يقاوم الليل الذى زحف كجيل فاسد
الخلق ، كما عجزت زجاجات الدواء والمحاليل فى خزاناتنا أمام كل هذا الألم ؛
الليل من أثرها سوى رائحة كئيبة معيوبة لا تزكم أنفك فتخلقها وتسترح بل
تصل إلى روحك ذاتها وتفاجئك بكيان أسود ثقيل يجثم على صدرك ويكتم

أنفاسك . الخراطيم البلاستيكية تخرج وتدخل من فتحتى أنف مريضتى البائسة ومن فمها ، معدلاتها الحيوية ارتفعت بشكل مقلق ما جعلنا نتعامل بحذر مع المحلول الملحى وأضفنا المانيتول لأوديما المخ . وتولت(سامية) ـ البنت الصغرى كما عرفت اسمها فيما بعد ـ وضع الكمادات الباردة على جسد الأم الساخن ، كانت تعمل فى هدوء مضطرب وحزين وقطعة من الليل اليائس سكنت ملامحها ، نفس التعبير بعمق أخطر وبحدة أكثر رأيته على وجه أختها (حنان) التى استحلفتنى بكل غال ألا أكذب وأن أخبرها بحقيقة ما يجرى . وفى عينيها المبتلتين نظرة مذعورة تقول : بالله لا تنطق بحرف ، أعرف أن أمى تموت ! هربت من دموعها وأنا أتساءل أين الزوج يا ترى ؟ وفى طريقى إلى حجرة الأطباء سمعت نحنحة فى ركن قصى من أركان الممر الرخامى خارج حجرة الرعاية . كان يصلى بالقرب من إحدى النوافذ .

فى الحجرة الضيقة المكدسة بملفات المرضى ودواليب العلاج جلست أمام صورة الأشعة لمخ المرأة ، أسيرًا لكآبتى وحيرتى وعجزى ، نمت مرهقًا فوق اللوحة السوداء على المكتب ، واسم الله فى دعاء الرجل لزوجته بالشفاء كان آخر ما أدركته قبل أن أغيب عن الوجود .

* * *

تذكروا أن الطبيب لا يجب أن تطول غفوته وإلا كان العقاب أسطوريًا ! أيقنت أن شيئًا من هذا القبيل كان وشيك الحدوث عندما شعرت بيد غليظة تدق كتفى تحاول إيقاظى .

وقف أمامى بقامته العديدة فى معطفه الأبيض ، وشعره الأشيب الوفير ونظرات عينيه الحادة تتفرس فى وجهى المرتبك .

www.riwaya.ga

ـ « عظيم جدًا ! منذ متى يترك الأطباء مرضاهم وينعمون بالأحلام الوردية ؟ »

بهدوء لا يتماشى مع حاجبيه المتعقدين قالها ، وبصرامة أستحقها سمعتها .

لهجته حازمة واثقة كمن اعتاد إلقاء الأوامر طيلة عمره . لابد وأنها النهاية إذن !

هو وإلهك رئيس هذا القسم يصر على مرضاه في هذه الساعة تحديدًا لحسن

حظي ! لقد ضعت !

قمت عن مكاني وأنا من الحرج في نهاية . جلس إلى المكتب يحك لحيته

البيضاء الصغيرة يفكر في شنقي أو خنقي أو حرقي أو .. وفي النهاية قال آخر

ما يمكن أن أفكر فيه :

ـ « دنيا ! »

حدقت في وجهه غير فاهم عم يتكلم بالضبط ، فنظر إلي عيني مباشرة

وقال بنفس الهدوء المتين :

ـ « السيدة (دنيا الرحيمي) » .

يا إلهي ! إنه اسم المرأة المصابة ، نزيلة الطوارئ الوحيدة لهذا اليوم ،

نسيتها هنا بنفسي ، وكتبت تذكرة علاجها بأصابع قفازي الطبي الملوثة بما

بها من دم فكيف نسيت ؟

ـ « أجل يا سيدي ، إنها تلك المريضة بالارتجاج العينوس منه ، ولقد حاولنا أن .. »

قطع عبارتي بحدة سيف مسنون :

ـ « هراء ! متى تكفون عن قول ما لا تعلمون ؟ تماطلون في التفكير

تكاسلون في العمل والأمل بالخالق ثم تستسلمون للقنوط بسرعة البرق » .

www.riwaya.ga

حاولت أن أقول شيء ما لكنه أخرسني بقنبلة أخرى :

ـ « كيف تأكدت أنه ارتجاجًا يا بني ؟ وإن كان ، فمن منا يجزم بأنه ميئوس منه ؟ ثم أخبرني ما هو الذي حاولت أن تفعله بالضبط ؟ »

لم أعرف بم أجيب ، فابتسم ساخرًا وأشار إلى الباب :

ـ « اذهب إلى مريضتك ، إنها في انتظارك ، وأهلها كذلك ، امنحهم الأمل ، وأعطها ما تركه الله دينًا معك من علم وعمل . أما أنت فيجب أن تؤمن بصدق » .

أسرعت بالخروج لكنه استوقفني بلهجته الآمرة ، فالتفت إليه ورأيته يتناول صورة الأشعة التي تحتاج إلى إعادة فحص و يمدها إلي :

ـ « لا تنس هذه . خذها معك » .

أخذتها منه وانطلقت خارج الحجرة لا ألوي على شيء .

* * *

الأطباء الصغار متحمسون ويعرفون الكثير ، لديهم من العلم ما يملأ مكتبات العالم، وأستطيع أن أبرهن على أن أكثر من طبيب حديث التخرج استطاع أن يتحدى أستاذه وأن يثبت له أنه على خطأ ، وأن الارتجاج من الدرجة الثالثة هو كارثة ميئوس منها بالفعل وأنه مهما حاولنا فإن تقدمنا محدود ، لكنه لم يكن كذلك ! ويجب الاعتراف أن الأكبر يعرف أكثر، وأننا ـ مرة أخرى ـ لم نعرف كل شيء .

بعد ثلاثة أشهر من هذه الليلة تقريبًا كنت مدعوًا إلى حفل زفاف (حنان) البنت الشابة ، ولم تكن الدموع تلمع في عينيها هذه المرة ، وأخذت مجلس بين الزوج وابنته الصغرى والسيدة (دنيا الرحيمي) .

شيء آخر أعتقد أنه غير ذي بال في هذه القصة : في الصباح التالي لليلتي الموعودة قصصت ما حدث لأحد زملائي في العمل ، فاعتقد أنني أمزح ، فلم تكن الأوصاف التي حكيتها عن الرجل تشبه من قريب أو من بعيد رئيس القسم الذي أقسم الجميع عند سؤالي أنه لم يأت في هذه الليلة على الإطلاق ولم يدخل من أي باب .

شعرت بالغرابة ، لكنني لم أفكر كثيرًا في الأمر ، شغلني تيار اليوم المشحون والعمل المنهك بالمستشفى ، وخمنت أنه رئيس رئيس القسم أو هو صاحب مقام أعلى ، وارتحت إلى هذا التفسير ، ثم تراجعت الحادثة بالكامل إلى ظل اللاوعي . إلا أنني في لحظات ليست بالقليلة أتقدم ببطء فوق الممر الرخامي تحت الضوء النيون البارد ورائحة الدواء المختلطة وأقف بجوار النافذة التي يتسلل منها الليل يحاول الدخول ، لكنني مقاوم . وأفكر في أنه على الرغم من كل ما لدينا وكل ما نعرفه لا يزال جل ما نحتاج إليه هو إيمان .. وأمل .

* * *

تمت بحمد الله

لتحميل المزيد
من الروايات الحصرية
www.riwaya.ga

www.riwaya.ga

زائر فوق العادة

هات يدك فى يدى ولنخطِ معًا ؛ فلا يوجد ما نخاف منه سوى الخوف ذاته ! دعنا نواجه الأمر ولا نهيم هنا وهناك .. وأنت معي سوف نثرثر بجوار المدفأة عن آخر فيلم رعب رأيته (هادئ متوجس فى قلعة رومانية أو عصرى شنيع ملىء بالمصارين والعيون المقلوعة) .. سوف نمارس فى جولتنا الأولى بعض الطقوس الشامانية ونتعرف أكثر على تناسخ الأرواح ومارى الدموية ، لماذا لا نبيع أرواحنا لمفيستو الشيطانى بالمرة ؟!!

د. هشام عجام

www.rewayatmasreya.com

facebook.com/rewayatmasreya

الخط الساخن
19350

العربية للدراسات والنشر

20066001